عالم المعرفة

34

قضايا إفريقيا

تأليف

د. محمد عبد الغني سعودي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

34

قضايا إفريقيا

تأليف

د . محمد عبد الغني سعودي

أكتوبر 1980

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

مقدمه

إذا تصورنا الكرة الأرضية، فان أفريقية تبدو فيها كبيرة حجما، فهي ثاني أكبر القارات مساحة، إذ تغطي نيفا وثلاثين مليونا من الكيلومترات المربعة، وتمتد في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي، وعلى كل ركن من أركان العالم الأربعة تطل بنافذة، من نافذة البحر المتوسط تطل على أوروبا، ومن نافذة المحيط الأطلنطي غربا تطل على العالم الجديد، ومن نافذة المحيط الهندي تطل شرقا على آسيا، بينما تطل جنوبا على القارة القطبية الجنوبية عبر المحيط الجنوبي، وتتنوع مظاهر الطبيعة في القارة من الغابات الكثيفة إلى الصحارى الجرداء، ومن الجبال الحادة التضاريس إلى السهول الفسيحة والهضاب المنبسطة، كذلك كان التنوع في سكانها البالغين نيفا وأربعمائة مليون نسمة، يتفاوتون ما بين أكثر سكان العالم طولا عند الواتوتسي (بوروندي)، وأقصرهم ممثلين في أقزام زائير، ضمت سلالات الأرض جميعا من الزنجي إلى القوقازي، وحتى المغولي الصيني تظهر ملامحه في ملاجاشي.

وزاد من التنويع العرقي دخول الأوروبيين والآسيويين واستيطانهم في شرقها وجنوبها، وتظهر مجموعة المولدين الذين نتجوا عن اختلاط الأوروبيين بالعناصر الأفريقية والمعروفون بالملونين في جنوب أفريقية أو المستيزو في أنجولا وموزمبيق، والذين يضمون أيضا سلالة الملاوية والأندونيسية

التي جلبها الهولنديون الأوائل إلى جنوب أفريقية للعمل في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وإذا كانت نيجيريا اكثر دول أفريقية سكانا، إذ يبلغون نحو 76 مليون نسمة، فان هناك ثلاث عشرة دولة أفريقية يقل سكان كل منها عن المليونين، ولذلك فالقاعدة السكانية لكثير من الدول الأفريقية تعتبر واهية ولها آثارها السياسة والاقتصادية، خاصة إذا كانت في دول كبيرة المساحة كموريتانيا، وتشاد، والنيجر، ومالي حيث تظهر مشكلات اقتصادية وإدارية وسياسية نتيجة هذا الوضع.

وأفريقية من أكثر القارات تفتتا من الناحية السياسية، تضم نحو 50 وحدة سياسية لا يعادلها في ذلك قارة من قارات العالم الأخرى، وتختلف الدول الأفريقية حجما، فمساحة ساوتومي و برنسيب 9672 كيلومترا مربعا أما السودان أكبر الدول الأفريقية فتبلغ مساحته مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع، و يعبر هذا التنوع الطبيعي والبشري في أكثر من مناسبة عن نفسه في كثير من القضايا الأفريقية التي تطفو على السطح، ولنأخذ مثلا بسيطا السنغال وكينيا وأنجولا، من حيث اللغة الرسمية والنظم الإدارية والنظم التعليمية، بل وهندسة البناء، والمحاصيل التي تزرع أتزرع مما يعكس الارتباطات الاستعمارية بفرنسا وبريطانيا والبرتغال، و يكفي أن نضرب مثلا بالجزائر أيضا حيث كان الاستعمار الفرنسي والمستوطنون الفرنسيون، الذين اهتموا بزراعة القمح والكروم كامتداد لتقاليدهم الزراعية في فرنسا، على عكس المستوطنين الهولنديين (البوير) في جنوب أفريقية، الذين كان همهم الأول تربية الماشية، كامتداد لتقاليدهم الزراعية في موطنهم الأول هولندا. و يبدو التنوع أيضا حتى في المذاهب والأيديولوجيات المختلفة التي اتبعتها الحكومات الأفريقية، ورغم أن معظم الشعوب الإفريقية مازالت على درجة ليست كبيرة من الوعي السياسي بهذه, المذاهب، فان هذه المذاهب المتباينة لاشك تؤثر في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لهذه الدول، وقد ظل الاهتمام بأفريقية هامشيا حتى الستينات، وليس من شك أنه من الأهمية بمكان توضيح أسباب هذا الاهتمام العالمي المفاجئ في السنوات الأخيرة، ويمكن القول بأن هناك أربعة أسباب رئيسية لهذا الاهتمام وهي:

أولا:-

ذلك العدد الضخم من المستعمرات الأفريقية التي حصلت على الاستقلال ودخلت في عداد الدول المستقلة، وبذلك تعتبر كتلة لها وزنها في المجتمع الدولي إذا ما اتحدت وتكاتفت.

ثانيا:-

زاد اهتمام العالم بأفريقية كمخزن رئيسي لكثير من المعادن الرئيسة والاستراتيجية كالبترول واليورانيوم والكروم والنيكل والنحاس والذهب والماس فضلا عن بعض السلع الزراعية كنخيل الزيت والفول السوداني والكاكاو، والقطن والسيسل، والتبغ، والبن، فضلا عن الصوف والجلود، وهي كمصدر للثروة الاقتصادية زادت أهميتها اليوم عما كان الحال إبان الفترة الاستعمارية، وزادت فيها الاستثمارات الأجنبية عن ذي قبل.

ثالثا:-

أهمية أفريقية الاستراتيجية للقوتين العظميين سواء بالنسبة لحوض البحر المتوسط، أو الشرق الأوسط، أو المحيط الهندي، أو الأطلنطي الجنوبي، وقد أصبحت القارة فعلا أرض صراع بين القوتين.

رابعا:-

ويرتبط هذا السبب الأخير بالعوامل الثلاثة السابقة وان كان أهمها جميعا فيما يختص بزيادة الاهتمام العالمي بها، وهو أن أفريقية أكثر القارات التي غطاها الاستعمار، وآخر قارة انكشف عنها، وأصبحت اليوم ساحة تتنافس عليها مختلف أشكال الاستعمار الجديد، وأرض صراع وتحد أيديولوجي بين الشرق والغرب.

وإذا كان اهتمام العالم بأفريقية يتزايد و يطرد فينشئ لها المعاهد المتخصصة، والدراسات التفصيلية، فأظن أننا نحن العرب ملزمون قبل غيرنا بفهم أوضاع القارة ومشكلاتها، حتى نكون على صلة بما يدور ويجرى حولنا، ولما كان العالم قد انكمش نسبيا بسبب ثورة وسائل النقل والاتصال، بحيث اختصرت المسافات وقربت الأقاصي، فكيف لا نلم بأفريقية وهي تمثل الجزء الأكبر من أراضينا من ناحية، والباقي منها يتاخمها من ناحية أخرى، وما يحدث فيه يؤثر فينا تأثيرا يكاد يكون مباشرا، ولا ننسى أن أكثر من ثلث سكان القارة الأفريقية عرب، أو ذوو قربى للعرب.

والمشكلة هي أن معرفة أفريقية في وطننا العربي تتم في معظمها عن طريق وسائل الإعلام التي تعطي صورة مليئة بالخلط والتعقيد، ولا تعطي فكرة صحيحة عن أوضاع القارة ومشكلاتها، بل تقدم صورة تتصف بالعمومية الزائدة.

ولذلك وجدنا أنه قد يكون من المفيد أن ندلي بدلونا في عرض بعض الصور والجوانب الخاصة بالقارة، واخترنا بعض القضايا التي نعتقد أنها قد تكون بعيدة عن التداول، وسلطنا عليها الضوء وهي:-

مكانة أفريقية في المعالم، وقضية العرب وأفريقية، وقضية اللغة، وقضية الزنوجة، وانتهينا بقضية الوحدة القومية.

فان كنا قد وفقنا بعض التوفيق في إيضاح هذه القضايا فهذا غاية ما نبغي، وما توفيقنا إلا بالله.

محمد عبد الغني سعودي

١ إفريقية والعالم

افريقية في تاريخ البشر

تاريخ أفريقية القديم هو تاريخ الحياة البشرية الأولى على سطح الأرض وتطورها عبر فترة تقدر على الأقل بنحو ثلاثة ملايين عام، لأنه أصبح من المسلم به الآن، وعلى نطاق واسع بأن أفريقية هي مهد الإنسان الأول، فحتى وقت قريب كان من المرجح أنه نشأ في مكان آخر، ليس في أوروبا، ولا في الأمريكتين، بل في آسيا وجنوب غربيها على وجه الخصوص، ولكن عدل عن هذا الرأي بفضل أبحاث وحفريات دكتور ليكي(*) Leaky, L.S.B. وزوجته في شرقي أفريقية واكتشافه في يوليو عام 1959 لجمجمة حفرية لنرع بشري (وهو إما مخلوق بشري أو من أسلاف البشر) يرجع تاريخه إلى ما يقرب من مليوني سنة، وقد وجد بجانب الجمجمة بعض الآلات الحجرية وقطع من عظام الحيوانات التي اصطادها وأكلها في ذلك الموقع. ورغم أن هذه الجمجمة لم تكن أولى الحفريات البشرية التي اكتشفت في أفريقية، فإن وجود تلك الآلات الحجرية بجوارها معناه قدم وجود أسلاف البشر الذين توصلوا إلى مستوى تقني بدائي لمعرفتهم صناعة الآلات الحجرية، وقد أطلق ليكي على هذه

الحفرية لفظ القرد الجنوبي[1] Australopithecus لشبهه بنظيره الذي اكتشف في أفريقية الجنوبية، وأطلق عليه أيضا كاسر البندق NutGracker وذلك لضخامة ضروسه، التي كان يستعملها لكسر العظام وطحن النباتات والحبوب الجافة، كما أطلق عليه الإنسان الصانع Homo Habilis أي الإنسان الذي يصنع الآلات. هذا وقد تم اكتشاف حفريات أخرى تنتمي لهذه الفترة في شمال أفريقية أيضا، في المغرب وتونس، ووجدت معها آلات حجرية متنوعة، وان كانت كلها صغيرة الحجم لا يتعدى طولها ثلاث أو أربع بوصات.. . ومن المرجح أن ذلك الإنسان كان حجمه صغيرا وطوله أقل من خمسة أقدام، وقوته العضلية أقل من الإنسان الحالي ومخه صغيرا يتراوح حجمه بين 500 , 600 سم مكعب[2]، وأنه كان يعيش في مجموعات صغيرة تتراوح بين عشرة الأفراد والخمسين فردا.

وفي زمن متقدم نسبيا أو منذ نحو مليون سنة ظهر نوع بشري اكثر تطورا، أطلق عليه: الإنسان المنتصب القامة،[3] Homo erectus أو صاحب الحضارة الأشولية، وعثر عليه في جاوة بفضل أبحاث دكتور يوجين ديبوا Eugene Dubois وقد وجد هذا النوع البشري في جهات عديدة من أفريقية في شرقها وشمالها وجنوبها. و يتميز بأنه أقرب إلى النوع الحالي فيتراوح حجم مخه بين 770 سم مكعب إلى 1225 سم مكعب، ومنه ما بلغ 1600 سم مكعب وكان يقف. منتصبا، وكانت لديه القدرة على صناعة آلات وأدوات أفضل، بل وتعلم الآخرين كيفية صنعها، ومما يدل على أنه كان أكثر تطورا أيضا تنوع آلاته وكبر حجمها كالفؤوس، والمكاشط التي كانت تصل إلى ثماني بوصات طولا، والتي كان يصنعها من الكوارتز أو أي حجر مناسب، ويبدو أنه كان لديه وعي بجمال المظهر، ففي إحدى المواقع التي عثر فيها على تلك الآلات في أولدفاي[4] (شرق أفريقية) وجدت معها قطع من أكاسيد الحديد، الذي مازال يستعمل لتلوين الجلد باللون الأحمر، وبالبحث عن مصدر هذه الأكسيد، وجدت أنها تقع على بعد 50 ميلا من هذا الموقع، مما يدل على أن إنسان هذا العصر قد جلبها من هناك إلى معسكره، وكان انتشار هذا النوع البشري في جهات كثيرة من أفريقية وأوروبا واسيا، مما يدل على أنه كان باستطاعته أن يكيف نفسه، وأنه كان قادرا على استخدام آلاته وذكائه للحصول على الطعام والمأوى، وحماية نفسه والدفاع عنها ضد

أعدائه الطبيعيين في بيئات مختلفة تتراوح بين الباردة والدفيئة، ولم يسكن



شكل رقم (١) خريطة افريقية السياسية

١- جيبوتي 2- رواندا 3- بوروندي 4- زيمبابوي (روديسيا) 5- غينيا الاستوائية 6- بنين 7- توجو 8- غينيا بيساو 9- غمبيا. ويلاحظ في حالة الصحراء الغربية أن موريتانيا تنازلت عن القسم الذي استولت عليه لجبهة البوليزاريو بينما تحتفظ المغرب بالقسم الذي سبق أن مدت نفوذها إليه، ومازال الإقليم يمثل مشكلة

في أفريقية أقاليم الغابات، ولكن انتشاره كان واسعا في أقاليم المراعي في شمال وشرق وجنوب القارة، وقد ظهرت أكوام من الصخور في كثير من المواقع التي كان يحتلها كما هو الحال في ألورجيسايلي olorgesailie في كينيا (5) ويبدو أنها كانت تستخدم كمصدات للرياح أو كنوع من المأوى، ومن المعتقد أنه كان يتغذى بالمواد النباتية والحيوانية معا، ولكن الشواهد تدل على أنه كان يصطاد الحيوانات الكبيرة إلى جانب الصغيرة، ففي الموقع السابق الذي ذكرناه في كينيا، وجدت هياكل عظمية لأفراس النهر مع بعض الأدوات الكبيرة الحجم، والمرجح أنها صنعت خصيصا لتقطيع تلك الأنواع الكبيرة. ولذلك يظن أن الإنسان المنتصب القامة استخدم تقنيات مختلفة لاكتشاف هذه الحيوانات الضخمة واصطيادها وقتلها، ومن المعتقد أنه كان بإمكانه التحكم في النيران بحيث يشعل الحرائق، فيدفع الحيوان في اتجاه معين حيث ينتظره عدد من الصيادين بالحراب فيرمونه بالحجارة الثقيلة.

ورغم تفوق هذا النوع البشري فانه كان أقل ذكاء وابتكارا من خلفه الإنسان العاقل Homo Sapiens أو الإنسان المفكر thinking فلقد ظل الإنسان المنتصب القامة لفترة تبلغ نحو نصف مليون سنة وهو مستمر على حياته التي ذكرناها، وصانعا نفس تلك الأدوات مع تطور بطيء للغاية، لذلك فقد كتب عليه الاختفاء كأسلافه من البشر لذكائه المحدود وقلة حيلته، ومفسحا الطريق لخلفه إنسان العصر الحديث، الإنسان العاقل.

ولقد اتفق اختفاء الإنسان المنتصب القامة وظهور الإنسان العاقل مع تغيرات مناخية رئيسية شملت القارة الأفريقية بأكملها كما شملت بقية أجزاء العالم. إذ اتفق هذا مع آخر الموجات الجليدية التي بدأت منذ سبعين ألف عام، وانخفضت فيها درجات الحرارة في كل أنحاء الكرة الأرضية،

وازداد حجم وامتداد الغطاءان الجليدية في القطب الشمالي والجنوبي، وأصبح جزء كبير من شمال وشرق أفريقية اكثر رطوبة، فانتشرت الأشجار والحشائش في أراض تغطيها الحشائش أو الصحاري في الوقت الحاضر، وأجبرت الغابات المدارية الرطبة على التقهقر والتقلص في المساحة. هذه التغيرات العظيمة في المناخ أثرت بلا شك في الحياة النباتية والحيوانية، من ثم فخلال هذه الفترة انقرضت الحيوانات العشبية الضخمة مفسحة



شكل رقم (2) آلات العصر الحجري التي اكتشفت في حفريات إنسان ما قبل التاريخ في شرق أفريقية (لاحظ أنها تستدق حجما كلما تطور الإنسان، قارن آلات العصر الحجري القديم الأسفل بالعصر الحجري القديم الأعلى) هذه الأشكال منقولة من كتاب.

Pasnansky m., Prelude to East African History, 0.U.P 1966, PP.

الطريق للأنواع الحديثة. ولا بد أن العصر الجليدي قد واجه الإنسان المنتصب القامة والإنسان العاقل بصعوبات وتحديات خطيرة للغاية، و يستدل من بقايا الحفريات البشرية والأدوات المستخدمة على أنه حدثت تطورات خطيرة في الفترة الممتدة من 70 ألف إلى 35 ألف عام ق. م، أهمها اختفاء الإنسان المنتصب القامة، وظهور الإنسان العاقل، الذي أطلق عليه في أوروبا إنسان نياندرتال، وفي أفريقية إنسان روديسيا(6) ولا يختلف في صفاته الجسدية عن الإنسان الحالي إلا في ضخامة جسمه بعض الشيء مع اختلاف في الوجه والرأس، فما زال لديه الفكان الضخمان والأسنان الكبيرة التي تميز النوع البشري في مراحله الأولى فضلا عن بروز عظام الحاجبين، ولكنه منتصب القامة تماما، ويزيد حجم مخه على 1200 سم مكعب ويبلغ طول قامته نحو خمسة أقدام وست بوصات. وقد مرت صناعة الأدوات التي استخدمها هذا الإنسان العاقل بتطورات خطيرة، بل وثورية خلال هذه الفترة، بالمقارنة بنصف مليون السنة السابقة التي عاشها الإنسان المنتصب القامة، فظهرت تقنيات جديدة في صناعة الأدوات الحجرية، وأنواع جديدة من الأدوات والخامات المشتقة منها تلك الأدوات، فلم تعد الصخور هي الخام الوحيد، بل استخدمت عظام الحيوان والعاج، وكان لكل نوع استخدام خاص، يتفق والإقليم الذي صنع فيه، فهناك المكاشط، والسكاكين، والحراب، ونصال الفؤوس، وغيرها، مما استعمل في نشاط ذلك العصر وكان موجها أساسا لجمع النباتات البرية والصيد. وأنتج ذكاء الإنسان العاقل هذه الأدوات مهذبة ومعدة بطريقة تدل على المهارة، فكانت أكثر فعالية، سواء في الحفر أو القتل أو السلخ والقطع، كما نشطت الصناعات الجلدية التي كانت من مميزات العصر الحجري الوسيط، لذلك تعددت الأنواع الحيوانية التي استطاع اصطيادها، وبلغت في إحدى المواقع ثمانية وثلاثين نوعا، وكان ظهور عدة مواقع تحتوي على عظام حيوانية أسفل الجروف الصخرية معناه أن الإنسان كان يتبع طريقة خاصة لمطاردة الحيوانات إلى الجروف الصخرية حتى تسقط، وعندئذ يقوم بسلخها وأكلها عند حضيض تلك الجروف، وربما استخدمت النيران لمطاردة تلك الحيوانات. هكذا أشارت حفريات هذا الإنسان في النوبة المصرية، وفي برقة بليبيا وفي المغرب وروديسيا وجنوب أفريقية وأنجولا.

ولا بد أن ذلك الإنسان كان يحيا حياة جماعية عرف فيها التعاون لمطاردة الحيوان والدفاع المشترك ونظام القرابة، ولا يمكن للتقنية التي وصل إليها أن تنتقل لو لم يكن لديه القدرة على التعبير بطريقة بدائية وخاصة لتعيين أسماء الأشياء[7].

وتبرز أفريقية حتى الآن كأقدم موطن لحفريات ذلك الإنسان العاقل، فقد اكتشف دكتور ليكي منذ سنوات عددا من أجزاء الجماجم التي تنتمي إلى إنسان العصر الحديث بالقرب من خليج كافيروندو في غرب كينيا، وقدر عمرها بما بين 55 ألف، 60 ألف عام ق. م وبذلك تعتبر أقدم بقايا الإنسان العصر الحديث، الإنسان العاقل، بينما نظائرها في أوروبا ترجع إلى ما يتراوح بين 30 ألف و 40 ألف عام ق. م، لذلك فمن المحتمل أن القارة الأفريقية هي أم وأب البشرية كما يقول دافيدسن. وإذا كانت صناعة الأدوات في العالم أجمع قد مرت بالمراحل المعروفة، وهي مرحلة العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الوسيط (الأدوات من الحجارة والعظام) ثم العصر الحجري الحديث، حين أصبحت صناعة الأدوات الحجرية أكثر دقة، وارتبط ذلك العصر بمعرفة الزراعة كوسيلة للحياة، فان ذلك العصر ظهرت فيه الأدوات المصنوعة من المعادن إلى جانب الأدوات الحجرية والتي بدأت تختفي تدريجيا بظهور عصر البرونز والحديد. وفي هذه الفترة انتشرت الزراعة حيثما كان المجال مناسبا، وكانت الزيادة الزراعية من نصيب مصر القديمة التي أطلق عليها مهد الحضارات، وترتب على ذلك استمرار الإنسان ونشأة المدن وظهور أقدم دولة في التاريخ.

وهكذا لم تكن أفريقية بمعزل عن موكب الإنسانية في تقدمه، بل كانت في مقدمة هذا الموكب في العصور التاريخية أيضا، وكان وهما ما قاله المغرضون بأن أفريقية لم تخلق فكرا ولا أدبا ولا حكة ولا فنونا، فقد كان شمال أفريقية جزءا من الإمبراطورية الرومانية له قدره ومكانته، كان شونة الحبوب التي تمد روما بحاجتها من القمح والشعير ونمت وازدهرت مدن شمال أفريقية، وما زالت بقاياها وإن تغيرت أسماؤها، وقدم شمال أفريقية إلى الكنيسة المسيحية في صورها الأولى واحدا من اكبر رجالات الدين المسيحي، وهو القديس أوغسطين، وإذا كانت الحضارة الرومانية قد أخذت عن الحضارة اليونانية التي ظهرت في كريت واليونان، فان هذه كان

أساسها الحضارة المصرية القديمة.

وفي العصور الوسطى حين كان بارونات إنجلترا وسكوتلندا يقاتل بعضهم بعضا بشراسة، وحين كانت سفن الأوروبيين عاجزة عن الوصول إلى المحيط الهندي أو حتى عن ساحل غرب أفريقية كان ملوك وسط أفريقية ومستشاروهم يأكلون في صحاف الصين تأتيهم من ذلك القطر القصي البعيد، وقامت ممالك مستقرة في جنوب الصحراء مثل مالي وصنغى وغانا، لها حكامها وجيوشها ونظمها.

وإذا ضربنا مثلا بدولة مالي في عهد منسي (الحاكم) موسى (1312 م-1337 م) نجد أنها بلغت الأوج من حيث التنظيم السياسي واستتباب الأمن والغنى وازدهار العلم والمعرفة، وازداد ارتباطها بمصر وشبه جزيرة العرب وقامت منها قوافل الحج إلى مكة مارة بمصر، وأهمها قافلة منسي موسى المحملة بالذهب، وفي عودته إلى بلاده اصطحب معه علماء من الحجاز ومن مصر ليعلموا شعبه، وقد شيد أحدهم قصرا للحاكم ومسجدا في تنبكت (يطلق عليها الآن تنبكتو) مستخدما الطوب لأول مرة، وأصبح جامع تنبكت ومكتبته بمثابة منارة للعلم يتبادل العلماء مع الأزهر في مصر ويضم مكتبة مليئة بالمخطوطات النادرة، وأنشئت المدارس لتعليم القرآن والفقه والشريعة. وما أن هل القرن السادس عشر حتى كان علماء المسلمين يكتبون في موضوعات عديدة تاريخية وقانونية وأخلاقية ودينية. ومن أشهر من كتب بالعربية من أبناء غرب أفريقية في ذلك الحين محمود كعت (تاريخ الفتاش) وعبد الرحمن السعدي (تاريخ السودان) وأرسى أمثال هؤلاء حب المعرفة والإقبال على العلم[8].

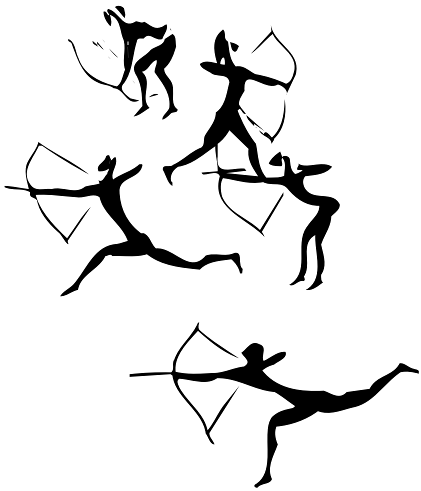
وفي ذلك العصر الوسيط أيضا تجول على ساحل شرق أفريقية (عام 1331م) رحالة مغربي من فاس، وكتب ابن بطوطة انه وجد السلام والثروة في كل المدن التجارية للساحل الشرقي من الشمال إلى الجنوب سواء في مجديشو، أو ماليندي، أو ممبسة، وان كانت مدينة وميناء كيلوا قد استأثرت بانتباهه، فذكر أنها أجملها جميعا، وقد استقبله حكام هذه المدن وتجارها بحفاوة بالغة، واكرموا وفادته، وكانت كتب التاريخ من قبل تذكر بأن هذه المدن ليست أفريقية، ولكن الباحثين المنصفين يذكرون أنها كانت مراكز للحضارة والمدنية في الفترة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر

الميلادي، وكانت حضارتها أفريقية، حضارة السواحيلي التي ترجع في نشأتها إلى اكثر من ألف سنة قبل ذلك. وقد اتسعت تجارة هذه الموانى في العاج والذهب ووصلت سلعها إلى الصين. وظلت على حالها حتى دمرها البرتغاليون بعد عبور فاسكوداجاما رأس الرجاء عام 1497، بدأ عصر الظلمة بدخول الأوروبيين.

وفي ميدان الفن، انظر إلى ما قاله Hans Rhotert مدير متحف لندن في شتوتجارت عن الرسوم والنقوش على صخور الصحراء

الكبرى: من المحتمل أنه لا يوجد إقليم على وجه الأرض يضم ثروة هائلة من الصور المرسومة أو المحفورة على الصخر بيد إنسان ما قبل التاريخ مثلما وجد في أودية وسفوح الصحراء الكبرى، من جبال أطلس الصحراوية إلى جبال الأحجار واير وتاسيلي وتبستى إلى هضبة الجلف الكبير والعوينات. ونظرا لطبيعة الصحراء وقسوتها كان جزء كبير من الاكتشافات يرجع إلى القوات الاستعمارية في توغلها في الجهات البعيدة، لذلك فرغم العدد الضخم من الرسوم على صخور الصحراء نجد أنه ينقصها النظرة الأصولية الشاملة.

ومع ذلك فقد بدأت بعثات لدراسة رسوم ونقوش الصحراء بطريقة مكثفة، ومن أهم من قام بمثل هذه الدراسة الباحث الفرنسي هنري لوت Henri Lohote الذي قام هو ورفاقه بدراسة مكثفة لرسوم جبال تاسيلي حيث تكثر النقوش على الحجر الرملي السهل الحفر، وقامت قبله سيدة سويسرية تدعى جولاند تشودي Jolande Tshudi بزيارة ناجحة إلى تلك الجبال ونشرت مجلدين عن رسومها عام 1956. ورغم انه لا يوجد اتفاق على تاريخ محدد لهذه النقوش، فإن هناك إجماعا على أنها ترجع إلى ما بعد العصر الجليدي Post glaci، أو بمعنى آخر إلى العصر الحجري الحديث، فأقدم ما تمثله تلك النقوش والرسوم في الصحراء الكبرى أناس يعيشون على الصيد والجمع والالتقاط، أما الحيوانات فهي الحيوانات الضخمة التي تنتمي لذلك العصر كالفيل والأسد والزرافة وبدرجة أقل الجاموس وفرس النهر والتمساح والنعامة، ولما كانت الصحراء الكبرى قد تمتعت بمناخ رطب دفيء فيما بين 5000 , 2500 ق. م، فان ظهور هذه الأنواع ليس مستغربا، بل و يعطينا مفتاحا لتاريخها على وجه التقريب.



- شكل رقم (3)-رسم إنسان ما قبل التاريخ على صخور جبال تاسيلي في الصحراء الكبرى.. وهي التي عرضها الرحالة الفرنسي Lhote في باريس في معرض صوره عن الصحراء. نقلها:
Basil Davidson, Guide to African History, Allen, Unwin, London, 1971, p.11



- شكل رقم (5)-تمثال لامرأة من بنين (نيجيريا) مصنوع من البرونز (متحف الشعوب ببرلين).



- شكل رقم (4)-تمثال لامرأة من بنين (نيجيريا) مصنوع من العاج (متحف الإنسان في نيويورك).

الاشكال 4, 5, 6, 7, 8 - عن Georges Balandier, Jacques Maquet
Dictionary of Black African Civilization, Leon Ameil, Newyork

ولقد وضحت هذه الصور التاريخ البشري في أفريقية على صورة لم يعهدها أحد من قبل، ورأي الناس في معرض لوت أساليب متنوعة لحفر الأفريقيين على الصخر رأوا صورا لرجال ونساء وحيوانات، خلقتها أصابع فنان حساسة، صورا للحرب والسلام، صورا للآلهة ولأشكال آدمية، فإذا كان العلماء يرجعون هذه الاثار إلى أياد زنجية صنعتها قبل ستة آلاف عام قبل الميلاد، فأين كان العالم حينئذ؟.(*1)

انظر كيف يقف الفنانون مشدوهين أمام تماثيل البرونز وخشب الابنوس والعاج في نيجيريا وبنين والكرون وغيرها والتي تدل على تراث فني وحضاري على مستوى عالمي حتى بمقياس الفن في عالمنا المعاصر.

وفي ميدان الموسيقى يعترف الجميع بأن الموسيقى الجاز والرومبا والسامبا أفريقية المنشأ، انتقلت إلى العالم الجديد مع الأفريقيين حين كان الأوربيون يقومون بشحنهم إلى هناك، واحتكت بالموسيقى الوافدة أيضا من أوروبا، وانتشرت في القرن العشرين، وعادت لتنتشر مرة أخرى لا في أوروبا وآسيا فحسب، بل في أفريقية ذاتها مرة ثانية، فهي تسمع في أكرا وكينشاسا، وجوهافسبرج، وهي كما يقول الأفريقيون بضاعتنا ردت إلينا، وبلغة الاقتصاد هي ليست مستوردة من أمريكا بقدر ما هي معادة التصدير إليهم.

أفريقية في الاقتصاد العالمي

خصائص الاقتصاد الأفريقي:

تتميز أفريقية بتعايش اقتصاديين مختلفين معا، وهما على طرفي نقيض: اقتصاد معيشي. Subsistence econ واقتصاد تبادلي Exchange econ، وان كان معظمها يعيش في حالة انتقال بين النوعين. النوع الأول إنتاج غذائي لكفاية حاجة السكان والثاني للتصدير، وليس من شك أن الاقتصاد المعيشي نطاقه اكثر اتساعا سواء في الزراعة أو الرعي، و يستوعب معظم الأيدي العاملة والأرض المستغلة، أما الاقتصاد النقدي أو التبادلي الذي يعتمد على رؤوس الأموال والخبرة فقد دخل مع الاستثمارات الأجنبية إلى حد كبير، و يظهر في قطاع إنتاج الغلات التجارية كالقطن والبن والشاي فضلا عن قطاع التعدين. و يتميز الاقتصاد الأفريقي بسيادة النشاط الإستخراجي أو الإنتاج



شكل رقم (6)-عرش أحد سلاطين قبيلة البامليكي في الكمرون-مصنع من الخشب والخرز.



شكل رقم (7)-تمثال لرأس إحدى الأميرات من البرونز-بنين (نيجيريا)



- شكل رقم (8)-قناع من الخشب (المتحف البريطاني)

الأولي، بمعنى تغلب الحرف الأولى كالصيد والرعي والزراعة على الحرف الثانية والثالثة كالصناعة والخدمات. وحتى الصناعة في معظمها فهي استخراجية في المكان الأول، والتحويلية منها هي استهلاكية في المرتبة الأولى كالصناعات الغذائية والمنسوجات. و تميز الإنتاج وخاصة التجاري منه بأنه جزري أو بمعنى آخر مبعثر(2*)، وليس على هيئة نطاقات كما هو الحال في أمريكا الشمالية مثلا، وقد يرجع هذا في الزراعة إلى مشكلة المياه أو حالة التربة. والنماذج واضحة لهذا الإنتاج الجزري، ففي مصر مثلا نسبة المزروع 5 , 3٪ من المساحة الكلية والباقي صحراء، وفي النيجر لا تحتل الزراعة سوى نطاق عرضه 80 كيلومترا شمال النهر. وتتكرر الصورة من الناحية التعدينية، فهناك نطاق النحاس في زامبيا وزائير وإقليم الذهب، والبوكسيت في جنوبي غرب غانا، وجزر البترول في صحاري شمال أفريقية، وأخيرا فهذا اقتصاد نام أو متخلف في معظمه، سواء بمعيار الدخل القومي أو توزيع العاملين على الحرف المختلفة، أو في نصيب الفرد من استهلاك القوى المحركة، أو في انعكاساته الاجتماعية، كمتوسط الأعمار، ونسبة تداول الصحف، ونسبة الأطباء والأمية، وهو أيضا اقتصاد يعتمد على التصدير بالدرجة الأولى، والتصدير هنا للخامات والمواد الغذائية في المكان الأول.

اتصال أفريقية بالاقتصاد العالمي قبل القرن العشرين.

يتفق الباحثون على أن دخول التأثيرات الاقتصادية الأوروبية في أفريقية هو خير منطلق لدراسة علاقة أفريقية بالاقتصاد العالمي، أو بمعنى آخر تحرك أفريقية للمشاركة في الاقتصاد العالمي. فهذه المشاركة تعتبر أهم حقيقة اقتصادية شهدتها القارة في القرن الحالي، أثرت في الاقتصاد العالمي وتأثرت به، وكانت هذه المشاركة وتلك المساهمة إحدى الدوافع الرئيسية للتغير الاقتصادي الديناميكي الذي شهدته الأقطار الأفريقية، غير أننا لا يمكن أن نعزو الفرق بين أفريقية القرن التاسع عشر وأفريقية القرن العشرين إلى دخول أفريقية ميدان التجارة الدولية المنظمة، والذي نتج بدوره عن التأثيرات الخارجية الأوروبية، فما لا شك فيه أن تغيرات اقتصادية كانت ستحدث في القارة حتما، وان كنا لا يمكن أن نجزم بطبيعتها

ومداها.

وقد عرفت أفريقية التجارة الدولية، ولم تكن التجارة عبر ما يعرف حاليا بالحدود السياسية الدولية مجهولة للمسرح الأفريقي قبل الاحتكاك الأوروبي، إذ ترجع الاتصالات التجارية البعيدة المدى إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، حين أرسلت مصر بعثاتها التجارية عبر البحر الأحمر إلى بلاد بونت (الصومال) لجلب البخور والذهب والعاج وجلود الفهود، وقد ترجع الصلات بين شرق أفريقية وجنوب الجزيرة العربية إلى اقدم من هذا، وكذلك الحال في صلات شرق أفريقية بالصين كل ما في الأمر أن الجغرافية حددت اتجاه الاتصالات التجارية الأولى بين أفريقية الزنجية من ناحية، وأفريقية الشمالية وجنوب غرب آسيا من ناحية أخرى.

غير أن قلب أفريقية ظل بعيد المنال حتى القرن الماضي، لظروف طبيعية انفردت بها القارة، وتمثلت آثارها من الناحية الاقتصادية في صعوبات النقل حتى بعد اكتشاف بعض أجزائها، فقد كان من المستحيل على حيوانات الجر أن تحيا في هذا القلب، وحتى إذا قيضت لها الحياة فلم تكن مدربة على الجر[*3] لذلك لم تعرف أفريقية جنوب الصحراء استخدام العجلات إلا متأخرا، وكانت وسيلة النقل هي الحمل على الرؤوس وهي أبهظ الوسائل وأكثرها نفقة.

وعلى رغم ذلك شاركت أفريقية في ميدان الاقتصاد العالمي منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر في سلع ذات خصائص معينة، فصدرت الذهب الذي كان يسيل له لعاب الأوروبيين، حين كانوا يسمعون بقوافله التي تعبر الصحراء، وكان مصدره مملكة غانا التي امتدت من النيجر إلى السنغال، وتبعتها مملكة مالي، وظل هذا القسم من أفريقية مصدر الذهب الوحيد تقريبا من القرن الثامن حتى كشف الأمريكتين، وقدرت قيمة الذهب الذي صدر عبر الصحراء قبل وصول البرتغاليين بنحو 200 ألف جنيه إسترليني سنويا.[10]

بل لقد كان أهم حدث في تاريخ الكشف البرتغالي من الناحية الاقتصادية هو الوصول إلى ساحل يمكن فيه المقايضة بالذهب عام 1471م، فقد كشف البرتغاليون ساحل غينيا، وأطلقوا عليه ساحل الذهب، وبنوا حصن سان جورج عام 1842 م (في الميناء المعروف في غانا اليوم باسم المينا) ليكون

بمثابة مستودع للتبادل بين السلع البرتغالية من ناحية، وذهب غرب أفريقية من ناحية أخرى.

أما على الساحل الشرقي فكان العاج هو السلعة الرئيسية، فضلا عن التوابل وخاصة القرنفل واللبان والبخور، والى الجنوب قامت عدة موانئ تتاجر في الذهب والحديد وصدفات السلاحف.. . الخ وحينما حرمت تجارة الرقيق في غرب أفريقية في أوائل القرن التاسع عشر، وهبط مورد العاج، وقل إنتاج الذهب، اكتشف الأوروبيون بعد فترة إمكان قيام تجارة على أساس شجرة برية وهي نخيل الزيت الذي بدأ الطلب على زبدته يشتد في أوروبا لصناعة الصابون والشموع وكمادة للتشحيم فضلا عن الزبد الصناعي(11)، وكان هذا بداية لتجارة تراوحت بين 25 ألف إلى 30 ألف طن سنويا من حوض النيجر فقط إلى غرب أوروبا في بداية القرن التاسع عشر مما زاد في مشاركة أفريقية في الاقتصاد الأوروبي والبريطاني بصفة خاصة. وفي القرن التاسع عشر كان معظم القطن المصدر من أفريقية تقريبا يتجه إلى المصانع البريطانية، وفي نفس الوقت زادت واردات غرب أفريقية من الملح البريطاني والأسلحة والأسماك المجففة، وتبعت مرحلة نخيل الزيت مرحلة المطاط البري والأخشاب، وصادفت هذه المرحلة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. و يعطي تاريخ استغلال الكنغو وأفريقية الاستوائية الفرنسية صورة بانورامية للاستغلال البشع للموارد الأفريقية، حتى لقد عرفت هذه الفترة في تاريخ أفريقية الاقتصادي بعصر النهب Era of Dispolition وهكذا ساهمت أفريقية في تصنيع أوروبا، بل ودفع عجلة التقدم الصناعي الأوروبي إلى الأمام، دون أن تنال هي أي نصيب من هذا التقدم.

إسهام أفريقية في الاقتصاد العالمي في القرن العشرين:

قبل دراسة إسهام أفريقية في الاقتصاد العالمي، يجب أن نشير إلى خطأ شائع فيما يختص بهذا التوسع التجاري، ذلك أن البعض يربط هذا التوسع بالقرن التاسع عشر على اعتبار أن حرية التجارة كانت شعار ذلك القرن. حقيقة لقد بدأ ذلك التوسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ويدين هذا التوسع بالكثير لهذه الفترة، وما حدث فيها من ثورة في

النقل كالسكك الحديدية والسفن البخارية، ولكن معظم التوسع في صادرات المواد الأولية من أفريقية كان في النصف الأول من القرن العشرين.[12]

ومن دراسة معدل النمو في حجم التجارة الخارجية لأجزاء العالم المختلفة ظهر أن أفريقية شهدت نموا أسرع من أي جزء آخر في العالم بما فيها الجهات النامية وذلك خلال نصف القرن الواقع بين عامي 1913 , 1963 .[13]

وكان وراء هذه الزيادة في الصادرات الأفريقية نمو في الإنتاج الزراعي النقدي، وفي بعض الأقطار نمو كبير في الإنتاج المعدني أيضا. هذا النمو الذي شهدته أفريقية في صادراتها هو حلقة في سلسلة حلقات بدأت في أواخر القرن التاسع عشر كما رأينا، واستمرت في القرن العشرين. وقد ظهر هذا التوسع بصفة خاصة في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة، فقد كانت الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة بمثابة منشط لزراعة المستوطنين أو الزراعة التجارية أو زراعة التصدير بعامة، إذ ظهرت الحاجة في معظم المستعمرات إلى زيادة الإنتاج المحلي نتيجة لأوضاع خاصة أملتها ظروف الحرب، ففي كينيا مثلا زادت الحاجة إلى الإنتاج الزراعي للاستهلاك المحلي إلى جانب احتياجات الحرب لأنها كانت مقرا لأسرى حرب ولاجئين ومهاجرين وقاعدة لقوات أوروبية وأفريقية، فزاد إنتاجها من الزبد وزاد إنتاجها من القمح، واشتد الطلب على السيسل في تنجانيقا حتى بلغ إنتاجه في نهاية الحرب ثلاثة أمثال إنتاجه قبلها لاحتياجات البحرية له، خاصة بعد سقوط الفلبين وانقطاع قنب مانيلا عام 1942. كذلك الحال في روديسيا ونياسالاند، لأن روديسيا كانت مقرا لتدريب الطيارين، كما زاد عدد الأفريقيين الذين يعملون في الجيش أو المناجم، ولمواجهة هذه الحالة زادت المزارع الأوروبية من إنتاجها من الحبوب الغذائية بمعدل 200٪ فضلا عن مضاعفة الإنتاج من الزيوت النباتية والشاي والدخان لإمداد الجزر البريطانية.[14] أما الكنغو فلم يساهم في المواد الغذائية قدر مساهمته في الخامات، وخاصة المطاط الذي اشتد عليه الطلب، وأصبح من الخامات النادرة لدى الحلفاء بعد سقوط الملايو. وهكذا ما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى كان هناك شبه اكتفاء ذاتي في كثير من المستعمرات فضلا عن زيادة واضحة في إنتاج الخامات. وإذا قورنت أرقام عام 1938 بأرقام عام 1950 لصادرات بعض السلع الأفريقية

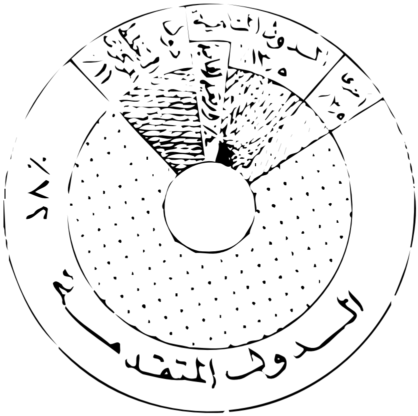
كما وقيمة، ظهر أنها زادت من الناحيتين، ولكن زيادة الصادرات قيمة فاقت بكثير الزيادة كما، فعلى سبيل المثال كانت قيمة الكاكاو الذي صدر من أفريقية عام 1950 تساوي 700 في المائة قدر قيمته عام 1938، بينما زادت من حيث الحجم 4 في المائة فقط. وفي الحق أن بعض السلع الأخرى شهدت و بخاصة الدخان، والكاكاو، والبن، وزيت النخيل، والفول السوداني، والسيسل زيادة في حجم الصادرات، ولكن-باستثناء السيسل والسكر-كانت زيادتها من حيث القيمة لا تقل عن ثلاثة أمثال زيادتها من حيث الحجم، بينما في حالة البن والفول السوداني كانت الزيادة في القيمة خمسة أمثال زيادة حجمها.

و يلاحظ من ناحية أخرى أن النمو في الصادرات بعد الحرب العالمية الثانية لم يصحبه تنويع يذكر في صادرات معظم الأقطار كما لم يظهر عليها تحسن واضح من حيث الجودة باستثناء سلعة أو سلعتين.[15]

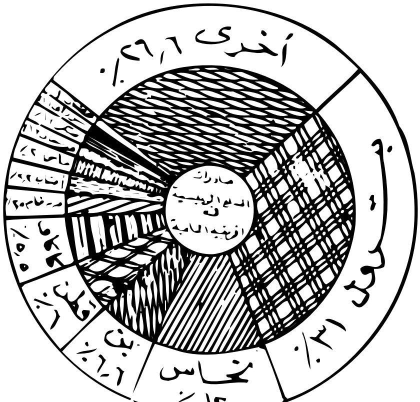
غير أن الصورة انعكست مرة أخرى في الخمس عشرة سنة الأخيرة وحدها، ففي هذه الفترة شهدت تجارة الدول الصناعية نموا أسرع، وان احتفظت أفريقية بنمو أسرع في تجارتها عن بقية العالم المتخلف بسبب ظهور البترول.

مكانة أفريقية في التجارة العالمية:

تتميز القارة الأفريقية بضآلة نصيبها في التجارة العالمية إذا قورن بنصيب القارات الأخرى، فمن مجموع الصادرات العالمية التي بلغت قيمتها نحو 309 بليون دولار عام 1974 كان نصيب أفريقية نحو 4٪، وكان هذا نصيبها طوال العقد الماضي، بينما كان نصيب العالم المتقدم يزيد قليلا على 72٪ من مجموع قيمة هذه التجارة (تقريبا) ونصيب دول التخطيط المركزي[*4] نحو 10٪ أما بقية العالم النامي فنصيبه نحو5 ,13٪ من هذه الصادرات. وتكاد تتكرر الصورة فيما يختص بالواردات؛ فواردات أفريقية النامية[*5] تزيد قليلا على 3٪، بينما واردات الدول المتقدمة اقتربت من 73٪، وواردات دول التخطيط المركزي تقترب من 10٪ والدول النامية نحو 14٪ من مجموع الواردات العالمية. بل أننا لو قارنا تجارة أفريقية النامية بتجارة المملكة المتحدة لوجدنا أن نصيب الأخيرة يعادل بمرة ونصف نصيب



- شكل رقم (9)-نصيب الكتل الدولية المختلفة في التجارة الدولية عام 1974 محسوبة من
U.N., "International Trade yearbook," 1975, Trade by Regions.



- شكل رقم (10)-صادرات السلع الرئيسية الأفريقية
ECA. "Economic Survey for Africa, 1975

الأولى في الصادرات ومرتين في الواردات. وتبلغ قيمة الصادرات الآسيوية (دون اليابان) ضعف قيمة نظيرتها الأفريقية. بل تكاد تجارة أفريقية بأقطارها التي تربو على الخمسين قطرا بما فيها جنوب أفريقية وبسكانها الذين يزيدون على أربعمائة مليون نسمة تعادل تجارة اليابان وحدها.

وتشترك أفريقية في هذا مع بقية العالم المتخلف في ضعف نصيبها في التجارة الدولية، وذلك لأن معظم التجارة الدولية يتركز على جانبي الأطلنطي الشمالي. فهناك في الوقت الحاضر كتل تجارية عملاقة وهي الجماعة الاقتصادية الأوروبية، والولايات المتحدة الأمريكية، هذه الكتل تحتوي على ما يقرب من ثلثي الصادرات والواردات العالمية. فقد تغير المناخ الاقتصادي للتجارة الدولية فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، فبعد أن كانت العلاقة التجارية رأسية بين الدول الصناعية وأقطار الخامات في القرن التاسع عشر أصبحت العلاقة في معظمها أفقية في القرن العشرين، أي بين الأقطار المتقدمة بعضها مع بعض. فهنا حيث الدخل مرتفع والقوة الشرائية عالية يتركز أربعة أخماس الإنتاج العالمي، وتسعة أعشار الإنتاج الصناعي، أما الدول الأفريقية: فذات أحجام اقتصادية صغيرة، وإذا كان الحجم الاقتصادي يقاس بمجموع الناتج القومي، يظهر لنا ضآلة الحجم الاقتصادي لهذه الدول إذا ما قورنت بدول العالم المتقدم، إذ أن مجموع الناتج القومي عام 1970 لدول كألمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا كان يعادل على التوالي 4 و3, 7و2, 2و2 مرة قدر ناتج دول أفريقية النامية جمعاء، وهذا التناقض يبدو أكثر وضوحا إذا عرفنا أن نسبة سكان هذه الدول إلى سكان أفريقية النامية 17٪ 15٪، 16٪ على الترتيب. وفي أفريقية النامية نجد أن الناتج القومي لأكبر دولتين وهما نيجيريا ومصر 7500, 7000 مليون دولار على التوالي في التاريخ المذكور[17] (يلاحظ ارتفاع الناتج القومي لنيجيريا عام 1976 الى8495 مليون دولار نتيجة لزيادة إنتاجها النفطي).

غير أن هذا لا يغض من أهمية الصادرات الأفريقية، فلديها ساع تلعب بها دورا ملحوظا في التجارة العالمية كالبترول والذهب والماس والحديد والكاكاو وزيت النخيل والقطن.. كما يزيد في أهمية أفريقية في هذا

المجال أنها إحصائيا مهضومة نظرا لأن كثيرا من سلعها يعاد تصديره فيدخل ضمن صادرات الدول الصناعية.

وإذا حاولنا التعرف على نصيب كل جزء من أفريقية في هذه التجارة الدولية وجدنا أن جنوب أفريقية يشترك بنحو خمس صادرات القارة، بينما تسهم أفريقية الشمالية بنحو الثلث والباقي من نصيب أفريقية المدارية.

مساهمة أفريقية في ميدان المحاصيل النباتية:

تؤلف هذه المجموعة نحو 38٪ من مجموعة قيمة الصادرات الأفريقية وتشمل البن والكاكاو والشاي والقطن والبذور الزيتية والدخان والسيسل والمطاط والفاكهة، ويمكن أن نضيف إليها الأخشاب ومنتجاتها. أما مجموعة المواد الحيوانية: وتتمثل بصفة خاصة في الأسماك من ناحية، وفي الماشية والضأن من ناحية أخرى فهي تؤلف وحدها نحو 4٪ من قيمة الصادرات الأفريقية. ويأتي القطن في مقدمة الخامات النباتية التي تسهم بها أفريقية في الاقتصاد العالمي، وقد ظل خام القطن يحتل المكانة الأولى في جميع الصادرات الأفريقية إلى الخارج من حيث القيمة حتى عام 1961، وبعدها ترك هذا المركز لصادرات الثروة المعدنية، واكتفى بالمركز الرابع، وتسهم أفريقية بما يتراوح بين 20٪، 25٪ من الصادرات العالمية للقطن وتخرج اكثر من نصف صادرات القارة من وادي النيل أي من مصر والسودان، والباقي من أفريقية جنوب الصحراء، غير أن أهمية أفريقية تستمد بصفة خاصة من نوعية قطن مصر والسودان، وهو الطويل التيلة، إذ يبلغ نصيب البلدين نحو ثلاثة أرباع الإنتاج العالمي من الأقطان الطويلة الممتازة[18].

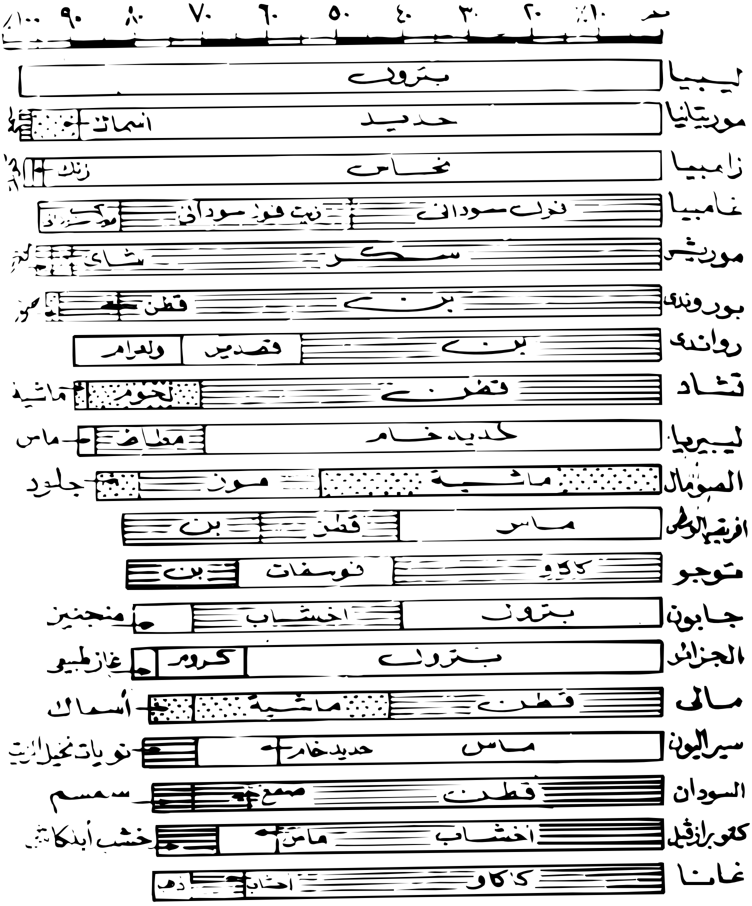
كذلك تحتكر أفريقية ثلثي الإنتاج العالمي من السيسل ونحو نصف صادراته العالمية[19]، و يكاد شرق أفريقية يكون المنتج والمصدر الرئيسي، وبصفة خاصة تنزانيا. ويتركز إنتاج المطاط في غرب أفريقية وبصفة خاصة في نيجيريا وليبيريا، وتظهر أهمية المطاط الأفريقي أثناء الأزمات الدولية، كما كان الحال أيام غزو اليابان لجنوب شرقي آسيا.

وتستورد أوروبا أنواعا متعددة من الأخشاب الأفريقية، يكفي القول بأن ساحل العاج وحدها سجلت 220 نوعا تجاريا [20] وتعتبرانا المصدر الأول للأخشاب في أفريقية، و يأتي في قائمة الصادرات لديها بعد الكاكاو

مباشرة، ومن دول صادرات الأخشاب أيضا جابون ونيجيريا وزائير ويحتل زيت النخيل رأس قائمة المواد الزيتية التي تخرج من أفريقية إلى العالم، بل هو من أهم صادرات القارة، وما زال على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لبعض أقطار غرب ووسط القارة، و يستخلص الزيت من نواة الثمرة ومن المادة اللحمية المحيطة بها، ويستخدم أكثر من الزيوت النباتية الأخرى في المنتجات الغذائية في الوقت الحاضر بسبب التحسن الذي طرأ على تنقيته، فإذا كان الاستخدام الرئيسي له قبل الحرب الثانية في صناعة الصابون، فقد دخل الصناعات الغذائية من أوسع أبوابها بعد ذلك بسبب ما يعانيه العالم من نقص في المواد الدهنية، وما زال يستخدم أيضا في صناعة صابون التواليت والمنظفات بصورة عامة. وفي هذه المادة الزيتية تفخر أفريقية بأنها تقدم للعالم نحو 70٪ من إنتاجه سواء من نيجيريا، أو غانا أو زائير أو سيراليون، وتشترك أفريقية بنحو ثلث الإنتاج العالمي من الفول السوداني، وبنحو ثلاثة أرباع صادراته العالمية، و يرجع ذلك إلى أن المنتجين الأول والثاني وهما الهند والصين يذهب محصولهما في الاستهلاك المحلي، ومن ثم كانت أهمية أفريقية بعامة ونيجيريا والسنغال وغمبيا والسودان بصفة خاصة في ميدان تجارته العالمية.

وتسهم أفريقية أيضا بنحو 10٪ من الإنتاج العالمي لزيت الزيتون، ولكنها مصدرة لنحو ثلث صادراته العالمية. وصادرات أفريقية من زيت الزيتون كلها من نصيب المغرب العربي الكبير تونس، المغرب، ثم الجزائر، ولا تحتل أفريقية مكانة احتكارية في إنتاج البن، فإنتاجها نحو 30٪ فقط وتتقدم البرازيل كدولة فقط عليها، في هذا المضمار، ومع ذلك تعتبر أفريقية مجالا خصبا ذا أهمية كبيرة للمهتمين بالتوسع في إنتاج البن، وأدخلته كثير من الدول الأفريقية في قائمة محاصيلها كوسيلة لتنويع الإنتاج، نظرا لانخفاض تكاليف إنتاج البن الأفريقي عما هو عليه في المناطق الأخرى، فضلا عن تحول الذوق نحو احتساء البن المذاب وهو الغالب على البن الأفريقي، مما جعل أفريقية تسهم بنحو ثلث صادراته العالمية.

وبينما لا تسهم أفريقية بالقدر الأكبر من الإنتاج العالمي للبن، فإنها تسود القارات جميعا في ميدان إنتاج وتصدير الكاكاو، فهي مصدر 70٪ من الإنتاج العالمي، وبصفة خاصة في منطقة غرب أفريقية حيث يخرج من



- شكل رقم (11)-الصادرات الرئيسية لبعض الدول الأفريقية
ECA, Economic Indicator for Africa†1975. (ص 35)

غانا (المصدر الأول) ونيجيريا وجزر ساوتومي و برنسيب بصفة أساسية.

ورغم تزايد إنتاج أفريقية من الشاي بنحو ثلاث مرات منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، فما زال نصيب أفريقية أقل من 10٪ من الإنتاج العالمي، و يتركز إنتاجه وتصديره في منطقة شرق أفريقية في كينيا وأوغندا وتنزانيا

ومالاوي.

والى جانب هذا وذاك فهناك مساهمة أفريقية في تجارة السكر العالمية سواء من جنوب أفريقية أو جزر موريشس ورينيون وموزمبيق وغيرها.

مساهمة أفريقية في ميدان الصناعة:

تسعى كل دولة أفريقية إلى الأخذ بأسباب التصنيع، نظرا لارتباط النمو الصناعي بارتفاع مستوى المعيشة في كل جهات العالم، ونظرا لأن الأمل ضئيل في تنمية اقتصادية تقوم على أساس التوسع في الإنتاج الزراعي، إذن فبعض من التصنيع سوف يرفع من قيمة الصادرات الأفريقية، بينما في حالات أخرى قد يوفر نقدا أجنبيا عن طريق إحلال المصنوعات المحلية محل المستوردة، ومع ذلك لا تضرب أفريقية في ميدان الصناعة بسهم وافر، ولا تقوم بما كان متوقعا أن تقوم به في هذا المجال نظرا لغناها بالثروة الزراعية والمعدنية وموارد الطاقة، إذ بتراوح نصيب الصناعة بين ١٪، 30٪ من مجموع الناتج القومي للدول الأفريقية، وتأتي على القمة في ميدان الصناعة جمهورية جنوب أفريقية، بينما تأتي ليسوثو وغينيا الاستوائية في أسفل القائمة، على حين تأتي مصر وتونس وغانا وزائير في مكان وسط ويلاحظ أنه في أقطار معدودة يقترب نصيب الصناعة من الزراعة في الدخل القومي كما في مصر وتونس وروديسيا. ويرجع هذا الوضع إلى الطريقة التي دخلت بها أفريقية ميدان الاقتصاد العالمي أثناء الفترة الاستعمارية، وهي الطريقة القائمة على إنتاج الخامات لتصديرها إلى المصانع الأوروبية لا لتصنيعها محليا. ولم تكن السلطات الاستعمارية تشجع أو تسمح بقيام الصناعة لتظل أسواق أفريقية مفتوحة أمام المنتجات الأوروبية، وهذا كان أمرا منتظرا من أي دولة صناعية كانت مسيطرة على قطر أفريقي. ولذلك ما زالت الصناعة في أفريقية في مهدها، يغلب عليها كما هو منتظر الصناعات الخفيفة التي تعتمد على الإنتاج الزراعي والحيواني مثل غزل ونسج القطن ونشر الأخشاب وصناعة منتجات الكاكاو واللحوم المحفوظة.

وفي الواقع هناك صناعات لا بد من قيامها قبل تصدير الخامات، وهي أعداد المواد الأولية للتصدير. وقد زادت في الفترة الأخيرة عن ذي قبل،

وذلك لزيادة قيمة تلك الصادرات من ناحية واختصار تكاليف نقلها من ناحية أخرى، فضلا عن أهميتها في إيجاد عمل للسكان المحليين، ونضرب مثلا بصادرات الفول السوداني وزيته من غرب أفريقية، فقد زاد إنتاج الزيت وصادراته نتيجة للتوسع في صناعة عصر الفول السوداني في السنغال وظهورها كصناعة مستحدثة في شمالي نيجيريا منذ عام 1956، كما ظهرت في الفترة الأخيرة في كل من غينيا والنيجر، ورغم ضآلتها بالمقياس الصناعي فإن لها أهميتها في بعض هذه الأقطار، ويشبه استخراج زيت الفول السوداني إلى حد كبير استخراج زيت النخيل من النواة، الذي بدأ في زائير ثم امتد إلى نيجيريا وداهومي وسيراليون.

ويصدر زيت الزيتون من شمال أفريقية ولا يصدر الزيتون لنفس الأسباب. ومعظم الكاكاو والبن يصدر خاما، وإن كان هناك بعض مصانع لطحن البن وإعداده في تنزانيا وساحل العاج، كما تصنع الدول الأربعة الأولى المنتجة للكاكاو بعضا منه، ولكن يا للأسف لا تصلح الجهات الحارة للصناعات الغذائية القائمة على الكاكاو.

أما الصناعات القائمة على التعدين فهي صناعات استخراجية في المكان الأول، لأن الصناعات التحويلية ما زالت في مهدها. فنصيب القارة ضئيل على المستوى العالمي في هذه الصناعات، فهي تنتج ١٪ من الحديد الزهر، ١٪ من الصلب الخام، 3٪ من الرصاص والزنك، لذلك تتقارب قيمة الصادرات المعدنية من قيمة الإنتاج المعدني، نظرا للاستهلاك المحلي الضئيل، باستثناء جنوب أفريقية، حيث تبلغ قيمة الصادرات المعدنية سدس قيمة إنتاج المناجم، غير أنه بينما تصدر الخامات الزراعية دون عمليات أولية، تصدر المعادن غالبا بعد تنقيتها كليا أو جزئيا تفاديا لتكاليف نقل الشوائب وهي عالية بدرجة كبيرة، كما هو الحال في تنقية خامات الحديد والنحاس قبل نقلها، هذا فضلا عن أن معظم المناجم ومصانع التكرير هي ملك لشركات أوروبية وأمريكية، ومن ثم لا يوجد ضغط على حكومات الدول المتقدمة لحمايتها.

والحق لقد شهد العقد السابع نموا في بعض الصناعات التي تصلح للاستهلاك المحلي والتصدير في آن واحد، كتكرير البترول، ففي أوائل العقد السادس كانت هناك تسعة معامل تكرير في أفريقية. طاقتها 9

مليون طن سنويا، وكان معظمها مركزا في أفريقية الشمالية وموزمبيق وأنجولا، فقفزت إلى 32 معملا، بطاقة قدرها 45 مليون طن عام 1975، وكان هناك توسع في إنتاج الإسمنت لزيادة الإنشاءات، كما زاد إنتاج جمهورية مصر العربية والمغرب وروديسيا وأوغندا للأسمدة، ومن الصناعات التي نمت أيضا صناعة غزل ونسج القطن التي أقيمت لها المصانع في جهات كثيرة من القارة، وان كان القليل منها ما يصدر إنتاجه إلى الخارج كما في مصر فهذه تنتج معظم صادرات أفريقية من الغزل والنسيج القطني، كما أقيم مصنع للغزل في شمال أوغندا للتصدير إلى الاتحاد السوفيتي.

غير أن هناك ميزات للسلع الأفريقية من هذا النوع، وهو أن بعضا منها غير ممثل في سلع الدول النامية الأخرى كمنتجات الكاكاو ولب الخشب وألواح الورق والدهون الحيوانية والشموع، ففي حالة الورق وألواحه تعتبر أفريقية مصدرا لمعظم واردات الدول المتقدمة من الدول النامية، وكذلك الحال في مجموعة المعادن المصنوعة وشبه المصنوعة.

أما من حيث مساهمة الأقطار الأفريقية في تصدير السلع المصنوعة وشبه المصنوعة إلى العالم عام 1975[21] فيمكن إجمالها فيما يلي:

* تصدر جمهورية مصر العربية معظم الغزل والنسج القطني.

* تصدر أنجولا وتنزانيا وأثيوبيا ثلاثة أخماس الزيوت النباتية والدهون الحيوانية.

* تصدر الجزائر نحو نصف المشتقات البترولية.

* يصدر المغرب أكثر من ثلثي الأسماك المحفوظة.

* تصدر الجزائر والمغرب ما يزيد على سبعين في المائة من الخضروات المحفوظة.

* يصدر الاتحاد الجمركي الاستوائي-Union Douaniere equatorial وحده نحو خمس الأخشاب المنشورة والابلاكاش. يضم هذا الاتحاد جابون والكونغو الديمقراطي والكمرون وقد تألف عام 1966 م باسم الاتحاد الجمركي والاقتصادي لوسط أفريقية، وكان يضم حينذاك تشاد وأفريقية الوسطى إلى جانب الدول المذكورة، ولكنهما انسحبتا منه عام 1968 م

* يصدر المغرب نحو خمسي لب الخشب..

* تصدر تنزانيا نحو ثلث اللحوم المحفوظة، بينما تصدر روديسيا وكينيا

نحو النصف.

* تصدر نيجيريا نصف الجلود، بينما المغرب وحده له نحو الثلث.
* تصدر الجزائر أربعة أخماس المشروبات الكحولية.
* تصدر روديسيا أربعة أخماس الحديد الزهر.
* يصدر المغرب والجزائر ثلاثة أرباع مفروشات الأرض من البسط والأكلمة. أما عن أسواق السلع المصنوعة وشبه المصنوعة فهي مركزة أيضا، إذ أن الجماعة الاقتصادية الأوروبية قامت باستيعاب ثلاثة أرباع هذه السلعة عام 1975

غير أنه يمكن القول بأن أفريقية قد ساهمت مساهمة فعالة في تصنيع العالم بطريقة غير مباشرة، وذلك عن طريق خاماتها الزراعية والحيوانية التي تستوردها الدول المتقدمة من قطن وأخشاب وحديد ونحاس وفوسفات وبترول وغيرها، فهذه الخامات تستوردها الدول المتقدمة، ثم تصدرها إلى العالم-ومنه أفريقية-مصنوعات مرتفعة القيمة، حتى ولو كانت مصنعة تصنيعا بسيطا، أو حتى مجرد إعداد وتعبئة، وقد أشار إلى هذا رئيس جمهورية ساحل العاج حين قال بأن متوسط ما يحصل عليه الزارع الأفريقي هو 90 فرنكا للكيلو جرام من البن، بينما يباع في أسواق دول الجماعة الاقتصادية الأوروبية بنحو 550 فرنكا، أي أن سعر البيع للمستهلك بلغ ستة أضعاف سعر الشراء من المنتج وهكذا.

مساهمة أفريقية في ميدان الثروة المعدنية:

تلعب الثروة المعدنية دورا كبيرا ذا أهمية فائقة في اقتصاديات القارة الأفريقية، سواء جنوب الصحراء وشمالها، ويسبق القسم الجنوبي نظيره الشمالي في جذب المغامرين إليه، بحثا عن الذهب والفضة، من البرتغاليين والبريطانيين وغيرهم، وكان المعدن كما رأينا أحد أسباب كشف طريق الرأس، كما كانت الاكتشافات المعدنية في الهضبة الجنوبية مسؤولة عن جذب الأوروبيين وتواكبهم. على أنه يجب ألا ننسى أن أفريقية إحدى القارات التي لم تمسح تماما من الناحية الجيولوجية، وأن الكشف المعدني يعوقه في كثير من الأحيان تلك التكوينات الرسوبية السميكة التي تغطي مساحات كبيرة من سطح القارة، لذلك فمع زيادة البحث والتنقيب تظهر الموارد

المعدنية وتتغير الأوضاع الاقتصادية بصورة سريعة، والمثل لدينا واضح في ليبيا حيث تحولت من دولة تعتمد في صادراتها على الفول السوداني، إلى دولة بترولية، ومن دولة عجز إلى دولة فائض.

وقفزت الصناعات التعدينية لتصبح من أهم واكثر قطاعات الاقتصاد الأفريقي نموا فأصبحت تمثل اكثر من نصف حصيلة الصادرات الأفريقية عام 1975 بعد أن كانت تشغل المكان التالي بعد الصادرات النباتية عام 1960 بنسبة مئوية قدرها 37٪، غير أن أهمية أفريقية في الميدان التعديني العالمي تبدو أكثر وضوحا إذا عرفنا أنه لا يتفوق عليها في الموارد المعدنية سوى أمريكا الشمالية، بينما تتضاءل إلى جوارها أمريكا الجنوبية وأستراليا وجنوب آسيا[19]. ويعوض فقرها الفحمي إمكانيات ضخمة من القوى المائية فضلا عن تدفق بترولي في أطراف القارة الشمالية والغربية. ويخرج من أرضها نحو 30٪ من قيمة الإنتاج المعدني في العالم، بل أن أفريقية قبل جميع القارات بما فيها أمريكا الشمالية تمد العالم بالمعادن النادرة، فأفريقية تحتوي على 90٪ من احتياطي الكروم وتسهم بنحو 30٪ من الإنتاج العالمي. وتتميز غانا باحتكارها لاحتياطي ضخم من المنجنيز، ورغم أن الاتحاد السوفيتي له وحده أكثر من نصف الإنتاج العالمي فان نصيب أفريقية وهو25٪ من الإنتاج العالمي يعطي القارة مكانا ممتازا في إنتاج هذا المعدن. وتبرز أفريقية في إنتاج الكوبالت، إذ أن 90٪ من موارده توجد في زائير التي تسهم وحدها بنحو65٪ من الإنتاج العالمي (15 ألف طن) فضلا عن إسهام أفريقية بنحو 30٪ من إنتاج الفانديم.

ولا تتفوق على زامبيا وزائير سوى شيلي في إنتاج النحاس، وتعتبر القارة منتجا رئيسيا لمركزات النحاس Blister Copper (درجة النقاوة 4 ,99٪) وللنحاس المكرر كهربائيا Electrolytic Copper.

وفي ميدان المعادن الاستراتيجية تلعب أفريقية دورا بارزا للغاية، فالولايات المتحدة مثلا تحتوي على 60٪ من احتياطي اليورانيوم، بينما يحتوي جنوب أفريقية وحده على نحو35٪ منه باستثناء الدول الاشتراكية، وتنتج أفريقية نحو25٪ من الإنتاج العالمي من البريليم، ونحو 80٪ من التنتالوم، وأفريقية منتجة لنصف الإنتاج العالمي من الذهب و40٪ من البلاتين، وهي منتجة لنحو 93٪من ماس الزينة gem diamond و98٪ من ماس الصناعة

industrial diamond وأخيرا يمكن أن نضيف هذا التدفق البترولي الجديد في أفريقية الشمالية والغربية والذي لم يكن يعرف عنه شيء قبل عام 1957 باستثناء البترول المصري.

ورغم أن أفريقية تنتج وتصدر عددا كبيرا من المعادن كالبترول والذهب والنحاس والماس والحديد والفوسفات والمنجنيز والقصدير واليورانيوم والرصاص والكوبالت وغيرها، فان البترول الخام والذهب والنحاس وخاماته تمثل ثلثي قيمة الصادرات، فإذا أضفنا الماس وخام الحديد والفوسفات نجد هذه المجموعة تمثل 80٪ من مجموع قيمة الصادرات. وهناك تركيز من نوع آخر بالنسبة للأقطار المنتجة للمعادن، وعلى سبيل المثال:

ا-هناك ثلاثة أقطار فقط تصدر كميات لا بأس بها من النحاس وهي زامبيا وزائير وأوغندا.

2- وهناك قطر واحد ينتج 85٪ من القصدير وهو نيجيريا.

3- وهناك ثلاثة أقطار لها الصدارة في معظم صادرات خامات الحديد في أفريقية (موريتانيا، ليبيريا، الجزائر) بينما نجد الأحجار الكريمة كالذهب يكاد جنوب أفريقية يستخرج ثلثي صادراته[22].

هذه الحقيقة لها أثرها في النواحي الاقتصادية، فحينما نقول إن قيمة الصادرات المعدنية الأفريقية قد ارتفعت في السنين الأخيرة عن ذي قبل، فليس معنى هذا أن الأقطار الأفريقية جميعا أو حتى غالبيتها قد استفادت من هذا التحسن، ذلك أن معظم هذه الزيادة ناتجة عن زيادة حجم الصادرات المعدنية وارتفاع قيمتها لدى عدد محدود من الدول أو عدم هبوطها كما حدث في الحاصلات الزراعية لدى معظم الدول الأفريقية، وبالتالي سوف يكون المستفيد من الناحية الفعلية قلة من الأقطار، فعلى سبيل المثال ارتفع نصيب زامبيا من تصدير النحاس من 343 مليون دولار عام 1961 إلى 540 مليون دولار عام 1971، ارتفع نصيب موريتانيا من صادرات الحديد من صفر إلى 54 مليون دولار بين التاريخين المذكورين، وزاد نصيب جابون من المنجنيز من لا شيء عام 1961 إلى 28 مليون عام.1971

أما عن أسواق المعادن فهي أسواق خارج أفريقية باستثناءات قليلة، إذ يتجه 90٪ من صادرات أفريقية المعدنية إلى أقطار الجماعة الاقتصادية الأوروبية، باستثناء الذهب والماس، لأننا إذا أضفنا هذين المعدنين فسترتفع

النسبة كثيرا، لكنهما فعلا يذهبان إلى أقطار الدول المتقدمة اقتصاديا، أما أقطار أمريكا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية فنصيبها أقل، و يزداد في الخامات الفلزية كخامات الحديد والكروم والمنجنيز واليورانيوم، ويبلغ نصيبها من المعادن نحو 6٪ وبصفة خاصة النحاس. وتتركز طلبات اليابان من ثروة أفريقية المعدنية على بعض المعادن مثل النحاس والحديد والكروم والمنجنيز.

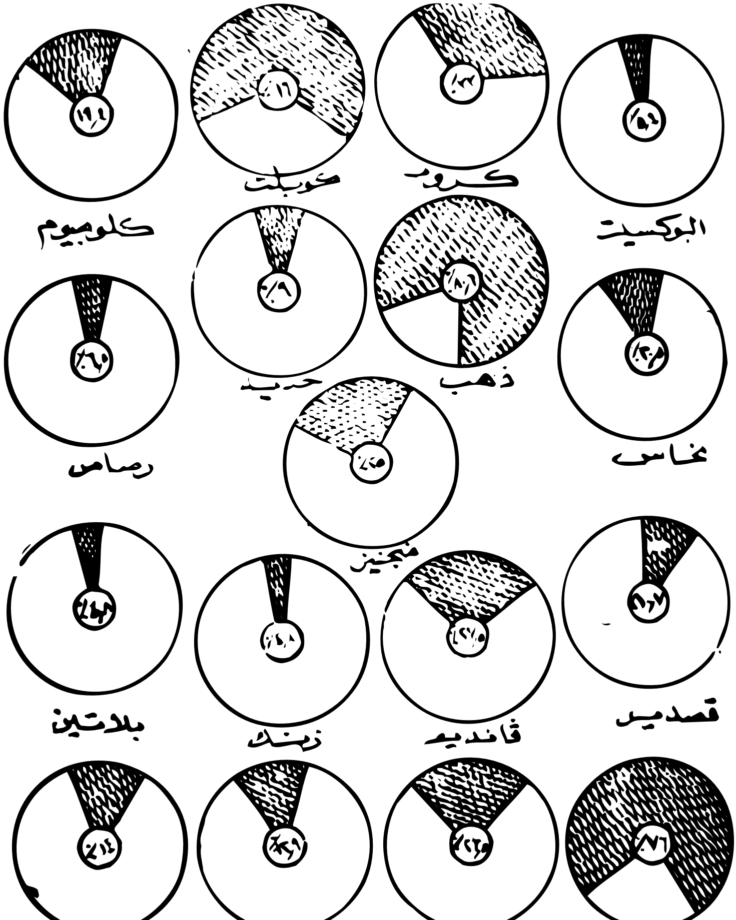
مساهمة أفريقيا في ميدان الطاقة:

ظلت أفريقيا إلى وقت قريب من القارات المعروفة بفقرها في موارد الطاقة حتى كانت فترة أواخر الخمسينات والستينات حين بدأت تدخل ميدان الإنتاج والتصدير البترولي، ثم كشف النقاب في السبعينيات عن ثروة من اليورانيوم في دول غرب أفريقية غير التي كانت معروفة من قبل في جنوب أفريقية، وهذا ما جعل القارة ذات أهمية استراتيجية في الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية، فضلا عن أن هذه الموارد تدر عليها دخولا هي في أشد الحاجة إليها لمواجهة مشروعات التنمية المختلفة، وتضم موارد الطاقة المستقلة الآن البترول والغاز الطبيعي والفحم واليورانيوم فضلا عن الكهرباء المولدة من المساقط المائية والمورد الكامن الذي لم يستغل بعد وهو الطاقة الشمسية[23].

غير أن أهمها جميعا في الوقت الحاضر هو البترول، تسهم أفريقية منه بنصيب كبير في الإنتاج العالمي، لأنه لم يضف لهذا الإنتاج سوى (5 , 10٪) عام 1977، إن كانت تأتي أهميته في ميدان الصادرات العالمية، ذلك أن استهلاك الدول المنتجة لا يكاد يذكر، من ثم فهي تصدر معظم ما تنتج، وفي الوقت الحاضر هناك إقليمان يقومان بمعظم الإنتاج الأفريقي الذي اقترب من328 مليون طن عام 1977 وهما غرب أفريقية وشمال أفريقية، وتأتي نيجيريا في المكان الأول بإنتاجها الذي زاد على110 مليون طن وتفوقت بذلك على ليبيا وتحتل نيجيريا في هذا المضمار المكان الثامن بين الدول المنتجة، أما ليبيا فتأتي في المكان الثاني في أفريقية بإنتاجها الذي بلغ 108 مليون طن عام 1977 وتحتل المكانة الحادي عشر بين الدول المنتجة، ثم تأتي الجزائر في المكان الثالث بإنتاجها 5 , 58 مليون طن، بينما يأتي ترتيبها

الرابع عشر في الإنتاج العالمي، وهناك غيرها كمصر التي دخلت ميدان التصدير مؤخرا، كما أصبحت جابون وأنجولا مصدرتين، وظهر في تونس والكونغو الديمقراطية والكمرون. أما الفحم الذي قامت عليه الثورة الصناعية في أوروبا، وحل محله البترول الآن، فان إنتاج أفريقية منه قليل الآن لا يتعدى 3٪ من الإنتاج العالمي، وان كانت جمهورية جنوب أفريقية والتي تضم معظم تكوينات الفحم الأفريقي تعد من المنتجين العشرة الكبار في العالم.

وإذا كان العالم قد عرف اليورانيوم في جمهورية جنوب أفريقية منذ اكثر من ثلث قرن، وإذا كانت أول قنبلة ذرية في العالم التي أسقطتها، الولايات المتحدة الأمريكية على هيروشيما عام 1945 وأنهت بها الحرب العالمية الثانية كانت من يورانيوم الكنغو أو زائير اليوم، فان أهمية أفريقية قد ازدادت في هذا المجال بعد اكتشافه في دول غرب أفريقية، أي في النيجر وجابون وأفريقية الوسطى بحيث أصبح بها أول احتياطي عالمي باستثناء الاتحاد السوفيتي، ثم تأتي أهمية أفريقية مرة أخرى وبصفة خاصة غرب أفريقية من كونها المنتج الوحيد لهذا المعدن في العالم الثالث. ثم تزداد أهمية أفريقية مرة ثالثة عندما نعرف أن طلب الدول الغربية على هذا المعدن في ازدياد، فبينما كان الطلب عليه عام 1973 نحو15 ألف طن ازداد عام 1976 إلى 23 ألف طن، و ينتظر أن يبلغ 225 ألف طن عام 1985. وأخيرا نجد الشمس وطاقتها، وتقوم الشركات الفرنسية الآن بتجربة رائدة في واحدة من أعظم محطات الطاقة الشمسية في العالم في دولة مالي، وينتظر أن تعمل عام 1980 إذا نجحت وعممت فسيكون للقارة مورد جديد للطاقة لا ينضب لأنه مستمد من الشمس، وإذا احسن استغلاله هو والقوى المائية الكامنة فيها، فقد يكون هذا عاملا مساعدا لتوفير مصادر الطاقة الأخرى لتصديرها إلى الخارج (إذا ظل العالم في حاجة إلى طاقة البترول عندما تصبح تلك المصادر البديلة قابلة للاستغلال بطريقة اقتصادية).



شكل رقم (12)-نصيب أفريقية في الصادرات المعدنية محسوبة
من U.N. Statistical Yearbook, 1976



- شكل رقم (13)-الدول الأفريقية المستقلة عام 1945 (مظللة).



شكل رقم (14)-الأقطار الأفريقية غير المستقلة (مظللة) عام 1979.

أفريقية في الساحة الدولية

تختلف هيئة الأمم المتحدة اليوم في أوائل الثمانينات عن تلك التي وقع ميثاقها في سان فرانسيسكو عام 1945 من حيث دورها وقراراتها واستجاباتها، بل وحتى تركيبها، وقد لعبت عوامل متعددة ومرت أحداث كانت مسؤولة عن هذا التغيير ولكننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن جزءا أساسيا من هذا التغيير يرجع إلى دخول الدول الأفريقية في عضويتها بصورة متزايدة، حتى لقد زاد عدد الأعضاء الأفريقيين بصورة صاروخية

من أربعة أعضاء عام 1945 (مصر-أثيوبيا-ليبيريا-جنوب أفريقية) إلى تسع عشرة دولة أفريقية من مجموع أعضاء الهيئة الدولية وهو تسع وثمانون دولة عام 1959، ومع نهاية عام 1960 ظهرت في الأفق السياسي الأفريقي ست عشرة دولة أفريقية دفعة واحدة، ولكنها الآن بلغت الخمسين دولة أفريقية من مجموع أعضاء الجمعية العامة الذين بلغوا مائة وواحدا وخمسين أي أن أفريقية استحوذت وحدها على نحو ثلث مجموع الأعضاء، ولا توجد مجموعة متقاربة بمثل هذا الحجم، ومن ثم أصبح تأثيرها قويا وفعالا، خاصة في القضايا التي تمسها.

والواقع أن هناك أربع خصائص للوضع الدولي الذي حصلت فيه الدول الأفريقية على استقلالها ساعدتها على أن يكون لها تأثير لم تحصل عليه دول صغيرة من قبل، و يتمثل العامل الأول في الهدوء النسبي في سياسات القوى العظمى أو ما عرف باسم سياسة الوفاق، الناتجة عن الخوف والرهبة والخشية من الحرب النووية، و يتمثل العامل الثاني في اتساع مدى الحوار الدولي، فباستثناء حالات خاصة كأزمة كوبا و بدرجة أقل مسألة فيتنام، لم يكن هناك عمل استفزازي قامت به دولة كبرى لتهديد الأخرى في السنين الأخيرة، ويمثل التوازن النسبي بين الكتل المتنافسة العامل الثالث مما أعطى أهمية خاصة لأصوات دول العالم الثالث، واكبر مجموعة فيه الدول الأفريقية، وأما العامل الرابع والأخير فهو عالمية الأمم المتحدة التي وضحت فيها اكثر من سابقتها عصبة الأمم، والاستخدام المتزايد للساحة الدولية اكثر من الساحة المحلية في حسم المواقف العالمية الحساسة[24].

ويمكن أن نضرب علة أمثلة لهذا الوضع الدولي، منها على سبيل المثال أن عملية حفظ السلام التي تقوم بها الأمم المتحدة عن طريق مدها مناطق النزاع بقوات محايدة، كما هو الحال على الحدود بين الأتراك واليونانيين في قبرص، و بين الهنود والباكستانيين في كشمير، هذه القوات تألفت غالبا من الدول المتوسطة والصغيرة، وأهم من اشترك بقواته في هذه المهمات السويد وكندا والنمسا ونيوزيلندا كما شاركت أيضا الدول الأفريقية بقواتها في أحداث الكنغو ونظرت الدول الأفريقية المستقلة إلى الأمم المتحدة كعامل له خطورته في تكوين وتنفيذ سياستها الخارجية، و يرجع هذا في جزء منه إلى أن ميثاق الأمم المتحدة يتضمن كثيرا من المبادئ، مثل

حق تقرير المصير، والمساواة بين الدول، فضلا عن التنمية الاقتصادية، و يرجع أيضا إلى أن الأمم المتحدة قد أتاحت الفرصة لظهور الدول الأفريقية على المسرح العالمي، و بالتالي الاعتراف بمكانتها الدولية، وقدمت لها اكبر فرصة للتأثير على القضايا التي تهمها بشكل خاص.

فقد أكدت الدول الثمانية المشتركة في مؤتمر الدول المستقلة في أكرا الذي عقد عام 1958 رغبتها في إبراز «شخصية أفريقية متميزة» في الشؤون الخارجية وتكوين جهاز دائم في الأمم المتحدة لهذا الغرض، وفي العالم التالي قامت الدول الأفريقية بحملة واسعة نشطة لإزالة الحظر عن الحزب الوطني في الكاميرون (الفرنسي) و بالتالي طالبت بإجراء انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة قبل أن تحصل هذه المستعمرة على استقلالها. وكانت هذه الدول نشطة في المطالبة بحق تقرير المصير للشعوب الأفريقية التي كانت خاضعة للاستعمار، وعندما بدأت موجة الاستقلال الكبرى للدول الأفريقية في الستينات صرح داج همرشولد سكرتير عام هيئة الأمم المتحدة عندئذ بقوله «إن الأمم المتحدة من الآن فصاعدا سوف تكون منظمة أفريقية» نتيجة التزايد المستمر للدول الأفريقية المستقلة وخاصة في فترة الستينات وما بعدها. فلم تكن هناك قبل الحرب العالمية الثانية من الدول المستقلة سوى أربع دول في مصر وأثيوبيا، وليبيريا، وجنوب أفريقية وبلغت الآن خمسين دولة كما ذكرنا، مما زاد من تأثيرها في قرارات الجمعية العامة.

ونجحت الدول الأفريقية والآسيوية عام 1960 في جعل مجلس الأمن يعقد جلسة خاصة لمناقشة مذبحة شاربفيل التي قام بها بوليس جنوب أفريقية ضد مظاهرات الأفريقيين الوطنيين، ورغم احتجاج بريطانيا وفرنسا فقد أدينت حكومة جنوب أفريقية، واعتبر هذا العمل مما يهدد السلام العالمي بأغلبية الأصوات بما فيها صوت الولايات المتحدة الأمريكية. ثم كانت أزمة الكنغو بعد ذلك وتمرد إقليم كاتنجا، فاعتبرت الأمم المتحدة أيضا من مسؤولياتها إقرار النظام فيها، وتكونت لجنة من عدة دول أفريقية برئاسة جوموكينياتا رئيس جمهورية كينيا حينئذ لمساعدة الكنغو (زائير) على المصالحة الوطنية والالتئام القومي، وان كانت المنافسة بين الزعيمين الكنغويين لومومبا وكازافوبو فضلا عن انقسام الدول الأفريقية إلى مجموعتي كنغو برزافيل، ومجموعة الدار البيضاء قد أضعفت من تأثيرها

في المحافل الدولية وقراراتها. ثم كان قيام منظمة الوحدة الأفريقية عام 1963 وتوقيعها ميثاق أديس أبابا في مايوعام1963، مما أدى إلى تذويب الكتل المتنافسة، وزيادة نفوذها في الأمم المتحدة، وكان لزيادة ضغط الدول الأفريقية أثره في زيادة أعضاء مجلس الأمن من أحد عشر عضوا إلى خمسة عشر عضوا، وزيادة عدد أعضاء المجلس الاجتماعي والاقتصادي من ثمانية عشر عضوا إلى سبعة وعشرين عضوا، كذلك الحال في كثير من اللجان التابعة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي والتي لا يتوقف تغير حجمها على تعديل في الميثاق.

ومن أهم الأحداث التي ظهرت في العلاقات الدولية نتيجة ظهور الدول الأفريقية وتحالفها مع الدول الآسيوية، الوصول إلى اعتراف الهيئة الدولية بان الاستعمار هو نوع من العدوان، وانه نوع من القهر وأصبح حق تقرير المصير مبدأ معترفا به في السلوك الدولي، وأصبحت لجنة الأربعة والعشرين الخاصة بتصفية الاستعمار ذات نشاط فعال في أروقة الأمم المتحدة، وكان لها الفضل في تحريك قضايا الأقطار التي مازالت خاضعة للاستعمار.

ومنذ حصول الدول الأفريقية على عضوية المنظمة الدولية بدأت تبحث في تحريك الرأي العالم العالمي ضد نظام الحكم في جنوب أفريقية وروديسيا، وضد البرتغال بسبب سياسة التمييز العنصري وحرمان الغالبية الأفريقية من حقوقها السياسية، ويعتبر عام 1958/1959 علامة طريق في تاريخ التصويت بالنسبة لجنوب أفريقية في الأمم المتحدة نظرا لأن الولايات المتحدة الأمريكية منذ ذلك الحين أخذت تصوت ضد التمييز العنصري، وكان عام 1963 علامة طريق أخرى، حين صدر قرار الجمعية العامة الذي يدعو كل الدول إلى وقف بيع وشحن الأسلحة والذخائر من جميع أنواعها والمركبات الحربية إلى جنوب أفريقية، وتبعه قرار يدعو إلى حظر المواد التي تصنع منها هذه الأسلحة والذخائر(25) ومنعت الدول الأفريقية المستقلة مرور طائرات جنوب أفريقية في مجالاتها الجوية، ومنعت التسهيلات الملاحية للسفن التي تبحر من جنوب أفريقية، مما اضطرها إلى اتخاذ اتجاهات أخرى. و بدخول المجموعة الأفريقية الأمم المتحدة أصبحت هذه الهيئة الدولية اكثر من قبل مركزا للتفاهم، ونظرا لأنه ليس في استطاعة كل الدول الأفريقية إقامة علامات دبلوماسية مع دول العالم أجمع، فقد

أصبحت الأمم المتحدة مركزا للاتصالات الدبلوماسية، وهذا الأمر زاد من أهمية الأمم المتحدة كساحة للمفاوضات والتفاهم، وكانت اللغة الإنجليزية تكاد تكون شبه وحيدة، ولكن حين انضمت إلى عضويتها الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية أحيت استخدام اللغة الفرنسية، وليس من شك أن نمط الدبلوماسيين الأفريقيين كان جديدا في المحافل الدولية، إذ لم يكونوا مقيدين بتقاليد دبلوماسية سابقة،-لذلك أضافوا إلى العرف الدبلوماسي الصراحة وجددوا الحوار.

وإذا كانت الدول الأفريقية قد لا تتفق أحيانا في بعض القضايا داخل الجمعية العامة، فإن وجود منظمة الوحدة الأفريقية وقراراتها الجماعية لا شك يزيد من قوة وتأثير أفريقية في الأمم المتحدة[26] فقد دعت منظمة الوحدة الأفريقية مجلس الأمن عام 1972 إلى ضرورة تشديد المقاطعة الاقتصادية لروديسيا، وإدانة الدول التي تتعامل في الأسلحة مع جمهورية جنوب أفريقية.

وصدر بيان منظمة الوحدة الأفريقية عام 1976 فيما يختص بمشكلة روديسيا يقول بأن فشل المفاوضات الدستورية بين إيان سميث والحركة الوطنية الأفريقية لم يكن مفاجأة لأحد، بل هو متوقع، ومن ثم لابد من استخدام القوة. وعقد مؤتمر عالمي في لاجوس في أغسطس عام1977، وحضرته وفود ستين دولة ليست أفريقية فحسب، بل وفود كل الدول التي تستنكر التمييز العنصري أو التي لها علاقات بالإقليم مثل إنجلترا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة الأمريكية، وعقد تحت إشراف الأمم المتحدة، وحضره سكرتيرها العام، وكان الغرض منه تعبئة الضمير العالمي ضد سياسة التمييز العنصري.

وهكذا ظهرت الشخصية الأفريقية على المستوى الدولي، وهذا أمر لم يتوفر من قبل، وكان للمجموعة الأفريقية أثرها حتى في تطور السلوك الدولي داخل المنظمة العالمية.

الحواشي

(1) Clarck. D. J. "Prehistoric origins of Africa Culture", In Fage J,D,oliver, R.A "Papers in African Prehistory." Cambridge U.P. 1970, p. 3-5.

(2) Leaky L. S. B. "The Earliest Tool Makers." in Merrick Ponansky "Prelude to East African History". 0.U.P. 1960.P.19

(3) oP.Cit. p.g

(4) يوجد خانق أولد فاي في شمال تنزانيا داخل الأخدود الشرقي ويضم طبقات ممثلة لحضارات العصر الحجري، وقد بدأ دكتور ليكي حفائره فيه منذ عام 1931, وارتبطت أبحاثه بكل تقدم ظهر في ميدان إنسان ما قبل التاريخ. ورغم أن الحفر بدأ عام 1931, فإن اكتشافات الأحافير البشرية لم تتم سوى عام 1959 وذلك باستثناء بعض الأسنان التي اكتشفت عام 1955.

(5) Issac Glynn, "Olorgesilie. "An investigation into the hatural History of Early Men" in Merrick Op. cit.pp.40,42

(6) Davidson, B. "Guide to African History" London 1971 p.8

(7) Ibid., P.11.,

(8). Davidson, B. Buah F.K. "The Growth of African Civilzation, A History of Africa 1000-1800, "Longmans, London, 1974, PP. 164,166

(9). Rene Gardi, "Sahara", Translation from the Original, G. Hassap. London, 1970. pp. 124-128.

(10) "Barber w, "The Movement into the world Economy". in "Economic transition in Africa". London 1964,p14.

(11) Harley, C.W S. "The Oil Palm", London, 1967, p. 14.

(12), Myint. H. "The Economics of Developing Countries, "London. 1967. p.25

ويلاحظ في حالة القارة الآسيوية ارتباط هذا التوسع في الصادرات بافتتاح قناة السويس.

(13) Robson B. Lury D. eds, "The Economies of Africa " London 1969. p.53

(14) Kimble, G, "Tropical Africa" Vol., land and. Livelihood. Newyork,1960. P. 174

(15) Chudson, W.A. "Trends in African Exports and Capitallnflows" in Economic Transition Africa.p. 338.

(16) راجنار نيركه: «التجارة الدولية والتنمية الإقتصادية»، ترجمة د. جلال أمين، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع، القاهرة1969

(17) U.N., Afric, "Exonomic Indicators 1970," P.5.

(18) FAO: "Production Year book". Trade Year book. 1975

(19) Ibid.

(20) FAO: "Timber Trends and Prospects in Africa". Year book of Forest Products 1972. p.13.

(21) ECA.. "Economy Survey for Africa". 1976

(22) DEKUn. n, "The mineral Resources of Africa" 0. U. P. 1965. p.5.

(23) OP. cit. P.P.98,99

(24 Hovet Thomas. J., "Effect of the African Group of states on the Behaviour of the United Nations" in "EL-A youty.y. Brooks.H. African and the international Organization, The Hague, 1974. p.11

(25) Ibid.. p.14

(26) Wallerstein, I. "The Role of the Organization of the African. Unity in Contemporary African Politics "in El Ayouty. Y Brooks, H., Ibid

2 محاولة التفريق بين العرب والأفارقة

عرف العرب أفريقية منذ القدم، منذ ما قبل الميلاد، وارتبطت أفريقية بالعرب في علاقاتها الخارجية ردحا من الزمن، حتى أتى الأوروبيون فكانوا هم أول من أصاب هذه العلاقات بنوع من الوهن، ورغم ذلك فما زالت بصمات الثقافة العربية دينا ولغة بارزة في مواضع شتى من القارة، وظل الأوروبيون يظنون أنهم أول من اكتشف القارة، وقام بالتجارة معها، حتى أثبتت الدراسات العلمية الموضوعية من جانب الكتاب الأجانب ذاتهم قدم العلاقات العربية الأفريقية وقوتها، ثم عادوا مرة أخرى لتشيع بينهم تسميات عديدة مثل أفريقية السوداL' Afrique Noir وأفريقية البيضاء L'Afrique Blanche ومازال الفرنسيون بصفة خاصة يستعملون هذه التسميات، بينما تشيع في كتابات الإنجليز ألفاظ أخرى مثل إفريقية جنوب الصحراء Africa South of the Sahara أو أفريقية المدارية Tropical Africa, بل وأخذ بعضهم يرسم خطأ بين الأفريقيتين، وتحولت التسميات إلى أفريقية السوداء وأفريقية العربية في الفترة الأخيرة، وكان

المقصود بأفريقية هي أفريقية جنوب الصحراء أو أفريقية الزنجية، وكأن القسم الشمالي من القارة ليس بجزء منها. وإذا حاولنا التعرف على الخط الفاصل الذي يقولون به فسنجد أنهم لا يتفقون عليه، فنجد باحثا أنثروبولوجيا مثل سليجمان(*) يمد هذا الخط من مصب السنغال في غرب أفريقية، حتى منتصفه، ثم يتجه الخط شرقا إلى منحنى النيجر، ومنه إلى بحيرة تشاد، ليتجه شرقا بانحدار إلى الجنوب حتى يصل إلى مجرى بحر العرب (أحد روافد النيل يأتيه من دارفور) ويتبعه بالقرب من خط 9 درجات شمالا. وعندما يقترب الخط من جبال النوبة يتجه نحو الشمال ويدور حول الجبال حتى يصل إلى النيل الأبيض فيخترقه عند خط عرض 12 درجة شمالا. ويمتد عبر أرض الجزيرة في اتجاه غربي شرقي حتى يبلغ سفوح هضبة الحبشة، وهناك يتجه نحو الجنوب في اتجاه رأسي تقريبا حتى يصل إلى المحيط الهندي بالقرب من نهاية نهر طانا، ويصل إلى المحيط الهندي في نقطة جنوب خط العرض الثالث جنوب خط الاستواء.

وإذا تركنا سليجمان إلى ورذنجتون نجد حد أفريقية جنوب الصحراء يبدأ بخط شمال مصب السنغال، ويمتد مستقيما إلى الشرق بحيث يضم ثنية النيجر، لكنه يقسم جمهوريات موريتانيا ومالي والنيجر وتشاد إلى قسمين، الشمالي يتبع أفريقية البيضاء والجنوبي يتبع أفريقيا السوداء. وينتهي هذا الخط المستقيم عند التقائه بحدود السودان الغربية عند دارفور، فيتبع الحد السياسي لجمهورية السودان، و يدور جنوبا حول السودان وأثيوبيا وكينيا فيسير مع الحدود الجنوبية لأثيوبيا والحدود الغربية للصومال حتى ينتهي إلى المحيط الهندي، هذا بينما يسير خط جورج كمبل(*1) مع خط ورذنجتون إلى أن يفترق عنه في السودان حيث يضم كمبل كل السودان داخل أفريقية السوداء أو الزنجية.

هذه الخطوط المتعددة ليست فاصلة أو قاطعة بين العرب في الشمال والزنوج في الجنوب بالدرجة الأولى، وان كانت تقريبية فهي بين الحاميين والزنوج، بل هي في كثير من الأحيان إقليم اختلاط بين السلالتين. فهناك عدد من الجماعات الزنجية والمتأثرة بالصفات الحامية على طول الحافة الجنوبية للصحراء مثل عناصر التكرور في السنغال، والمندنجو في النيجر الأعلى، والفولاني في النيجر الأوسط، والهوسا في شمالي نيجيريا، والنيليين



-شكل رقم (15) تقسيم أفريقية إلى بيضاء وسوداء

-الخط الفاصل بين أفريقية البيضاء، وأفريقية السوداء عن

Seligman, C.G., Rages of Africa, O.U.P., 1966, pp, 30,31

في السودان الجنوبي، وأنصاف الحاميين في أوغندا وكينيا وشمال تنزانيا، وأعداد غير قليلة من السواحيلية في كينيا وتنزانيا.

ولم تسلم الأقاليم الواقعة شمال هذا الخط من أن يصل إليها بعض الدم الزنجي بصورة أو أخرى، فقد ساعدت تجارة الرقيق على تسرب الدم

الزنجي نحو الشمال، وهي ظاهرة سلمية كان لها أثرها في انتشار الدماء الزنجية ولو بدرجة ملطفة. ولم يساعد على هذا الاختلاط مجرد التجاور الإقليمي، بل ساعد عليه بوجه خاص سهولة الأرض وسهولة الانتقال فيها، وانتشار حرفة الرعي التي لا تقيد الناس تقييدا شديدا بالأرض التي يعيشون عليها.

والاختلاط والامتزاج على ضروب مختلفة. ونقصد بالاختلاط اجتماع عناصر مختلفة مع احتفاظ كل منها ببعض خصائصها، أما الامتزاج فهو اندماج عنصرين مختلفين حتى يتألف منهما مركب جديد قائم بذاته. ومن الأخلاط والامتزاج ما يتناول الصفات الجسدية أو ما يتناول الثقافات وحدها، فيتأثر الناس بثقافة غير ثقافتهم مع بقاء دمائهم على ما كانت عليه تقريبا.

على العموم لقد بات من المتعذر أن يرسم خط ليفصل بين المجموعات فصلا تاما، لذلك تعددت الخطوط بتعدد الباحثين، وهذا معناه أنها لا تقوم على أسس علمية ثابتة، وإنما هي مجرد اجتهادات فردية، من ثم كان هذا التعدد من أول دلائل هدم فكرة تقسيم أفريقية إلى قسمين. فهي فكرة أوروبية أي مصنوعة في الخارج وليست إنتاجا محليا، والغرض من الضغط عليها وإبرازها هو التفريق، وهذه عملية ليست جديدة على الاستعمار منذ وطئ أرض القارة، يتلمس نقاط الضعف، و ينفذ منها أو يحاول، تارة على أساس الدين بين مسلمين وأقباط، وتارة على أساس العرقية أو الثقافة، بين زنوج وعرب، بيض وسود وهكذا.

وسنناقش في هذا الفصل قدم الاتصالات العربية الأفريقية ووثوق هذه الصلات والقضايا التي يحاول بها العالم المتقدم الإيقاع بين العرب والأفارقة، ثم أهمية التضامن والتكاتف العربي الأفريقي في عالمنا المعاصر

الاتصالات العربية الأفريقية

قدم الاتصالات العربية الأفريقية:

وجد العرب في ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها، وتمضي على سنة التطور عصرا بعد عصر، إلى

أن تبلغ التطور الذي عرفناه منذ أيام الدعوة الإسلامية، وهذه هي القاعدة في تسمية الأمم وفي تطور اللغات، فلم يكن العرب بدعا فيها بين أمم المشرق والمغرب.

فإذا اتفقنا على هذا، وليس هذا موضع خلاف، فان العلاقات العربية الأفريقية قديمة للغاية، وللعرب في أفريقية تاريخ مضيء أشار إليه الرحالة الإغريقي مؤلف كتاب الكشاف البحري Periplus في القرن الأول الميلادي[1] حين كتب يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقي لأفريقية، و يشيد بقدرة العرب على العيش بين الأهلين حتى في ذلك الزمان البعيد، يتزاوجون فتختلط الأنساب ولا يجد الخصام بينهم سبيلا و بين الأفارقة. تجئ سفنهم من الجزيرة العربية ومن كل صوب في المحيط الهندي بالخناجر والرماح والزجاج، وتقلع من الساحل الشرقي تحمل العاج وقرون الخرتيت وجلود السلحفاة. ولم يكن اتصال العرب بأفريقية مقصورا على ساحلها الشرقي وظهيره، بل كان أيضا أقدم عن طريق سيناء أو المدخل الشمالي الشرقي لأفريقية.

وقد شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوبا و بطونا عربية تنطلق من قلب شبه الجزيرة العربية في اتجاهات مختلفة ومنها أفريقية، أولئك وهؤلاء كانوا شعوبا وقبائل سامية تتفرع من أصل واحد ترد نسبته إلى سام بن نوح، و يتكلمون لغات نبتت من معين واحد وان بعدت الشقة. ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها-وكلها من أصل واحد-بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار أو هذه الديار، فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد إلى الوجود، فلما جاء الإسلام عمل القرآن على توحيد اللسان وأصبح اللسان العربي مصطبغا بلهجة قريش.

وعملية الانتشار من شبه جزيرة العرب إلى مصر أمر طبيعي حيث حياة الانتقال والبداوة إلى المناطق الأكثر غنى، خاصة في فترات القحط الشديد والجدب الذي يصيب البادية أحيانا سنوات متتالية. و يربط بعض الباحثين هذه التدفقات بالذبذبات المناخية الأخيرة، و بصفة خاصة بالجفاف الذي يصيب البادية [2]، فعندما نزل إبراهيم عليه السلام أرض مصر، وكان هذا من المرجح في أيام الأسرة الثانية عشرة أي في القرن العشرين قبل الميلاد فرارا من قحط وجوع في فلسطين كما روى الاصحاح الثاني عشر

من سفر التكوين «وحدث جوع في الأرض، فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدا» وليس من شك أن إبراهيم هبط على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، واكبر الظن أن إبراهيم قد هبطها مع إحدى قوافل البدو تلك التي كانت تقبل بائعة لها وشارية منها. وعندما وصل الهكسوس مصر (1700ق. م) أحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم إلى جانب مواشيهم وقطعانهم، وعندما طردوا من مصر (1580 ق. م) رجعوا إلى بلادهم في عشائر ودفعوا مواشيهم أمامهم كأنما ظهرت أمامهم ظروف محسنة لمراعيهم في الصحراء. ولما هدد يوسف أخوته بأنه لن يبيعهم إلا إذا رأى أخاهم الأصغر، كان هذا خطرا يفزع شبحه النفوس، لأن القحط والمجاعة قد كانا يومئذ في فلسطين أعنف وأفعل من أن يتحملها أحد. ﴿**ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون، قالوا سنراود عنه أباه وأنا لفاعلون**﴾.[3]

﴿**فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وأنا له لحافظون، قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين**﴾[4]، واضطر تحت ضغط القحط أن يرسل ابنه الأصغر معهم بعد أن أخذ عليهم عهدا بالحفاظ عليه.

كذلك طبقا لما جاء في سفر التكوين، كانت المجاعة هي السبب في عدم استقرار اليهود ونزولهم مصر مهاجرين، كما فعلت بعض قبائل أدوم التي جاء ذكرها في خطاب موجه إلى فرعون مصر مرنبتاح في منتصف القرن الثالث عشر ق. م، ومن الشواهد أيضا أنه لقرون قليلة قبل الإسلام، كانت هناك هجرة قبائل من جنوب شبه جزيرة العرب حيث استقرت على أطراف الدولة الرومانية والفارسية، وهما اللخميون غرب الفرات والغساسنة شرق الأردن.

وهكذا يربط الباحثون العلاقات العربية مع أفريقية في العصور القديمة بالأحوال الطبيعية والسياسية والدينية، ففي الفترات السخية بأمطارها في شمال شبه جزيرة العرب تستقر الأحوال وتنتظم التجارة المصرية معها، أما في فترات الجفاف حين تضطرب الأحوال، ويظهر قطاع الطرق، فتصبح التجارة معها مستحيلة. وفي كثير من الأحوال ارتبط الجفاف بإغراء البدو

بغزو مصر خاصة من شمالها، وكرد فعل لهذا الغزو يتمركز الحكام الوطنيون في الجنوب، وتشتد العلاقات بحكم الموقع الجغرافي حول المدخل الجنوبي للبحر الأحمر سواء في جنوب شبه جزيرة العرب أو على الجانب المقابل من الصومال، كذلك كان لقوة طيبة في فترات ضعف مصر شمالا أثره في زيادة الطلب على البخور اللازم للطقوس الدينية، وهكذا كلما اشتد الخطر في الشمال ازدادت العلاقات مع الجنوب ليعيشا في هدوء بدلا من الاغارات.

و يبدو أن أزمة المناخ التي شاهدتها شبه جزيرة العرب قبل الإسلام بلغت ذروتها في القرن السادس ق.م.

على العموم إذا كان التغير في كمية الأمطار لم يكن كبيرا، فأثاره كانت كبيرة لاشك على إقليم كان في الأصل ما بين الجاف وشبه الجاف. ومن الممكن القول إن الجفاف اشترك ضمن عوامل أخرى في علم الاستقرار ابتداء من القرن الثالث الميلادي و بصورة اكبر في بداية القرن السادس الميلادي.

على أن هذا ليس معناه أن التوسع العربي في العصور الأولى للإسلام يرجع إلى الجفاف المناخي، لأن الانتشار هنا يختلف عن انتشار الكنعانيين والآراميين وغيرهما من الشعوب السامية، ووجه الاختلاف أنه لم يكن مصحوبا بهجرات واسعة، ولكن فيما بعد كانت هذه الهجرات نتيجة للانشقاق السياسي في داخل الخلافة الإسلامية.

طرق الاتصال

شمال أفريقية

مصر:

رأينا كيف كانت الحركة مستمرة من شبه جزيرة العرب إلى أرض مصر منذ عهد إبراهيم و يوسف، بل وقبلهما، لأن اتجاههما هذه الوجهة يدل على أن الحركة مألوفة في هذا الاتجاه، وقد ساعد على هذا وجود شبه جزيرة سيناء و برزخ السويس كأدوات وصل بين الجناحين الأسيوي والأفريقي، فكانت سيناء معبرا بين جنوب غرب آسيا وأفريقية، وكانت أحد الطريقين الرئيسين اللذين كانت تأتي منهما الهجرات العربية إلى أفريقية، والآخر وهو باب المندب سنأتي على ذكره فيما بعد.

وقد اتبعت الهجرات والحملات التي عبرت سيناء إلى وادي النيل إقليم الساحل الشمالي، وما زال الثلث الشمالي لسيناء هو أرض العبور إلى الوادي، ذلك أنه أوفر أجزاء سيناء مطرا، غني بكثبانه الرملية الحافظة للماء وتعظم عذوبة هذا الماء كلما جاوزنا العريش شرقا إلى رفح، هذا فضلا عن أنه أقل أجزائها وعورة[5].

وليس المجال هنا لتتبع الهجرات القديمة، ولكننا إذا ما قفزنا إلى ما قبل الميلاد فسنجد دولة الأنباط في القرن 4 ق. م وقد بسطت نفوذها وامتدت في شمال شبه جزيرة العرب إلى سوريا، ومن الفرات شرقا إلى البحر الأحمر غربا، وبلغت هذه الدولة أوج قوتها في القرن الأول ق. م. وامتد نشاط سكانها إلى مصر وسكنت منهم جماعات على ضفاف النيل والصحراء الغربية والشرقية بعد زوال دولتهم على أيدي الرومان، ومنهم من سكن وادي النيل، بل وامتد نشاطهم إلى برقة. وأتت مصر بعد الأنباط بطون من قضاعة، وسكن معظمهم بوادي مصر الشرقية وصعيدها زمنا طويلا. وبعد أن تحررت الشام من الحكم البيزنطي في عهد عمر بن الخطاب، وقبل أن يدخل عمرو بن العاص أرض مصر، تفرق بنو غسان وغيرهم من القبائل العربية النصرانية، ووصلوا مصر واستقروا فيها.

هذا وقد قدمت القبائل العربية بعد ظهور الإسلام إلى مصر، واستقرت فيها. و يكفي أن نقول بأن النويات الأولى وكانت تمثلها الحاميات، كانت نويات كبيرة، فبلغت حامية الفسطاط في عهد معاوية أربعين ألفا، وحامية الإسكندرية سبعة وعشرين ألفا، وحامية الصعيد عشرين ألفا، وقد تزوج معظم أفرادها من مصر، واستمرت هجرات القبائل العربية متدفقة مختلطة ومندمجة مع المصريين حتى إذا كان القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت غالبية الشعب المصري تتكلم العربية ولا تفهم القبطية.

السودان:

وترجع أيضا صلة السودان بعرب شبه الجزيرة إلى ما قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة، فلم يكن من الصعب اجتياز البحر الأحمر بالسفن الصغيرة، لأنه لم يكن ما يمنع الاتصال بين شاطئيه العربي والأفريقي، غير أن انتشار العروبة والإسلام بصورة أساسية أتاه عن طريق مصر، بعد أن تعربت وأسلمت، فأصبح الباب الشمالي للسودان مفتوحا للإسلام والثقافة العربية،

وتتقاسمه ثلاث مجموعات قبلية كبرى: الجماعات العربية في السودان، وما زالت تحتفظ بألقابها وهي المجموعة التي تنسب نفسها إلى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومجموعة جهينة وهي قبائل قحطانية وفدت إلى مصر في بداية العصر الإسلامي، ثم تسربت إلى أوطان شرق السودان، أما مجموعة الكواهلة فقد انتشرت من العطبرة والنيل الأزرق إلى أقصى غرب السودان (6). وكان يمكن للعروبة الامتداد على هذا المحور جنوبا لولا وقوف الاستعمار البريطاني أمامها سدا بإعلان إقليم جنوب السودان إقليما مغلقا أمام سكان شمال السودان، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة العربية بين قبائل كالدنكا والشلك الذين يعيشون على أطراف الإقليم، كذلك اتصل أهل دارفور (غربي السودان) بتونس، كما ذهب كثير منهم إلى غرب أفريقية حيث مدارس العلم في كانو وتمبكتو.

الحبشة:

يضيق البحر الأحمر اكثر ما يضيق في طرفه الجنوبي أو فيما يعرف بباب المندب، فهنا تقترب أفريقية من شبه جزيرة العرب، وإذا أضفنا إلى هذا الجزر التي تقع في هذا المضيق أدركنا سهولة الحركة والانتقال عبر هذا الجزء، فمن ثم كانت اليمن وما يليها إلى الشمال والجنوب مصدرا لهجرات عديلة أثرت تأثيرا بالغا في الهضبة الحبشية وأعالي النيل الأزرق، وسواحل السودان الشرقية، وكانت المؤثرات الحامية والسامية تتدفق من ذلك القسم الجنوبي من شبه جزيرة العرب اكثر من تدفقها من وسطها، وذلك لوفرة سكان بلاد اليمن ولبراعة السكان في الملاحة ولاقتراب اليابستين الأفريقية والعربية. ومن المعروف تارنحيا أن عرب اين قد هاجروا إلى هضبة الحبشة ونشروا فيها الثقافة العربية في وقت يرجع إلى عهد بعيد أيضا. وفي الحق لقد كانت نقطة الانطلاق في تاريخ أثيوبيا تتصل اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية، إذ تدفق الساميون من هناك غزاة أحيانا وتجارا أحيانا على جبال أثيوبيا المنيعة وسهولها الواسعة، وطوروا مع الوقت حضارة أثيوبية، أضافوا إليها من حضارتهم سمات كثيرة، وأقدم آثارهم المخطوطة نحتا يرجع إلى القرن الرابع ق. م. وان كنا نرجح أنها ترجع إلى قرون عديدة قبل ذلك، فلفظ الحبشة يرجع إلى قبيلة حبش العربية التي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية من القرن العاشر إلى القرن السابع ق.

م. ولم يأت القرن الرابع ق. م. حتى غلب اسم هذه القبيلة العربية على البلاد.

وإذا كان هذا التأثير العربي قد وصل إلى حدود السودان كما نعرفه الآن، فهل وقف هذا التأثير عند تلك الحدود؟ وهل كان مقصورا على القبائل المنية؟ من الصعب أن نتصور هذا التأثير لم يتناول غير الحبشة، أو أن اليمن وحدها هي التي كانت مصدرا لتلك الهجرات، فسكان الحجاز بدورهم كانوا يعرفون الحبشة تمام المعرفة، ومن ثم كانت الهجرة الأولى إليها عندما خرج إليها جعفر بن أبي طالب وصحبه، ثم أن غير قليل من الممالك المنتشرة حول بحيرة تشاد إلى الغرب من السودان ينتسب رجالها إلى سيف ابن ذي يزن وهو من ملوك التتابعة (اليمن). ومن الصعب أن نجد سببا يدعو إلى الحكم ببطلان هذا الزعم، أو أن هجرة يمنية لم تؤثر على الأقل في الطبقات الحاكمة في تلك الأقطار قبل الإسلام بقرون.

المغرب:

عمر الإنسان بلاد المغرب منذ أقدم العصور، ودل على هذا التعمير تلك الحضارات التي قامت في العصور الحجرية، غير أن أهم العناصر الأساسية كانوا البربر ولفظ البربر من المرجح أنه مشتق من لفظ Barbari اللاتيني ومعناه الأجانب بالنسبة للرومان، ومن الجائز «المتلعثم في كلامه» ومن المحتمل أن الرومان لم يستطيعوا أن يفهموا لغة البربر فأطلقوا عليهم هذا الاسم، والبربر في الحقيقة هم عبارة عن الشعبة الشمالية من الحاميين الذين وصلوا من الشرق وخاصة من القرن الأفريقي وجنوب شبه جزيرة العرب، وكثيرا ما يشير الكتاب حين يتحدثون عن القبائل العربية في شبه جزيرة العرب وما يليها من الأقطار إلى أن البربر من سكان أفريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب، وان بعض قبائلهم ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات أصل يمني، و يذهب الأستاذ جرينبرج الذي يعد من أفضل من درس اللغات الأفريقية إلى أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها إلى أصل واحد، وقد سماها المجموعة الأفروآسيوية، ولن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شيء من القرابة الروحية بين العرب وسكان الشمال الأفريقي[7]. وتتفق هذه النظرية مع ما ذهب إليه عالم الآثار ادولف ارمان من أن ما يسمى بالجنس الحامي والذي ينتسب إليه بعض سكان جنوب

شبه الجزيرة العربية وسكان الحبشة والصومال وقدماء المصريين والبربر ما هو إلا جنس سامي هاجر إلى أفريقية من جنوب الجزيرة العربية، ثم اختلط بدماء أفريقية متنوعة.

أما بعد ظهور الإسلام في شبه جزيرة العرب فقد زحفت موجة من المد العربي إلى الشمال الأفريقي في أوائل النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، كان معظمها من الخوارج الذين هزمهم علي بن أبي طالب، أي أن هذا كان قبل الفتح العربي الإسلامي للبلاد على يد عقبة بن نافع. واستقر هؤلاء المهاجرون الأول في تونس، ولا تزال سلالتهم إلى الآن في جزيرة جربا وفي الواحات الجنوبية.

أما موجة الفتح العربي فكان لها أثر أكبر في نشر اللغة العربية والإسلام، فقد جاست جيوش العرب البلاد من الشرق إلى الغرب إلى أن تم الاستيلاء عليها وطرد الرومان، وكانت الجيوش العربية تتألف من الرجال دون النساء هنا أيضا، فلما استقروا تزوجوا من نساء البربر ونشروا العربية والإسلام، وكانت عاصمتهم القيروان التي أسسها عقبة بن نافع، كما كان لوالي المغرب خليفة في طنجة.

وكانت الموجة الأخيرة والكبيرة هي موجة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر(1045 م) حين سمح الخليفة المستنصر لهذه القبائل بأن تتخذ طريقها إلى بلاد المغرب انتقاما من قبائل صنهاجة، لأنها خطبت باسم الخليفة العباسي، ووصل بنو هلال إلى ما يعرف بالصحراء الغربية،[*2] ومنهم من احتل سهول الاطنلطي في المغرب، ومن احتل المناطق الداخلية من فاس إلى مراكش[8] وهكذا انتشرت العربية والإسلام، وأصبح كثير من المساجد جامعات إسلامية، كما في فاس وتونس والقيروان. وفي الحق لقد كان المغرب في الركن الشمالي الغربي لأفريقية أشبه بمصر، فمنه خرج الإسلام والعروبة نحو الجنوب وكان امتداد الإسلام والعروبة هنا اكثر بعدا نحو الجنوب عنه في شرق القارة، فقد وصلت إلى حوض السنغال والنيجر بفضل المرابطين الذين نشروه بين قبائل الفولاني في غينيا عام 1076 م، كما ازدهر الإسلام على أيدي تجار الهوسا الذين ينتشرون في مساحات واسعة شمال نيجيريا، بل ووصل تجار الهوسا بالإسلام إلى قبيلة الاشانتي في جنوب غانا وداهومي.

نحو قلب أفريقية

الصحراء الكبرى إقليم فصل أو وصل؟:

لم تشرع الصحراء الكبرى تفقد خصوبتها وماءها إلا في أربعة آلاف السنة الأولى قبل الميلاد، فقد نضبت مياهها تدريجيا على مر الأيام، مما جعل الصحراء تأخذ صفاتها الحالية من الجدب والقسوة، وزعم البعض أنها بذلك أصبحت فاصلا بين الشمال والجنوب، بين أفريقية شمال الصحراء وأفريقية جنوب الصحراء. وإذا كانت أفريقية جنوب الصحراء ظلت مظلمة حتى القرن التاسع عشر في نظر الأوروبيين فلم يكن الحال هكذا بالنسبة لسكان أفريقية الشمالية أو عرب شبه الجزيرة، فلم تكن هناك قطيعة كاملة، بل كان هناك اختراق لهذه الصحراء في مواضع متعددة. وكان هناك دوران حولها، فقد تم اختراق الصحراء في شرقيها عن طريق وادي النيل إلى الإقليم السوداني وما وراءه، وكان هناك عبور لها في ليبيا ومن المغرب الكبير إلى النيجر والسنغال، أما تطويقها فقد تم عن طريق اتصالات عرب شبه الجزيرة بالقرن الأفريقي والساحل الشرقي لأفريقيا، فضلا عن الدوران حولها من الغرب.

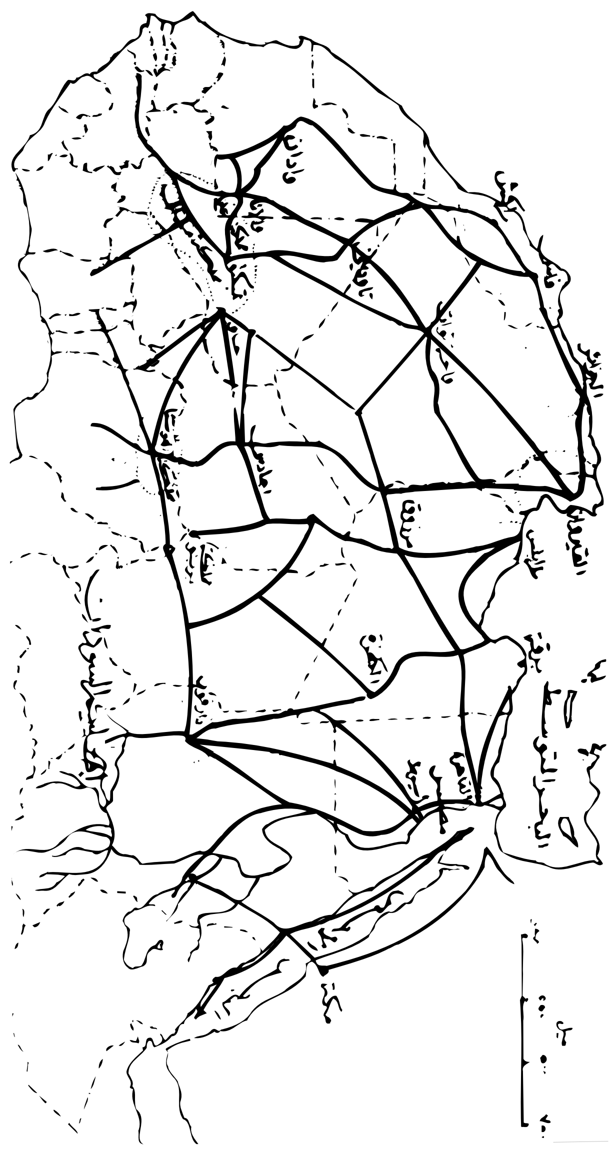
هكذا قبل أن يعبر يوليوس قيصر بحر المانش بأربعمائة عام، تراهن شباب من شمال الصحراء الكبرى مع أصدقاء لهم، على عبور القفر من ذلك الشمال إلى الجنوب وكانوا من أبناء أصحاب الشمال وسادته، الناسامونيين، فقضوا زمانا يتيهون في الصحراء فقد كانت كما هي موحشة، خرج هذا الشباب المغامر من مسكنه في برقة ومشوا جنوبا واتجهوا غربا حتى أتوا إقليم الحيوانات المفترسة وعبروه بعد لأى حتى رأوا أشجارا مغرية الثمار، فإذا قوم صغار القامة، أقل في ارتفاعهم حتى من الشخص المتوسط ينقضون عليهم من كل جانب ويحملونهم قسرا إلى حيث يقيمون، وأرادوا الحديث إليهم فلم يتيسر ذلك لهم، فما فهموا الناسومانية التي كانوا بها يتحدثون، ولا فهم هؤلاء عنهم شيئا مما يقولون، أرض فسيحة كثيرة العشب والمياه الراكدة، ثم أتوا بعدها المدينة، وما بها من أحد إلا هؤلاء القوم صغار القامة سود الوجوه، وكانت المدينة على نهر عظيم تجوبه التماسيح، يسير من الغرب صوب الشرق.

هذه النبذة التي أشار إليها هيرودوت وأثبتها في كتابه تشير إلى الرباط

الذي كان بين هذه الحضارات التي تبناها النيل على ضفافه والبحر المتوسط على شطئانه وأخواتها التي قامت بعيدا جنوب الصحراء،وأثبتت أن الاتصالات عبر الصحراء كانت مستمرة منذ أقدم العصور، بل سبقت بكثير وصول العرب والإسلام إلى أفريقية. ولكن هذه الاتصالات المبكرة رغم أهميتها فمن الصعب تتبعها بدقة أو توقيعها على الخرائط بالتفصيل ذلك أن الأدلة في تلك العصور البعيدة محدودة، وتكاد تقتصر على إشارات في كتابات القدماء أو بعض الأدلة الأثرية غير الكاملة، وان كانت النقوش الصخرية قد أشارت إلى عدة طرق تعبر الصحراء،[9] غير أن ذروة اتصال الشمال الأفريقي مع أفريقيا جنوب الصحراء كان بعد تعريب الشمال الأفريقي.

ذروة الاتصال العربي لغرب أفريقية عبر الصحراء:

وجدت التجارة بين شمال أفريقية وغربيها دفعة قويه بعد ثلاثة قرون من ظهور الإسلام وبعد انتشار العرب في شمال أفريقية ودخول الجمل.[10] ولما جاء العرب في القرون الوسطى عرفوا آبار الصحراء واحدة وعبروا ذلك القفر في شهرين واكثر. ويعتبر دخول الجمل حادثا فريدا في الصحراء الكبرى الأفريقية، فبينما لم تنتظر الحركة في الصحراء وصول الجمل، فانه كان صاحب الفضل في جعل طرق القوافل شرايين منتظمة للتجارة والحضارة بين جزئي أفريقية شمال الصحراء وجنوبها. ومع تدهور الحكم الروماني في شمال أفريقية في القرن الرابع الميلادي اختفت هذه التجارة أو كادت، ولم تستعد نشاطها حتى الفتح البيزنطي لشمال أفريقية (533-35) ثم كان الفتح العربي لشمال أفريقية وأثره البالغ في نشاط هذه التجارة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل وما كان مجيئهم للإغارة كما فعل البربر قبلهم ولا للإقامة الهاربة كما فعل اليهود والبربر حيث شق عليهم العيش مع الروم، بل كان التجار العرب يحملون رسالة و يتحدثون لغة مرموقة. واتخذت آثارهم هذه سمتها القوية التي بقيت اليوم في سحنة الكثيرين وفي دينهم ولغتهم. فقد ظهر التجار العرب منذ النصف الثاني من القرن الثامن، وزاد نفوذهم بعد غزو المرابطين لمملكة غانا عام ل1077. وكانت تلك الفترة المعاصرة للعصور الوسطى في أوروبا، هي فترة ازدهار لطرق التجارة



شكل رقم (16) طرق التجارة والاتصال عبر الصحراء الكبرى عن: Fage, J. Atlas of African History, London, P. 17.

الصحراوية وخاصة من منتصف القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن السادس عشر، فقد شهدت هذه الفترة طلبا ملحا على منتجات غرب أفريقية من جانب أوروبا وأفريقية الشمالية، وربما ساعد على هذا أيضا الحكومات المستعمرة في كل من أفريقية الشمالية وغرب أفريقية.

و يكاد يجمع الباحثون على أن العصر الذهبي لهذه التجارة شارف النهاية في القرن السادس عشر نتيجة لتوسع التجارة البحرية التي سلبت طريق البر أهميته، ووجهت التجارة نحو الساحل الغربي لأفريقية خاصة بعد عدم الاستقرار السياسي الذي حدث في غرب أفريقية نتيجة القضاء على مملكة سنغى بواسطة المغاربة عام 1591.

ولكن يبدو أن التحليل السابق فيه شيء من المبالغة، ذلك أنه ليست هناك شواهد كبيرة على أن وصول الأوروبيين إلى ساحل غرب أفريقية كان له تأثير سريع على اقتصاديات الداخل، ذلك أن التجارة عبر الصحراء زادت قيمتها خلال القرن التاسع عشر، أما التدهور النهائي فلم يظهر إلا بعد 1875.

وهنا لابد من توضيح ثلاث نقاط تستحق المناقشة فيما يختص بدراسة هذه التجارة من الناحية الاقتصادية.:

أولا:- أن النقص الإحصائي يعتبر عائقا كبيرا يحول دون التفسير الصحيح لنمو وهبوط التجارة الصحراوية، ولذلك يجب أن يكون هناك شيء من الحذر في استخدام المعلومات.

ثانيا:- أن تفسير الذبذبات في التجارة الصحراوية صعودا وهبوطا في الوقت الحاضر سيظل مبنيا على أساس فهم غير صحيح للعوامل المحددة للازدهار والكساد في مثل هذه التجارة غير العادية. فالأبحاث الحالية تركز على العوامل السياسية وخاصة الاستقرار وعدم الاستقرار على هامشي الصحراء الجنوبي والشمالي، أي عند بدايات ونهايات الطرق الصحراوية.

وكانت السلع موضوع التجارة يحددها اعتباران، بصرف النظر عن انخفاض القوة الشرائية في غرب أفريقية: أولهما طول الرحلة التي كانت تقطع فيما بين 270 و90 يوما وأحيانا لمدة أطول، وهذا معناه أن السلع السريعة التلف لا مكان لها في هذه التجارة. وثاني أن جميع السلع لابد وأن تكون قيمتها كبيرة بالنسبة لوزنها، ذلك أن أجور النقل عبر الصحراء كانت

تضيف ما يتراوح بين 100٪ و150٪ من تكاليف السلعة، ولكن هذه النسبة تنخفض بطبيعة الحال إذا كانت قيمة السلعة مرتفعة. فالرقيق حقيقة كانوا ينقلون أنفسهم ولكن كان لابد من إطعامهم وحراستهم.[11]

والسلع التي كانت تتم فيها التجارة يمكن تقسيمها العصر الذهبي فئتين، وإن كان ليس من السهل وضع خط فاصل بينهما: فهناك ضروريات الدولة كالذهب والرقيق التي كانت تتجه شمالا، والأصواف والملح والأسلحة التي كانت تتحرك جنوبا، فهده السلع الأساسية لعبت دورا أساسيا في الحفاظ على البناء الاقتصادي والسياسي للدول التي كانت تشتريها سواء في أوروبا أو أفريقية أم الشمالية أو غرب أفريقية. فالذهب والأصواف كانت أساس العملة، والرقيق يمثلون نسبة لا بأس بها من القوى العاملة والقوة الحربية في بعض الأقاليم، أما الملبن فكان ضرورة غذائية. و يضاف العصر الذهبي ذلك المعدات التي كانت سندا للقوة السياسية.

وكان هناك بعض السلع الكمالية كالملابس الغالية والفلفل والعاج وثمار الكولا والمصنوعات الجلدية، وأضيف إليها في القرن التاسع عشر ريش النعام، وهي سلع كانت تتجه شمالا، وهناك أنواع من المنسوجات (وخاصة تلك المصنوعة بأصباغ غير متوفرة محليا) والنحاس والأغذية المحفوظة والآنية الزجاجية والخرز وغيرها كانت تتجه جنوبا.

ومن هذه السلع ما يجب أن نتوقف قليلا عند بعضها لإيضاح أهميتها في الحركة التجارية. أما عن أصل تجارة الذهب بالتحديد فهو غير واضح ولكنها قد ترجع إلى أيام القرطاجيين أو قبلهم بقليل، ولكن زادت صادراته بصورة واضحة خلال القرن الحادي عشر بعد استخدام الذهب في العملة في العالم الإسلامي، ثم زادت مرة أخرى بعد عام 1952 بعدما بدأ الذهب يحل محل الفضة في أوروبا كعملة رئيسية، وهكذا كان غرب أفريقية هو المورد الرئيسي للذهب في العالم ما بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر أي حتى كشف الأمريكتين وقد قدرت قيمة الذهب الذي صدر عبر الصحراء قبل وصول البرتغاليين بنحو 200 ألف جنيه إسترليني سنويا.[12] وكان أهم حدث في تاريخ الكشف البرتغالي (من الناحية الاقتصادية) لأفريقية هو الوصول إلى ساحل يمكن فيه المقايضة بالذهب عام 1471 م، فقد كشفوا ساحل الذهب وأطلقوا على هذا القسم من ساحل غانا اسم

المينا (أي المنجم Mine) و بنوا حصن سان جورج عام 1842 في الميناء المعروف باسم المينا اليوم في دولة غانا ليكون بمثابة مستودع للتبادل بين السلع البرتغالية من ناحية، وذهب غرب أفريقيا من ناحية أخرى.

و يأتي الملح في المكان الثاني في تجارة تلك العصور بعد الذهب، بل وأحيانا يتفوق عليه إذ يندر وجود الملح في الإقليم السوداني بين الصحراء والغابات. ذلك أن تراجع الصحراء التدريجي أبعد سكان الإقليم السوداني عن مواطن هذه المادة المشتهاة التي تستخدم في تجفيف الطعام والمحافظة عليه فضلا عن إعطائه مذاقا خاصا، ولم يكن في الإمكان الحصول على الملح جنوب الصحراء إلا بعملية شاقة، أي تقطير الحشائش، ومن ثم ظهرت أهمية ملح الصحراء. وهكذا بلغت أهمية الملح لدى السودانيين درجة كانت تقدر فيها قيمة الذهب بقوته الشرائية للملح. ولم تكن رواسب الملح الطبيعية قليلة في السودان الغربي فحسب، بل كانت مركزة في مساحات صغيرة، ومن ثم كان لا بد من الحصول عليه من خارج الإقليم، وكان هذا الإقليم هو تاوديني، كما كان يحصل عليه من سبخة ويجيل إلى الشمال الغربي من تاوديني وكانت هذه السبخة إلى الغرب من تغازا، ولكن هذه التجارة كانت بدورها حساسة للغاية لان المناجم كانت في أقاليم غير محمية، فضلا عما يتعرض له العمال أحيانا من هلاك إذا لم تصلهم المؤن في الوقت المناسب. وأدت شدة الطلب على الملح في أوائل القرن التاسع عشر إلى نقله من الغرب ومقايضته في الإقليم السوداني على أساس أوقية من الملح مقابل أوقية من الذهب.[13]

وكان تنظيم القوافل يقتضي قيام أربعة مراكز شبيهة بالموانى أو بالاستراحات لتقليل حدة وصعوبات الصحراء والتجارة عبرها، فضلا عن زيادة كفاءة تجميع السلع وتوزيعها وهذه المراكز:

أولا: كانت النهايات الجنوبية على حافة الصحراء الجنوبية مثل تمبكتو، وكانو مراكز لتجميع وتعبئة وتحميل السلع المتجهة إلى الشمال، كما كان يتم فيها توزيع السلع المتجهة نحو الجنوب: فأهمية تمبكتو لم ترجع إلى زراعة أو صناعة فيها، وإنما إلى تجارة المرور، أب إلى أنها أقرب مستودع إلى ذهب وكولا وذرة وعاج الجنوب، ومصب للمنسوجات الأوروبية والأسلحة التي تصل إلى ميناء موجادور.

وطوال القرن التاسع عشر كانت كانو هي العاصمة التجارية للسودان الغربي، بل وأكثر أهمية من تمبكتو، وقدر بارث Barth سكانها بنحو 30 ألفا معظمهم من الهوسا، فضلا عن أقلية غنية من العرب.[14] ومع بداية فصل الجفاف وتدفق التجارة عليها كان يتضاعف عدد سكانها، وساعد كانو على هذا أنها وسط إقليم زراعي ينتج المواد الغذائية لسكانه فضلا عن فائض يمكن تصديره ولكن كانو اشتهرت أيضا بصناعتها ومهارة سكانها من الهوسا في النسيج والصباغة، وتأتي معظم واردات كانو من الشمال، وكانت السلع الواردة تشمل الملح فضلا عن نوع خشن من الحرير وارد من طرابلس، فضلا عن الأقطان الإنجليزية والحرير الفرنسي والعقود الزجاجية من فينسيا وتريست وكميات من السكر والتوابل والشاي، ولا ننسى أيضا شهرة كانو كمركز للنطرون من بحيرة تشاد فضلا عن ثمار الكولا من الجنوب.

ثانيا: كانت هناك محطات على الطريق للراحة والتزويد بالمؤن مثل أجادس التي حلت محلها «إفروان» فيما بعد، فضلا عن «غات» و«عين صلاح».

ثالثا: كانت هناك محطات تفرغ فيها القوافل قبل أن تأخذها قوافل أصغر لتوزيعها في الاتجاهات المختلفة، وهي في نفس الوقت مكان تجمع القوافل المتجهة نحو الجنوب قبل الرحيل حيث يمكن شراء المؤن وتأجير الحراس والمرشدين وشراء الإبل اللازمة للرحلة وهذه تمثلها سجلماسة (تندوف).

رابعا: مدن نهاية الطريق الشمالية مثل فاس والجزائر وتونس وطرابلس. وهذه المستودعات النهائية أما قريبة من البحر المتوسط أو تطل عليه مباشرة، وتقوم فيها عملية بيع وشراء السلع إلى ومن السفن الأوروبية وكذلك تفريغها وإعادة شحنها.

وإذا كان العرب قد اشتركوا في هذه التجارة إلى جانب البربر والزنوج، فإن العرب كان لهم بلا شك دور بارز إلى حد كبير، فضلا عما نقلوه وتركوه من آثار نتيجة التقائهم بسكان جنوب الصحراء.[15]

ولا يقتصر الأمر على الهجرات والتحركات الشمالية الجنوبية والعكس، بل كانت هناك هجرات وتحركات غربية شرقية والعكس أيضا، وان كانت دقائق هذه الهجرات غير معروفة، وهي لا تعنينا فيما نريد أن نصل إليه

من بحثنا، ولكن الذي يعنينا أنك لن تجد اليوم قبيلة معروفة في غرب أفريقية لا يتصل نسبها البعيد-فيما تقول أساطيرها المتوارثة-بأصول بعيدة في الشرق أو الشمال. وتكتمل هذه القصص أحيانا حتى ليستطيع الباحث بها أن يخمن الزمان الذي نزح منه أسلاف هذه القبائل من الشمال أو الشرق إلى غرب أفريقية.

ويذهب السلطان محمد بلو(1779- 1837) إلى أن اليوربا هم سلالة بني كنعان وعشيرة نمرود. والسبب في استقرارهم في الغرب كما سمع عن أسلافه أن يعرب بن قحطان طردهم من الصحراء نحو الغرب وسافروا بين مصر والحبشة حتى وصلوا أرض اليوربا.

وإذا كانت الاتصالات الشمالية الجنوبية عبر الصحراء واضحة لا لبس بها، فهناك أيضا الاتصالات الجنوبية الشمالية، بل أن هناك نظريات متطرفة مثل النظريات التي ترجع المصريين القدماء إلى أصول زنجية، كما أن بعض التقاطع الزنجية تشاهد أحيانا بين المصريين المعاصرين في مصر العليا. وهنا يبرز هذا السؤال: متى حدث هذا المزج؟ هل كان في عمر ما قبل التاريخ أو في العصور التاريخية أو في العصور الحديثة؟

و يؤيد صابوري بيوبكو Saburi Biobaku الذي درس الأصول القديمة لقبيلة اليوربا التي أسست حضارة جنوب نيجيريا واستمع في صبر إلى قصص أهلها عن هذه الاتصالات الشمالية الجنوبية، وانتهى إلى أن المؤسسين الرواد لهذه القبيلة أتوا نيجيريا من حوض النيل الأوسط فيما بين القرنين السابع والعاشر، والشرق عند اليوربا معناه مكة أو بلاد العرب، ولكن يحدث دائما خلط لديهم بين الشرق الأدنى وشبه جزيرة العرب، وفي رأيه أن هجرتهم من أعالي الصعيد أرجح من هجرتهم من اليمن. (16)

هذا بينما يذهب البعض الآخر إلى أن شعوب غرب أفريقية تعلمت صناعة الحديد من الشمال أي من البربر لا من وادي النيل، وأيا كان الأمر فان الحديد الذي غزا السفانا, وصار عنصرا حيويا من عناصر التحضير في القرون القليلة السابقة للميلاد، انتقل عبر الصحراء، ولم تكن الصحراء فاصلا، كما أنه بصرف النظر عن التواريخ وصحتها، فان الأصول الشرقية لحكام قبيلة اليوربا مرجحة، والقص والأساطير أن لم تكن دليلا على الأصول الشرقية فهي دليل على الأثر الشرقي. والشواهد التي تدل على

الاتصالات الحضارية عبر الصحراء عديدة نذكر بعضها كنماذج وأنماط لهذه الاتصالات.

فقد انتقل الكبش رمز الإله آمون إلى معابد البركل قرب نباتا عاصمة كوش، كما اتجه غربا أيضا إلى البربر والليبيين على الساحل الشمالي لأفريقية، وظهر هذا الإله في غرب أفريقية، فهو عند قبيلة الماندنجو اله الزواج والرعد، وتؤمن قبيلة اليوربا بالإله شانجو وله رأس كبش عليه نقاب، وهو أيضا اله البرق عند قبيلة الغون في بنين. و يكاد يجمع العلماء على أن الملكية الإلهية عند شعب الجوكون على نهر بنوى في نيجيريا تعيد للأذهان الملكية الإلهية في مصر القديمة.

وكما كانت هناك تحركات من الشرق إلى الغرب، فهناك هجرات عكسية لا شك تمت منذ القدم، وزادت بعد دخول الإسلام، ذلك أن الاتجاه نحو الشرق للحاج أصبح من الأمور المألوفة لدى المسلمين في غرب أفريقية. وكانت هذه الهجرات للحجاج تستغرق ذهابا وإيابا ما يزيد على عشر سنوات. وكان هناك قلة من الحجاج الفقراء يلحقون بقوافل الأغنياء ولكن غالبيتهم كانوا يرحلون معتمدين على أنفسهم ويسعون لرزقهم أثناء الطريق بالمشاركة في الأعمال التي يصادفونها سواء كانت زراعة أو رعيا. ولم ينتج عن هذا الدافع عمليات استقرار كبيرة قبل هذا القرن بسبب انتشار الأمراض، ولكن بعد ظهور المشروعات الزراعية في الشرق بدأت كثير من عناصر الفولاني (الفلاتا) وغالبيتها فقيرة يستهويها البقاء في السودان والعمل في المشروعات الزراعية، وتتناسى الغرض الأصلي وهو الحج أو يطيب لها العيش بعد العودة من الحج وتستقر في السودان، وكان في قيام تلك المشروعات وحسن المعاملة التي وجدها المهاجرون ما أغرى فريقا آخر فهاجر إلى السودان بغية العمل وجمع المال. ومن هؤلاء من استقر نهائيا في السودان فلم يعد إلى موطنه الأصلي.

الالتفاف حول الصحراء من البحر المتوسط والأطلنطي:

كان هناك اتصال بين سكان الشام (شمال جزيرة العرب) وأفريقية فيما وراء جبل طارق في هذه العصور القديمة. وكانت أهم هذه الاتصالات التي تمت عن طريق البحر المتوسط هي رحلة هانو التي لم يأت على ذكرها

هيرودوت بينما ذكر رحلة نكاو، ومن المرجح إذن أنها حدثت بعد عهد هيرودوت أي حوالي 425 ق. م وقد ساعد البحر المتوسط بدوره على هذه التحركات البحرية، فهو بحر مثالي للملاحة، أقرب إلى بحيرة هادئة تهب عليها نسائم التجاريات بانتظام عجيب إذا استثنينا فصل الشتاء حين تمر الأعاصير، فيضطرب ريحه و يعلو موجه. وحتى في هذا الفصل يمكن للملاح أن يلجأ لجزره العديدة المتناثرة خاصة في جزئه الشرقي، هذه الجزر التي أصبحت للملاحين هاديا ومرشدا ترى في الأفق البعيد، و يقدرانها ترى من على بعد 50 ميلا إذا كان الجو صافيا[17] ليس بعجيب إذن أن تكون مسالكه المائية طرقا للفينيقيين في مراحل مبكرة من تاريخ البشرية. وعلمنا برحلة هانو يرجع إلى تقرير بقلم هانو وجدت ترجمة إغريقية له في معبد بعل هامون في قرطاج وفيها يذكر أن القرطاجيين أرسلوا هانو ليعبر أعمدة هرقل وكان معه جمع من الرجال والنساء قدر بنحو ثلاثين ألفا ومواد تموينية ومعدات،وحمل كل هذا على ستين سفينة من نوع ذي الخمسين مجدافا. ووصل هانو في المرحلة الأولى إلى نهر Lixos ونهر درعه، وبعد الإبحار من هذا الإقليم بثلاثة أيام وصل جزيرة سبرين، وأما نهر شير يتس Cherets فالمرجح انه نهر السنغال. وأما المنطقة الجبلية الكثيفة الأشجار فهي رأس فرد، والخليج الكبير الذي يعنيه هو مصب غمبيا، ولكن بعد ذلك تصبح الاختلافات حادة بين الباحثين، فمنهم من أوصله إلى الكمرون ومنهم من اكتفى بسيراليون.

الالتفاف حول الصحراء عبر المحيط الهندي إلى شرق أفريقية ووسطها:

وكما شهدت أفريقية جنوب الصحراء صلة بالعروبة عبر شبه جزيرة سيناء، كان هناك باب آخر للاتصالات العربية، ولكنه باب بحري، عن طريق المحيط الهندي وشرق أفريقية، وكانت الاتصالات في هذا الاتجاه بين الجنوب العربي وشبه جزيرة العرب (الحضارمة واليمنيين) وشرق أفريقية من ناحية، وبين شعوب الخليج العربي (البحرانيين والعمانيين) وشرق أفريقية من ناحية أخرى.

ويرتبط النشاط المبكر لهذه العلاقات بزيادة النشاط التجاري في البحر

العربي والشرقي في العهد اليوناني الروماني كتلك المغامرات التي قام بها المصريون والإغريق لتأسيس تجارة عبر البحر الأحمر، ولكن مع ذلك فما زالت الدوافع مجهولة لهذا لانتشار الواسع في شرق أفريقية والذي يرجعه البعض إلى أوائل القرن الثاني قبل الميلاد عقب انهيار سد مأرب، والذي بلغ ذروته في القرن السادس إلى القرن الثالث عشر الميلادي ولم يتوقف بعد ذلك.

و يذهب الباحثون فيما يختص بالحركة الواسعة الانتشار لليمنيين والحضارمة إلى القول بظهور دورة جفاف أو على الأقل تغيير نسبي في الظروف المناخية، اتجهت بالإقليم نحو أحوال اكثر جفافا في الجنوب العربي مما أدى بالسكان إلى أن يولوا وجوههم نحو البحر، وامتد أثر هذا الجفاف إلى منطقتين في هضبة اليمن ذاتها من ناحية والسهل الساحلي الجنوبي عامة من وادي حضرموت من ناحية أخرى، وتذكري كتابات الإغريق الذين زاروا الإقليم أو سمعوا عنه مثل استرابو (20 م) فيما يختص بالسهول الجنوبية ووادي حضرموت بأن الإقليم منتج للتمر والتوابل والقرفة وكثير من النباتات العطرية، و بعض النباتات شبه الاستوائية كالقرفة ذات أهمية خاصة لأنه يعطي فكرة عن أن الظروف المناخية كانت اكثر رطوبة عنها في الوقت الحاضر. لأن إنتاج هذا الإقليم في الوقت الحاضر من نخيل التمر والذرة والسمسم وغيرها من حاصلات المنطقة المعتدلة الدفيئة، وإذا أضفنا إلى هذا أن الكتاب كانوا يصفون وادي حضرموت بأنه رطب غير صحي وتنتشر فيه الروائح الحاملة للموت، وهذا يؤدي إلى أسطورة تنعكس في تسمية «حضر الموت» أو وادي الموت[18] وان كان في الوقت الحاضر يعتبر وادي حضرموت من أهم جهات اليمن الجنوبية عمرانا، وتتم فيه زراعة البساتين اعتمادا على المياه الباطنية، وكان الجفاف الأخير الذي بدأ في القرن الثالث الميلادي وبلغ ذروته في بداية القرن السادس م، قد قلل من الرطوبة وحسن من الظروف الصحية، وكان فشل حضرموت والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة في إنتاج البخور قد أدى بسكانها إلى الاتجاه نحو البحر والبحث عنه في البلاد الأخرى من البحر العربي وكان منها شرق أفريقية.

إما عن سكان الخليج العربي من البحرانيين والعمانيين فقد استهوتهم

منطقة شرق أفريقية والجزر المقابلة لها بما فيها مدغشقر أكثر من شرق آسيا وفي هذا الإقليم (إقليم الزنج) عملوا أيضا بالتجارة، وكانت معظم هجرات هؤلاء من القرن السادس إلى القرن الثالث عشر،، وان لم تتوقف بعد ذلك، وقد استقر كثير من المهاجرين وصاهروا السكان المحليين وتقابلوا مع أخواتهم من جنوب غرب شبه جزيرة العرب. وكان لظهور المؤثرات العربية أثر واضح في أن بعض الباحثين يجعل الشريط الساحلي من شرق أفريقية وافدا من الشرق العربي.

وأما عن أسباب انتشار العمانيين والبحرانيين فما زال بدوره مثار مناقشة، ولا يمكن تعليله، بالجفاف كما هو الحال عند سكان جنوب وشمال شبه الجزيرة، ذلك أن اعتماد سكان الخليج كان على الصيد البحري واستخراج اللآلئ. ولذلك فمن الأفضل تفسيره بانخفاض الطلب على اللؤلؤ بعد انخفاض القوة الشرائية لدى الرومان، فضلا عن منافسة لؤلؤ جزيرة سيلان، مما أدى ببحارة الخليج إلى العمل بنقل التجارة.

وأساس الحركة التجارية التي نشأت في المحيط الهندي هو أساس جغرافي لأنه اعتمد على حركة الرياح والتيارات البحرية صيفا وشتاء، كما شجع عليه شكل السواحل والظهير، وفي أن تشبه الحركة الملاحية بالحركة التجارية عبر الصحراء كعامل أساسي في الاتصالات التجارية والثقافية بين أفريقية المدارية والعالم العربي قبل ظهور القوى الأوروبية في القرن السادس عشر وما بعده، كما كانت التجارة عبر الصحراء لها ما يكملها عبر الإقليم السوداني، كذلك كان للاتصالات الساحلية عبر المحيط الهندي ما يكملها في داخل القارة وهكذا كانت أفريقية جنوب الصحراء وشبه جزيرة العرب على اتصال وثيق قبل وصول البرتغاليين بما يزيد على ألف عام.

وقد تبع تطور التجارة ظهور الاستيطان الساحلي، ونظرا لأهمية هذه التجارة في حياة سكان سواحل شرق أفريقية ظهرت نقوش الداوات[19] على جدران المباني ولا سيما المساجد. وقد استمرت تجارة الداوات حتى خلال الفترة الاستعمارية الأوروبية (مثلما ظلت تجارة الصحراء) وعاصرت السفن التجارية بل وكان لها دفعة قوية في أثناء الحرب العالمية الثانية (1939- 1945) نتيجة تحول السفن الآلية للعمل في ميادين القتال قافلة العتاد والذخيرة والرجال[20].

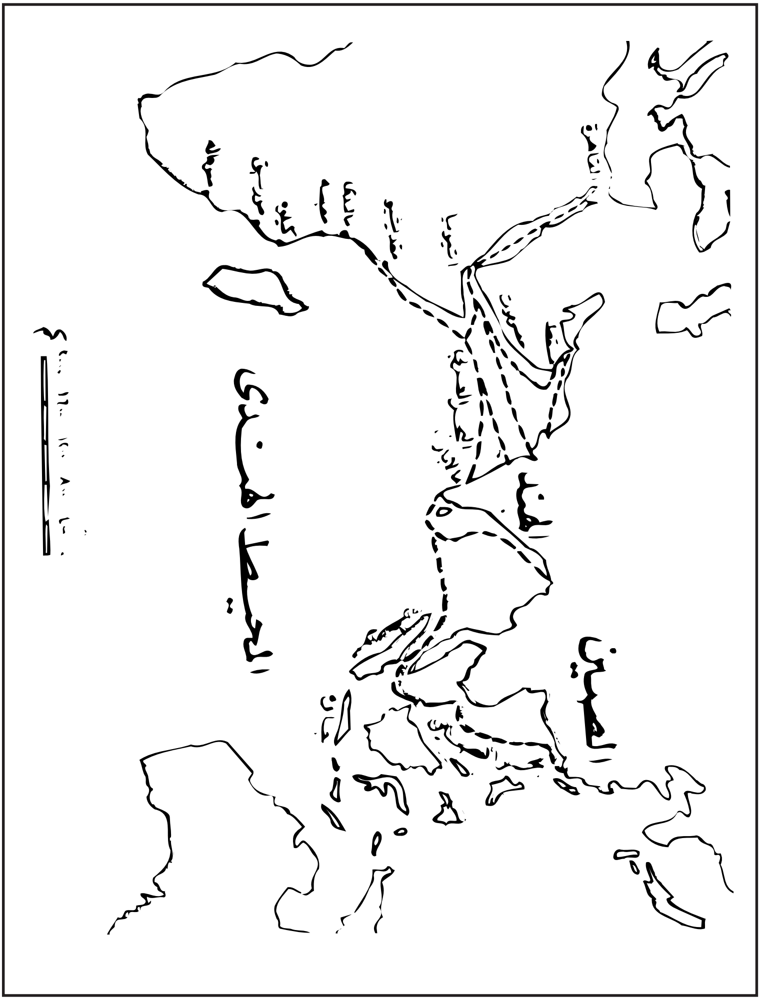
والرياح التي تؤثر في حركة الملاحة شتاء من نوفمبر إلى مارس هي الموسمية الشمالية ا الشرقية بينما تسود الموسمية الجنوبية والغربية ما بين مايو وسبتمبر، أما شهر أبريل وأكتوبر فهما شهرا انتقال ما بين ظروف الصيف والشتاء لا تأخذ الرياح فيها اتجاهات ثابتة يعول عليها في الملاحة.

من ثم كانت رحلة الشتاء من عمان والجنوب العربي ما بين نوفمبر وفبراير، والسفن التي تبحر قبل هذا التاريخ تتعرض لنسائم وتيارات شمالية ولكنها أقل قوة في دفعها للسفن، وتأخذ ما يتراوح من 30 , 40 يوما لتصل إلى زنجبار وممبسة. وتقل المدة اللازمة مع ثبات اتجاه الرياح الموسمية الشتوية وازدياد قوتها، ففي ديسمبر تأخذ الرحلة ما بين 20 , 30 يوما ثم تقل مرة أخرى إلى ما يتراوح بين 20 , 25 يوما للرحلة التي تبدأ في يناير، ومن دراسة حركة الداوات الأجنبية في مواني شرق أفريقيا يتضح أنها تبلغ الذروة في شهر مارس، أما العدد القليل الذي يرد هذه المواني من مايو إلى نوفمبر فهو في الغالب من الهند[21].

وتقوم الداوات برحلة الصيف أو رحلة الإياب ابتداء من أوائل أبريل، وتأخذ الرحلة ما بين 30 , 35 يوما قبل منتصف أبريل، و20 يوما إذا ما تحركت بين منتصف أبريل ومنتصف مايو، من ثم يكون رحيل السفن بطيئا حتى يحل شهر أغسطس وفي نهايته لا تكاد تجد داوا أجنبيا كان يزمع الرحيل وما زال ملقيا مراسيه في مواني شرق أفريقية.

ولقد ثبت الآن من دراسة جنسيات الداوات التي تقوم بالتجارة مع شرق أفريقية أن ثلثيها من المنطقة العربية (السعودية، اليمن، عمان، الإمارات العربية، الكويت والبحرين). أما معظم الباقي فهو من الهند والباكستان. وتتراوح أحجام السفن بين الكبيرة نحو 45 ألف طن، وبين المتوسطة وحمولتها 10 أطنان.

وفي هذا الإقليم حمل التجار العرب ومازالوا أعمدة المانجروف، أو كما يطلقون عليها بالسواحيلي البوريتي التي تستخدم على نطاق واسع في شبه جزيرة العرب وإيران في بناء أسقف المنازل وصواري السفن، ويشتد الطلب عليها بصفة خاصة لمقاومتها للقوارض وخاصة النمل، وكذلك لتحملها للظروف الجوية المختلفة[22] وفضلا عن المانجروف هناك ثمار نخيل الزيت والسكر والمنسوجات، كما تأتي الداوات إلى شرق أفريقية بالأسماك المجففة



- شكل رقم (17) طرق التجارة والاتصال بين العرب وأفريقية عبر المحيط الهندي بتصرف عن

Mc. Master, D.N. The Ocean Going Trade to East Africa East Afr., Geo. Review, No. 4, April 1966, P.14.

والتمر وبعض المنسوجات الهندية من عمان وحضرموت والفواكه المجففة والعطور والسجاجيد من إيران والتمر والفخار من العراق.

وكان لهذه الحركة والانتقال انتقال للثقافات بين الجانبين، وتشابه في المزروعات فالذرة الرفيعة هي الغلة الرئيسية في الجنوب العربي يليها القمح والشعير، وحتى الحياة الشجرية يتألف معظمها من نخيل الساجو والمانجو والباباظ والموز والجوافة فضلا عن القطن والطباق و بذرة الخروع، وأكواخ عسير المصنوعة من القش والطين وزراعتها المتنقلة التي لا تظهر في جزء آخر من شبه جزيرة العرب، كل هذا يجعلها أقرب إلى شرق أفريقية والسودان منها إلى شبه الجزيرة.

وحمل العرب ضمن ما حملوا العاج كسلعة رئيسية والذهب والتوابل وخاصة القرنفل والقرفة واللبان والبخور، والى الجنوب قليلا قامت عدة مواني تتاجر في الذهب والحديد والرقيق والعاج، وكان للعاج أهمية خاصة في شرق أفريقية سواء خلال العصور القديمة أو الوسطى[23] فقد كتب المسعودي في القرن العاشر الميلادي يقول: إن الأفيال وفيرة في بلاد الزنج، ومعظم هذا العاج كان يرسل إلى عمان، ومنها كان يصدر إلى الهند والصين، وكذلك اشتد الطلب عليه في أوروبا في مراكز حفر وتشكيل العاج في جنوب ألمانيا والأراضي المنخفضة في العصور الوسطى.

وهكذا على مدى قرون من التجارب والخبرة الطويلة طور العرب القادمون من جنوب الجزيرة والأفريقيون على الساحل ثقافة مميزة المعالم أخذت من كل من الشعبين بنصيب، وصهرت العنصرين، وكانت ثقافة ناضجة حين التقى بها الأوروبيون بعد خمسة عشر قرنا أو يزيد استوت فيها اللغة السواحيلية وسميت باسم الساحل، وهي ليست لغة عربية مؤفرقة، ولكنها أفريقية معربة، أصولها البعيدة من البانتو ولكنها اتخذت عبر العصور صفات عربية.

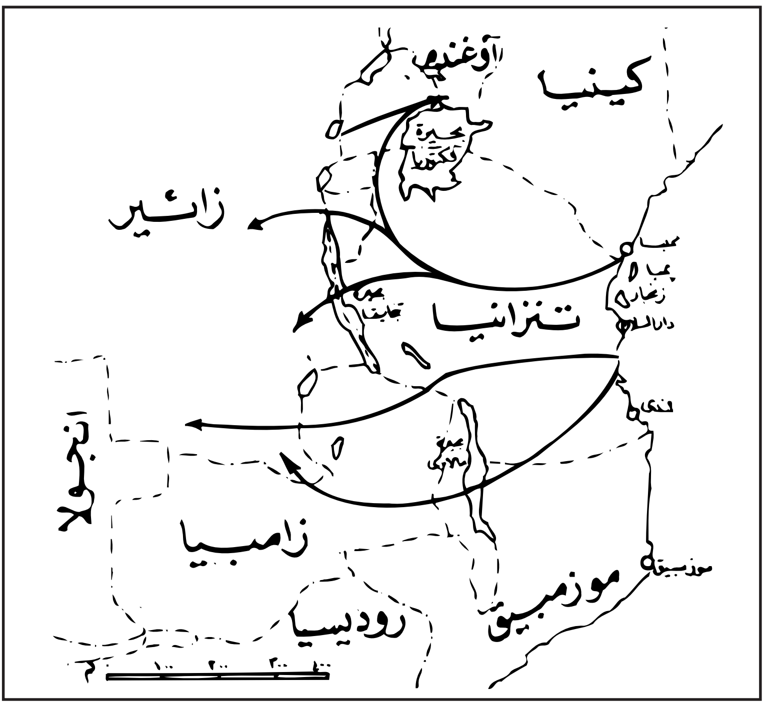
وأدخل العرب الفن المعماري العربي في هذه المناطق الساحلية حيث البناء بالآجر والأسمنت مستعملين الجير في التلوين، كما أدخلوا أعمال الأخشاب ونسيج القطن.

ونشأت على الساحل مواطن متعددة مثل بجمايو بنجاني، كلوا وسفاله، ودار السلام ومقديشو وممبسة ومركا وغيرها وكلها عليها الطابع

العربي(انظر شكل رقم 17). وكانت هذه بدايات للطريق نحو الداخل والتي تؤدي إلى البحيرات العظمى كفيكتوريا وتنجانيقا[24].

ونختم هذا بشهادة القس الإنجليزي سبنسر ترمنجهام: لم يكن العرب السواحيلية يشتركون في حملات الإغارة على القبائل لجلب الرقيق، بل كان اهتمامهم الرئيسي هو التجارة وجمع وتصدير العاج والرقيق سواء بواسطة عملائهم أو الرؤساء المحليين، هذا برغم أن تسليحهم كان يمكن أن يعطيهم سيادة على الطرق[25].

وعبر التجار العرب بحيرة تنجانيقا إلى الكنغو أي إلى وسط أفريقية، بل والى جنوب خط الاستواء، وأسسوا مراكزهم في الداخل في كاسونجو Kasongo ووصلوا شمالا إلى يامبويا Yamboia ولعل أسماء تيبوتيب Tippo Tip وموني موهارا Muni Mahera ومراكزهم التجارية التي أقاموها لشاهد ودليل على هذه الاتصالات البعيدة في الداخل.



شكل رقم (18) توغل العرب في شرق أفريقية

قضايا يتهم فيها الأوروبيون العرب

١ - قضية الرق

حاولت أوروبا منذ وضعت أقدامها في القارة إزاحة العناصر العربية ومحاربتها لأنها اعتبرتها عائقا أو حائلا دون الانفراد بأفريقية جنوب الصحراء، خاصة بعد ما وجدت أن هذه العناصر أقامت تجارة ذات رواج في الأقاليم التي وصلت إليها وأن علاقتها بالأفريقيين علاقة حسنة، علاقة تعاون وعمل مشترك، وبعد أن انفردت أوروبا بالقارة كانت الهيئات التبشيرية والإدارة الاستعمارية توحي دائما للأفريقيين بان العرب هم أرباب النخاسة، وهم تجار الرقيق الذين ساقوا أجدادهم بالسياط، ومما يؤسف له أن نجد بعض الأفريقيين يرددون هذا القول، وكأن تهمة إلصاق تجارة الرقيق بالعرب دون خلق الله جميعا حقيقة لا جدال فيها وكأنها لم تكن معروفة منذ العصور الأولى للبشرية.

عرفت الأمم القديمة في حضارتها أنواعا من الرق، كالأمة الإغريقية التي أنجبت سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم ممن تركوا أثرا فكريا ضخما في حياة الأجيال البشرية. فارسطو يوجب وجود الرق حين يقول «لا يزال في العالم أناس مخلوقون للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة، وحكمهم في ذلك حكم الآلات الحية التي تساق للعمل ولا تدري ما تساق إليه». أما أفلاطون فان جمهوريته لا يقوم بناؤها إن لم يكن فيها رقيق يقوم بالأعمال الشاقة، فيقول: «**كلكم أخوان في الوطنية ولكن الإله الذي خلقكم وضع في طينة بعضكم ذهبا يمكنهم من أن يكونوا حكاما، فهؤلاء هم الأكثر احتراما، ووضع في طينة المساعدين فضة، أما العبيد لأن يكونوا زراعا وعمالا، فقد وضع في طينتهم نحاسا وحديدا**».

والرومان الذين اشتهروا بالتقنين، كان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئا لا شخصا، وعلى ذلك فليس له-على عكس الحر-أسرة واتصاله بالنساء لا يعتبر قانونيا وإنما أمرا واقعا، وليس من حقه الامتلاك أو الاستدانة أو التسليف أو الوراثة، شأن الرقيق شأن الحيوانات والجمادات التي يمتلكها السيد. و يقال إن قيصر روما عندما فتح بلاد الغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق، ولذلك هبط سعر الرقيق حتى صار الواحد منهم لا يساوي اكثر من عشرة قروش بالعملة الحالية، وتطور امتلاك

الرقيق عند الرومان فكانوا يتركون للعمل في الأرض، ثم أخذوا يهبونهم الأرض و يورثونها لأبنائهم، ثم حرموا بيع الرقيق إلا بالأرض، والأمثلة عديدة ولسنا هنا في حاجة إلى القول بأن الرق عرفه الفرس والصليبيون، واليهود والنصارى والعرب أيضا.

فالرق كان روح كل العصور قبل تحريمه، وعرفته القبائل الأفريقية فيما بينها، وكان أساسه أسرى الحرب. ولكن الدول الأوروبية التي تتهم العرب بهذا قامت بهذه التجارة بدءا من البرتغال وأسبانيا في الجنوب إلى فرنسا. وهولندا، و بلجيكا، و بريطانيا، ثم تعدتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل. فإذا اتفقنا على أن كلا من العرب والأوروبيين عملوا في تجارة الرقيق يصبح الجدل عندئذ في كيفية معاملة الرقيق، وفي مسؤولية من قام بنزح الأعداد الضخمة من القارة أو استنزافها.

العرب: إذا بدأنا بالعرب فسنجد أن الرقيق عند العرب لم يقتصر على الرقيق الأفريقي، بل كان هناك الرقيق الأبيض الذي كان يأتيهم بواسطة التجار الأوروبيين والآسيويين مما وراء القوقاز، وكان يطلق عليهم أحيانا الشراكسة، أي كان هناك الرقيق الأبيض والرقيق الأسود، وفي داخل فئة الرقيق الأسود كان هناك الأحباش أيضا. أما عن تقديرات الرقيق الذي كانت تقوم به العناصر العربية ومعظمه في شرق أفريقية، إذ لم يشترك العرب في تجارة غرب أفريقية على الإطلاق. فيقدر المصدر من شرق أفريقية في مطلع القرن التاسع عشر بنحو 15 ألف سنويا، كانت تخرج من زنجبار المركز الرئيسي لهذه التجارة في شرق القارة، ثم ارتفعت إلى نحو 45 ألف سنويا في العقد الثالث من ذلك القرن[26]. فإذا كانت هذه هي تقديرات الأعداد من شرق أفريقية حيث وسيلة النقل سهلة ورخيصة وهي البحر في ظل نظام الرياح الموسمية الذي سبق أن ذكرناه والذي لا يحتاج إلى تجديف ومجهودات عضلية كبيرة، فإننا ننتظر أن أعداد من كانوا يصلون بطريق البر عبر الصحراء الكبرى إلى مصر وليبيا والمغرب العربي أقل من هذا بكثير. ولا تفسر هذه الأعداد القليلة نسبيا إلا على ضوء نوع الطلب، فإنه لم يكن يقدر على شراء الرقيق إلا السلاطين والأمراء والأثرياء، من ثم فهؤلاء فئة محدودة، وأما فيما يختص باستخدام الرقيق فمنهم من كان يدخل الجيش حيث تكونت «فرق الجند السودانية» أي فرقة من فرق

الجيش، ومنهم الحرس الخاص بالسلطان، ومنهم من استخدم في الفلاحة، ومنهم من استخدم في حراسة حريم السلاطين والأمراء وكان الأطفال من الرقيق في بعض الأحيان يستخدمون كرفقاء لأولاد الأمراء. أما الرقيق الأبيض من النساء فكن يتخذن كعشيقات و يقمن بإعداد القهوة وتحضير «النرجيلة» وأحيانا طهي بعض الأصناف الخاصة، وفي معظم الأحوال كان ينتهي الأمر بهن إلى العتق نتيجة الزواج من الأسياد أو أبناء الأسياد، وهذا ليس رأينا ولكنه رأي الباحث اليهودي جبرائيل باير[27]. و يذكر دافيدسن عن «حسن المعاملة» أن العرب تركوا أثرا حقيقيا على وجه تلكم الأرض، أزالوا فدادين من الغاب وزرعوا فوقها محاصيل متنوعة. ولم تكن تجارة العرب للرقيق، بأبشع من تجارة الأوروبيين، ولعل من محامد العرب في هذا السبيل أن العلاقة بينهم وبين رقيقهم كانت إنسانية إلى حد بعيد. كتب ديوارت بربروسا عام 1518 عن تجارة الرقيق آنذاك: حال الرقيق في ممبسة تدل على ما لأسيادهم العرب هناك من إنسانية، إذ يعجز الواحد أحيانا أن يميزهم عن أسيادهم، إذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلدوهم في اللباس وفي غيره من شئون العيش[28].

ذكرنا هذا ولم نرد أن ندخل في مجالات دينية خاصة بعلاقة الإسلام بالرق، فلم نذكر مثلا أنه ومع المنافذ التي تؤدي إلى التحرير والعتق، كان يأتي السيد من جاريته بولد ففي هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته، وتصير الحرية لأمه بعد وفاة سيدها، ومنها أنه إذا جرى على لسان السيد في أي صورة ما يدل صراحة على عتق عبد سواء أكان قاصدا معني اللفظ أو لم يكن قاصدا له، وسواء أكان في حالة عادية أم فاقد الرشد بفعل الخمر أو غيرها من المحرمات فإن عتق العبد يعتبر نافذاً وكذلك إذا اتفق العبد مع سيده على أن يعتقه نظير مبلغ من المال. هذا كما عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الأرقاء، فجعله تكفيرا للقتل الناشئ عن خطأ وما في حكمه قال تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة**﴾.

الأوربيون: ونود أن نذكر هنا أن بعض الأوربيين اشتروا رقيقا من الساحل الغربي في بدء اتصالاتهم بذلك الساحل في القرن الخامس عشر وقد

استغل بعض البرتغاليين رقيقا من الأفريقيين في العمل في مزارع قصب السكر في بعض الجزر في ساحل غانا، كما أن بعضا منهم صدر إلى أمريكا الجنوبية للاشتراك في تعدين الفضة عام 1520 م، رغم ذلك فالطلب على الرقيق في العمل لم يكن شديدا في تلك الفترة، وكانت صادرات الرقيق غير ذات أهمية كبيرة. وكان التوسع الكبير في تجارة الأطلنطي في الرقيق في منتصف القرن السابع عشر رد فعل للتوسع في مزارع قصب السكر في جزر الهند الغربية. وقد أحدث هذا التوسع ثورة في الاقتصاد الكاريبي، ذلك أنه حتى منتصف القرن السادس عشر كان صادر هذه الجزر الرئيسي التبغ، الذي كان يزرع بواسطة بعض المستوطنين الأوربيين، ولما كان قصب السكر من محاصيل المزارع الواسعة فهو يحتاج إلى الأرض ورأس المال والعمل على نطاق كبير، وكانت الأرض متوفرة، وتوفر رأس المال من أوروبا، واشتركت أفريقية بعنصر العمل لا لأن أفريقية كانت مكتظة بالسكان، ولكن لأنه لم يكن هناك مورد اكثر رخصا من تلك القارة والى جانب الرخص النسبي، وسهولة الحصول على الأفريقيين، فقد ثبت أن الزنوج الأفريقيين اكثر تعميرا نسبيا في جزر الهند الغربية، و يرجع هذا لمناعتهم ضد أمراض المناطق الحارة كالملاريا، والحمى الصفراء، فضلا عن قدرتهم على العمل في المناخ الحار الرطب اكثر من الأوروبيين.

وكان القرن الثامن عشر هو العصر الذهبي بالنسبة لجزر الهند الغربية، حينما أصبحت المصدر الرئيسي للسكر الوارد لأوروبا، وكانت المراكز الرئيسية في جمايكا (بريطانية) وسان دومنجو (فرنسية).

فإذا كان عدد الرقيق الذين جمعوا للعمل في أسبانيا والبرتغال قبل القرن الخامس عشر بضعة آلاف، فقد ارتفعت الأرقام في القرن السادس عشر، وبلغت مداها في القرن الثامن عشر إلى أن حرمت تجارته في القرن التاسع عشر.

وطبقا لتقديرات شريدان Sheridan فان ثلثي الرقيق الذي وصل إلى البحر الكاريبي عمل في مزارع قصب السكر وارتفعت النسبة إلى 84٪ في جمايكا (000 ,160-000 ,190) عام . 1770 ولئن كانت هناك محاصيل أخرى كالكاكاو والبن والتبغ فان قصب السكر كان أكثرها أهمية[29] .

وقد نشط هذه الزراعة زيادة الطلب على السكر من جانب الأوروبيين،

كنتيجة لزيادة استهلاك الشاي والبن، وكنتيجة لتشجيع ودعم الحكومات الاستعمارية الأوروبية لمنتجي السكر في المستعمرات الخاصة بها، فعلى سبيل المثال وضعت الحكومة البريطانية تعرفة جمركية عالية على السكر الوارد إلى بريطانيا من غير مستعمراتها. وكانت الحكومة الفرنسية تعطي منحا لسفن الرقيق المتجهة إلى أفريقية من فرنسا، ثم تدفع مكافأة أخرى على كل رأس يصل إلى مستعمراتها في جزر الهند الغربية، وهذا تفسير لحقيقة أنه ما أن وافى عام 1789 م حتى كان ثلثا صادرات فرنسا البحرية تتجه إلى مستعمراتها في جزر الهند الغربية، كما أن السكر كان أهم سلعة تستقبلها فرنسا من وراء البحار. وكذلك كان السكر سلعة رئيسية في الواردات البريطانية في القرن الثامن عشر. بل من الناحية التجارية كان البحر الكاريبي أهم تجاريا لبريطانيا من آسيا[30].

وأما عن حجم المفقود السكاني من أفريقية نتيجة استنزاف الرقيق فهو تقديري، ويقدر المصدر من غرب أفريقية من تجارة الرقيق الأوروبية في أربعة القرون المذكورة، بين 30 , 40 مليون نسمة،[31] وهؤلاء يشملون من وصلوا أحياء إلى العالم الجديد، فضلا عن الذين هلكوا بسبب صعوبات النقل والأمراض، والذين قتلوا في أفريقية ذاتها نتيجة الاغارات وعمليات القنص البشري، فإذا كان عدد سكان أفريقية يقدر بنحو 20 مليون نسمة حين ذاك، فمعنى هذا أن المفقود يقدر بنحو 5 ر٪ سنويا من جراء هذه التجارة. وكانت أهمية قوى غرب أوروبا في تجارة الرقيق الأفريقية انعكاسا لتغير الأوضاع السياسية في القارة. وتبين الأرقام التالية أهمية كل من هذه القوى في فترة رواج هذه التجارة.

صادرات الرقيق من غرب أفريقية لثلاث القوى الكبرى (1701- 1810)[32]

بريطانيا	**2,009,700**	**رأس**
فرنسا	**613,100**	**رأس**
البرتغال	**611,000**	**رأس**

ومن الصعب معرفة نصيب كل جزء من أجزاء أفريقية في هذه التجارة على وجه الدقة ولكن ربما خرج ثلثا الرقيق من ساحل الذهب وأنجولا بالتساوي، وإن كانت هناك مناطق ذاع صيتها في توريد الرقيق مثل الكنغو في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ورغم تفاوت عدد الرقيق من

قرن إلى قرن فقد نقلت كل من بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات، ونقلت هولندا نحو 18٪ منها وفرنسا نحو 12٪، بينما كان نصيب الولايات المتحدة الأمريكية 5٪ وكانت السيطرة للبرتغال على تجارة القرنين الخامس والسادس عشر، ولهولندا خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر، ولبريطانيا في الفترة بين 1672 , 1808 بعد ذلك كانت السيادة لسفن الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وأسبانيا وفرنسا.[(33)]

وفي الحق لم تكن هناك سلعة مربحة في غرب أفريقية طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلما كانت سلعة الرقيق، فلا الذهب ولا العاج ولا البهارات استطاعت أرباحها أن تلحق بأرباح الرقيق. وكانت شدة الطلب من عوامل رفع سعر الرأس من الرقيق، بسبب المنافسة الحامية بين التجار الأوربيين من بريطانيين وفرنسيين وهولنديين وغيرهم. فقبل نهاية القرن السابع عشر كان القباطنة يدفعون ما قيمته خمسة جنيهات للرأس ارتفعت إلى 17 جنيها عام 1712، ومما هو جدير بالذكر أن القوى الأوروبية كانت تمثلها في غرب أفريقية الشركات التجارية بدلا من الجيوش والإدارة، ذلك قبل القرن التاسع عشر، وكانت هذه الشركات تحصل على احتكارات في أقاليم معينة نظير قيامها ببعض التزامات للحكومات، فكانت شركة الهند الغربية الهولندية تمثل هولندا التي كان لها مصالح في البحر الكاريبي فضلا عن سواحل غرب أفريقية خلال القرن السابع عشر، وكانت شركة الهند الغربية أهم الشركات الفرنسية أسسها كولبير بناء على تعليمات ريشيليو(1664) فضلا عن شركة السنغال (1673) وشركة غينيا (1684) وكانت الشركة الملكية الأفريقية (1672) هي أهم الشركات الإنجليزية. ومما هو جدير بالذكر أنه في بعض الأحيان كان يتم تعاون تام في بعض أنواع التجارة بين هذه الشركات نتيجة حاجة هذا الفرع إلى رأس مال ضخم واستثمارات كبيرة لإنشاء الحصون والمخازن وتنظيم التجارة لمسافات بعيدة عن الساحل. وقد رحبت الشركات بالإشراف الحكومي كوسيلة لجذب رؤوس الأموال، ولتستغل الشركات نفوذ وسطوة حكوماتها، وفي نفس الوقت لتصبح هذه الشركات وسيلة وأداة لتنفيذ سياستها.[(34)] مثل هذا التنظيم في الاستنزاف لم يكن معروفا لدى العرب في أفريقية فلم تكن هناك شركات وراءها حكومات.

ما سبق كان في عصر إباحة الرق كتجارة مشروعة، فهل انتهى بصدور قانون تحريم الرق عام1807؟ وهل كفت أوروبا عن الرق والاسترقاق في القرن العشرين، بل وفي النصف الثاني من القرن العشرين؟ لا كان هناك رق بفضل الأوروبيين والأوروبيين وحدهم في القرن العشرين، فإذا أراد أصحاب الأعمال في أنجولا (قبل الاستقلال) الحصول على اليد العاملة تقدموا بطلبهم إلى الحكومة الاستعمارية، وهذه الأخيرة تعين لهم العمال طبقا لحساب تقديري لعدد العمال اللائقين للتجنيد، ثم ترسل الطلبات بعد الموافقة عليها إلى المديرين المحليين في طول البلاد وعرضها، ويجند الزعماء والرؤساء المحليون العدد المطلوب، وكان الرؤساء أو الزعماء الذين يفشلون في إحضار العدد المطلوب يجلدون بلا شفقة. هذا وعلى رجال السخرة أن يطعموا أنفسهم، وكثيرا ما يتعين عليهم أن يحضروا أدواتهم معهم، ولما كان كثير من الرجال قائمين بأعمال السخرة في أمكنة أخرى، فكثيرا ما يستدعي الرئيس أو الزعيم الذي تقع عليه مسؤولية شق الطريق مثلا النساء والأطفال الصغار للعمل، ولهذا كان المرء يرى النساء والأطفال على ظهورهن وغيرهن من الحوامل والفتيات وكلهن يحفرن بأدوات بدائية، ويحملن الأتربة على رؤوسهن.

وإذا رفض أحد عمال السخرة العمل يسجن ويجلد، وتجري عملية الجلد باستخدام سوط جلدي ولكن هناك (البالماتوريا) أيضا، والبالمتوريا تشبه القادوم الخشبي، بيد طولها عشر بوصات، وبرأس أسطواني سمكه بوصة ونصف، وعرضه ثلاث بوصات، وعلى كل من جانبي الاسطوانة خمسة ثقوب على شكل الخمسة.

ويضرب الضحية على راحة يديه ونظرا لقوة الضربة فان الثقوب تمتص لحم راحة اليد ثم تفلته سريعا، مما يسبب للمضروب ألما قاسيا، وهكذا حتى يتم العدد المطلوب من الضربات. ويطلق الأفريقيون كلمة (الألم) على البالماتوريا. و يتحمل الأفريقي القوي أربع أو خمس ضربات وهو ملتزم الصمت، ولكنه بعدئذ لا يستطيع أن يحبس صراخه.[35]

وعندما نجح ليوبولد الثاني في أن يضع نفسه سيدا على الكنغو (الحرة) وقع هذا البلد تحت أسوأ استغلال للبشر في الفترة من1908/1885 فقد استغلت موارده من المطاط والعاج، واقتضى هذا معاملة الأفريقيين بمنتهى

القسوة، حين كان الجنود يطلقون النار على العامل الذي لا يقوم بجمع حصته أو يقطعون أعضاءه. وكان الضباط البلجيكيون يطالبون جنودهم بان يثبتوا بأنهم لم يبعثروا ذخيرتهم هباء، من ثم كان الجندي مجبرا على إحضار عضو من جسم الإنسان في مقابل كل رصاصة أطلقت، حتى قدر أن حكم ليوبولد للكنغو فترة الثلاث والعشرين سنة أخذ معه ما يتراوح بين خمسة وثمانية ملايين من أرواح البشر[36] وأدت الاحتجاجات العالمية إلى أن يتنازل ليوبولد عن إدارته الخاصة عام 1908 إلى الحكومة، لتصبح مستعمرة بلجيكية، وإذا كانت أعمال القتل قد خفت، فقد استمر الإجبار على العمل كما هو عليه حتى قيض له الله الاستقلال.

ولا تقل عبودية البشر في ناميبيا اليوم عنها في أنجولا وساوتومي أمس. فإذا جلب الرؤساء العمال بنفس الطريقة التي كانت متبعة في أنجولا، فليس للعمال أن يعرفوا إلى أين هم ذاهبون، بل تعلق في رقبة كل منهم بطاقة عليها اسمه واسم سيده الذي يذهب للعمل عنده ومكانه، ويرسل العمال كالقطيع إلى محطة السكك الحديدية حيث يرحلون وفي محطة الوصول يقرأ ناظر المحطة البطاقات المعلقة في رقابهم، ويتصل بمركز البوليس لاستلامهم، وهذا بالتالي يتصل بأسيادهم لاستلامهم، وفي كثير من الأحيان يوصف لهم الطريق الذي يسيرون فيه على الأقدام لمسافات قد نزيد على الثلاثين ميلا ليصلوا إلى أسيادهم البيض.[37]

أما زالت تهمة الرقيق والاسترقاق لاصقة بالعرب بعد كل الذي ذكرناه عن الباحثين الأجانب لا العرب ؟ وهل ما زال الأوروبيون أهل الإنسانية والرحمة ومن الاسترقاق براء؟

ولا يسعنا في النهاية إلا الاستشهاد بالباحث الإنجليزي دافيدسن حينما يكتب عن تجارة الرقيق التي قام بها الأوروبيون فيقول: لم تكن تجارة العرب للزنوج إلا نكبة خفيفة على أطراف القارة وفي داخلها، ولكنها اتخذت معنى جديدا حين شرعت السفن الأوروبية تنقل آلاف الشباب من الداخل والساحل، وتدمي الحياة في القارة والنخاسة أصبحت على يد الأوروبيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح أوروبا، فقضى على ما يقرب من ثلث أهلها، بل أسوأ، لان النتائج الاجتماعية كانت أشد قسوة من الموت، فالوباء الذي تعرض له الأوروبيون انقضى، وانقضت معه أثاره، ولكن

القهر الذي تعرض له الأفريقيون والذي عاشوه، لم تكن لتنقضي أثاره، ولم يجتح الموت الأسود أوروبا إلا عددا من السنوات، بينما استمرت تجارة الرقيق تحصد السكان حصدا وتهدد معنويات من يبقى اكثر من أربعة قرون.[38]

وإذا تركنا بازل دافيدسن إلى غيره من الباحثين المعتدلين فسنجد أن الأستاذين فيج وأوليفر Fage, Oliver وهما من عمد الدراسات التاريخية الأفريقية في الجامعات البريطانية يذكر أن فيما يختص بالعرب في كتابهما «موجز تاريخ أفريقية» ما يلي:

كان من نتائج الفتح العربي لإفريقية وما تبع ذلك من انتشار الإسلام في الثلث الشمالي من القارة أن دخل جزء كبير من هذه القارة في صميم التاريخ أكثر من أي فترة تاريخية أخرى، وفي نفس الوقت تحول البحر المتوسط إلى منطقة التقاء شعوب قارات أفريقية واسيا وأوروبا، تلتقي عندها أراء أبناء هذه القارات وأفكارهم.

ولم تخسر أفريقية نتيجة لهذا كله، بل ما كسبته أفريقية.من حضارة الإسلام يفوق كثيرا ما كان يمكنها أن تكسبه من اتصالها بأوروبا والتي كانت تمر في تلك الفترات فيما يمكن تسميته بالعصور المظلمة التي لم يكن هناك ما يضيء فيها إلا شعاع الديانة المسيحية.

وهذا إعلان عن أسواق النخاسة في العالم الجديد

منقول عن صورة بالزنكوغراف لما كان ينشر في صحف العالم الجديد لأسواق النخاسة هناك وقد وردت في

Basil Davidson: Africa in History, P. 188.

Negroes for sale.

A Gargo of very fine stout men and women in good order and fit for immediate service, just imported from the windward coast of Africa, in the ship two brothers.-Conditions are one half cash or produce, the other half payable the first of January next, given 10 bond and Security if required. The Sale to be opened at. 0'Clock each day, in Mr. Bourdeaux's Yard at No. 48. on the Bay.

May 19, 1748 John Mitchell

وهذا إعلان آخر

.....Thirty Seafond Negroes

To be sold for Credit. at Private sale

Amongst which is a carpenter, none of whom are known to be dishonest. Also to be sold for Cash, a regular bred young Negro Man-Cook, born in this country, which served several years under an exceeding, good French cook abroad. and his wife a middle aged woman (both very honest) and their two children. Likewise. a. young man a carpenter.

For terms apply to the Printer

2- قضية الطاقة

أصدرت اللجنة الاقتصادية الأفريقية تقريرها عن المسح الاقتصادي والاجتماعي لأفريقية عام 1975، وفيه تصف الحال بأنه لا يبعث على التفاؤل بالنسبة لست وثلاثين دولة أفريقية غير منتجة للبترول بسبب ارتفاع أسعار البترول منذ عام 1972 حتى عام 1975 بنحو خمس مرات.[39].

وفي الحق لقد تأثرت كثير من الدول الأفريقية منذ البداية من الإجراءات البترولية التي اتخذتها الدول العربية ومنظمة الأوبك (Opec) عقب حرب اكتوبر1973، وكرد فعل للدعم الأمريكي الذي لا يتوقف لإسرائيل وسنعرض هنا لمدى هذا التأثر، ثم فيما بعد إلى مسؤولية العرب في هذا المجال.

تطورت خشية الدول الأفريقية من آثار حرب أكتوبر أول الأمر عندما بدأت سياسة الحظر البترولي في نوفبر1973، وكانت النية أول الأمر هي حظره على الدول المعادية، ولكن أدركت الدول العربية أن حظر البترول ضد بعض الدول دون الأخرى لن تكون له فاعلية كاملة نظرا لإمكان الدول غير المحظور عليها إمداد المحظور عليها بما تحتاجه، ولذلك كانت سياسة تخفيض الإنتاج بالنسبة للجميع، وفي هذه الفترة أحست جميع الدول الأفريقية ما عدا الدول المنتجة منها بخطر النقص البترولي، واشترك في هذا الخوف الدول التي لها معامل تكرير وتلك التي ليس لديها معامل للتكرير لان كليهما يعتمد على البترول الوارد من الخارج خاما كان أو مكررا.

١ - موازين المدفوعات:

غير أن الوضع قد تغير بعد سيولة البترول في السوق الدولية، وأصبحت الشكوى من ارتفاع سعر البترول وأثره على الاقتصاديات الأفريقية. أو بمعنى اصح أثره على ست وثلاثين دولة أفريقية غير منتجة، فقد قفزت فاتورة واردات البترول لهذه الدول إلى 2062 مليون دولار عام 1975 بعد أن كانت 516 مليون دولار عام 1972 وترجع معظم الزيادة إلى ارتفاع أسعار البترول المستورد، مما كان له أثره على عجز الميزان التجاري في هذه الدول الأفريقية عام 1975 بمقدار 3738 مليون دولار، بعد أن كان حوالي 700 مليون دولار عام 1972 وتزيد حدة هذا العجز مع ارتفاع سعر البترول في يناير 77 وديسمبر 78 وإذا ضربنا مثلا بغانا، وهى تعد من الدول المتقدمة نسبيا في غرب أفريقية، وجدنا أنه خلال عامي 1972/ 1973 كان هناك ارتفاع مشجع لأسعار صادراتها الرئيسية من الكاكاو والأخشاب، مما أدى إلى تحسين واضح في ميزان مدفوعاتها، ولكن الموقف تغير جذريا في عام 1975 بصورة درامية كما صرح مستر (T.E. Anin) رئيس مجلس إدارة البنك التجاري هناك، مما أدى إلى اختلال في موازين مدفوعاتها، بل وأثر على مشروعات التنمية، خاصة وقد صادف في ذلك العام هبوط الطلب على الأخشاب من جانب غرب أوروبا، وكان يمكن للموقف أن يكون اكثر تدهورا لولا زيادة إنتاج غانا من الكاكاو (صادرها الرئيسي) فإذا كان هذا حال دولة غانا فكيف حال الدول الأخرى، مثل داهومي أو موزمبيق أو الفولتا العليا ؟.

تطور واردات أفريقية من البترول[40]
(بمليون الدولار الأمريكي)

الدولة	1967	1969	1971	1973	1975
أثيوبيا	12 , 42	11 , 08	14 , 97	29 , 62	69 , 64
كينيا	35 , 60	35 , 83	53 , 83	61 , 46	144 , 60
أوغندا	1 , 50	8 , 56	2 , 00	6 , 99	16 , 44
موريشس	5 , 25	5 , 60	4 , 79	7 , 53	17 , 72
ساحل العاج	14 , 34	17 , 8	19 , 29	14 , 54	81 , 28
مالي	2 , 59	3 , 41	4 , 89	10 , 13	23 , 84

ليبريا	8 , 02	4 , 60	12 , 27	34 , 87	82 , 04
الغرب	23 , 37	30 , 56	42 , 73	85 , 97	202 , 28
مصر	48 , 65	44 , 51	75	165 , 85	390 , 24
السودان	8 , 35	35 , 30	25 , 61	44 , 08	103 , 72
زائير	14 , 12	21 , 30	25 , 39	47 , 21	111 , 08
كاميرون	ـ	11 , 62	15 , 08	29 , 22	68 , 76

2- فقر أفريقية في موارد الطاقة الأخرى:

ويزيد الأمر حدة أن معظم الدول الأفريقية أصبحت تعتمد على البترول كمورد رئيسي من موارد الطاقة، فغانا تعتمد عليه بنسبة 80٪ بينما تعتمد عليه تنزانيا بنسبة95٪، وتفسير ذلك أن القارة فقيرة في التكوينات الفحمية الاقتصادية، فالحقل الوحيد ذو الأهمية في الإنتاج يقع في جنوب أفريقية وهو العامل الرئيسي في تنمية كثير من أوجه التعدين هناك، و يليه في الأهمية فحم روديسيا، أما الحقول الأخرى فهي قليلة الأهمية، وتتبعثر في نيجيريا والمغرب والجزائر وموزمبيق وزائير، وإنتاج كل منها لا يتعدى بضعة مئات من آلاف الأطنان ومن أنواع رديئة، وبالتالي لا يوجد الفحم الكوك الصالح للصناعات الثقيلة إلا في جنوب أفريقيا وروديسيا [41].

ورغم غنى القارة بالإمكانات الكهربائية فان المناطق التي تزيد فيها هذه الإمكانات بعيدة غالبا عن مناطق التصنيع والسكان، إذ أن الإمكانات تزيد في أفريقية المدارية (Tropical Africa) بينما مناطق الاستهلاك الرئيسي الآن في أطراف القارة، ومن المعلوم أن تكاليف الكهرباء تزداد كلما زادت خطوطها طولا، والحد الاقتصادي لمد هذه الخطوط في الوقت الحاضر هو 500 ميل، فإذا لم يظهر ما يقلل من هذه التكاليف، فمعنى هذا أنه في ظل الظروف الحالية ستكون الاستفادة من كهرباء أفريقية المدارية ضئيلة.

3- سعي الدول الأفريقية نحو التنمية:-

وإذا أضفنا إلى ما سبق أن الدول الأفريقية تسعى إلى الزيادة في التنمية منذ حصلت على استقلالها، وإنها سئمت الاعتماد على صادرات المواد الخام ونصف المصنوعة في احسن الأحوال وعانت الكثير من هذا

التخصص الشديد، لذلك كان التصنيع هو هدف كل منها، فذا كنا نستطيع أن نعرف النمو بأنه زيادة الإنتاجية العمالية عن طريق استغلال الطاقة والتكنولوجيا فان احتياجات الدول الأفريقية للطاقة لا شك سيستمر في ازدياد وخاصة إذا كانت الصناعة هي أساس التنمية. كما لوحظ أيضا في أفريقية زيادة نمو المدن على حساب الريف، فعلى سبيل المثال زاد سكان مدينة الجزائر إلى ثلاثة أمثالهم في عقد واحد (300 ألف عام 1959- 900 ألف عام 1970) وزاد سكان القاهرة من (4 ملايين نسمة عام 1960 إلى 8 ملايين نسمة عام 1977) وزيادة نسبة الحضرية لاشك يتبعها زيادة في الطلب على البترول.

لماذا عجزت الدول الأفريقية عن مواجهة مشكلة الأسعار؟

1 - طبيعة الاقتصاد الأفريقي:

وكان يمكن للدول الأفريقية أن تجابه مشكلة زيادة الأسعار وتتحملها كما فعلت الدول المتقدمة حين زادت من أسعار سلعها، ولكن طبيعة الاقتصاد الأفريقي والصادرات الأفريقية لا تساعد على هذا، فهو اقتصاد أولي يعتمد على صادرات الخامات زراعية أو معدنية، فالخامات تؤلف 92٪ من مجموع قيمة الصادرات، بينما يقل نصيب المنتجات المصنوعة وشبه المصنوعة عن 8٪. وكان لهذا مثالبه وأهمها التبعية الاقتصادية وإعاقة النمو الاقتصادي. وقد دلت الشواهد على انخفاض أسعار الخامات الزراعية بعد أن شهدت فترة ازدهار في أواخر الخمسينات وكان هذا بصفة خاصة في بعض السلع الرئيسية الخاصة بالدول الأفريقية منفردة، فبعض الغلات شهدت كوارث في انخفاض الأسعار بلغت نحو 50٪ من أسعارها في أواخر الخمسينات، كالكاكاو والبن والقطن، وكلها محاصيل صادرات رئيسية لبعض الأقطار الأفريقية، وقدر في النهاية أن مجموع الخسائر من الأرصدة الأجنبية الذي خسرته أفريقية نتيجة انخفاض الأسعار وبخاصة في المحاصيل الزراعية يزيد على جميع الأرصدة الأجنبية التي استثمرت في القارة، سواء عن طريق القروض، أو الهبات التي حصلت عليها القارة في العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الثانية.

و يلخص هذا الموقف مستر (Phillip Afidou) السكرتير الدائم لوزارة

التعدين والقوى ورئيس الاتحاد الوطني لبترول نيجيريا فيما يلي: إن الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية هو تضخم متزايد في أسعار السلع المصنوعة والتي تصدرها الدول المتقدمة مقابل ركود أو هبوط في أسعار الخامات التي تصدرها دول العالم الثالث بعامة والدول الأفريقية بخاصة [42].

وأشار إلى نفس الموقف وزير مالية تنزانيا في تصريح له في باريس في أبريل 1975 بأن أسعار الواردات الحيوية لتنزانيا قد ارتفعت بنسبة تتراوح بين 20٪، 50٪ بينما حجم دخلنا من الصادرات أما ظل كما هو أو عانى من الهبوط، وارتفعت فاتورة البترول وحدها في تنزانيا من 35 مليون دولار إلى 100 مليون دولار في السنة المالية الماضية.[43]

2- المجاعة ومشكلة الغذاء في أفريقية:

ورغم إن مشكلة الغذاء سابقة لارتفاع أسعار البترول، لكنها تفجرت قي الآونة الأخيرة بسبب حالة الجفاف الشديد التي أصابت كثيرا من الأقطار ولسوء الحظ كانت هذه الأقطار من الدول الفقيرة في نطاق امتد في أفريقية من موريتانيا إلى النيجر ومالي والفولتا العليا وشمالي نيجيريا وشمال ووسط أثيوبيا (يطلق عليه إقليم الساحل) وفي مثل هذه الجهات وخاصة في أفريقية يعتمد السكان على الرعي والزراعة، وكلاهما يعتمد على ما تجود به السماء من الغيث وزاد من حدة الأمر إن دول نطاق الجفاف هذا باستثناء موريتانيا لا تستغل بها ثروة معدنية تذكر لا عجب أن تنظر هذه الشعوب إلى السماء تستجدي خيرها، وتدعو الله إلا يسود الجفاف عاما آخر، فقد استمرت هذه الأحوال الجافة ما يقرب من خمس سنوات، استنفد السكان فيها محاصيلهم من الحبوب، وأصبح ما يقرب من 25 مليونا في أفريقية يعيشون في المجاعة فرقت أجسامهم وسقط الآلاف منهم صرعى الجوع، واضطروا إلى أكل البذور، ومواليد الأبقار الصغيرة، واصبحوا عاجزين عن زراعة محاصيل جديدة.

وانتشرت بينهم الأمراض كالتيفود والدوسنتاريا والحصبة والالتهاب المعوي، وأصبحت الكوليرا وحدها تهدد 15 ألفا من السكان في عاصمة النيجر وحدها، وازدادت خطورة المجاعة في الدول الداخلية البعيدة عن البحر كتشاد والنيجر وفولتا العليا وجمهورية أفريقية الوسطى وهذه أقلها

استقبالا للمعونات لسوء وسائل النقل الذي يتمثل في طرق سيئة وانعدام للخطوط الحديدية أحيانا، فيصبح لا محالة من استخدام الطائرات لإسقاط المواد الغذائية في المدن ومراكز الاستقرار بينما هناك قبائل بعيدة مشتتة لا تصل إليها، بل وتعدت الأزمة سكان البوادي إلى الحواضر، لأن سكان الصحراء والريف القريبين من المدن هجروهما ورحلوا إلى المدن بحثا عن الغذاء وأصبحوا يشكلون بطالة ظاهرة، وأصبحت هذه البطالة من الأمور المألوفة الآن في أديس أبابا وأسمرة ومصوع ونيامي وزندر وباماكو.

وفقدت هذه الدول أيضا جل ثروتها الحيوانية والتي كانت تمثل معظم الصادرات في بعض منها، وتراوح المفقود في العام الواحد ما بين 500 ألف رأس من الماشية في أثيوبيا إلى معظم الثروة الحيوانية في النيجر.

وأمام هذه الظروف الخطيرة دعا الرئيس الجزائري بومدين في نهاية مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر في ديسمبر1973 إلى ضرورة عقد مؤتمر للغذاء يعقد في روما خلال شهر نوفبر 1974.

الوقيعة بين الدول الأفريقية والدول العربية

الطريف في الأمر أن الدول الكبرى انتهزت فرصة هذه الأزمات، وحاولت الوقيعة بين الدول العربية المنتجة للبترول والدول الأفريقية والنامية بعامة، ومن الجائز أنها قصدت الدول الأفريقية بوجه خاص على اعتبار أن الدول الأفريقية جميعا وباستثناءات قليلة (معروف سببها) أيدت العرب بعد حرب أكتوبر في ضرورة جلاء إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها عام 1967 وأدانتها كقوة معتدية، وكانت الخطوة العملية لهذا هي قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل. فأرادت تلك الدول الكبرى أن تدخل في أذهانهم أن هذا هو الجزاء، وأدى هذا إلى أن بعض الحكومات والصحافة الأفريقية هاجمت الدول العربية على اعتبار أنها المسؤولة عن الأزمات التي تعانيها الآن، ونريد أن نناقش مدى مسؤولية الدول العربية عن الأزمات التي تعانيها بعض الدول الأفريقية بعد عام 1973.

دول أفريقية البترولية غير العربية استفادت من حرب أكتوبر:

إذا بدأنا بالنقطة الأولى وهي أن الدول العربية قد استفادت استفادة

كبرى من حرب أكتوبر وكان هذا على حساب أرصدة دول أخرى ومنها الدول الأفريقية، فنحب أن نشير هنا إلى أن الدول المنتجة للبترول ليست هي الدول العربية فقط، بل هناك دول غير عربية كفنزويلا وإيران والاتحاد السوفيتي تنتج النفط أيضا كذلك تزايد إنتاج الدول الأفريقية لها بسرعة نتيجة الحظر البترولي العربي وإغلاق قناة السويس، لأنه أن كانت بقية الدول الأفريقية المنتجة في هذه الفترة واقعة في شرق أفريقية وبعيدة عن القناة وقريبة من أسواق أوروبا وأميركا اكثر من دول الخليج، فبلغ إنتاج جابون ما يزيد على 9 ملايين طن عام 1974، بينما كان نحو5 ملايين طن عام. 1970 وكذلك ارتفع إنتاج أنجولا من 5 ملايين طن إلى ما يقرب من 9 ملايين طن في التاريخين المذكورين وحتى جمهورية الكنغو الشعبية ارتفع إنتاجها المتواضع من 365 ألف طن إلى 4 ,2 مليون طن. واستفادت الدول الأفريقية المنتجة من عوائد البترول وأحيانا كانت نسبة استفادتها اكبر كما يتضح من الجدول التالي[44]

السنة / الدولة	فوائد الحكومات من البترول (مليون دولار)	صادرات البترول (مليون برميل)
(ليبيا)		
1973	2300	794
1974	7,600	547
مدى التغيير %	230,4+	31,1-
(نيجيريا)		
1973	2000	715
1974	7000	785
مدى التغيير %	250+	9,8+

وكان تدفق عوائد البترول هو مفتاح التنمية الاقتصادية في نيجيريا وأصبحت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا، كما في مشروع التنمية الخمسية الثالث الذي أعلنه الرئيس السابق جوون (Jowon) في نيجيريا في مارس

1974. وحتى يرد السهم إلى الدول المتقدمة التي حاولت توجيهه إلى الدول المنتجة للبترول والدول العربية بصفة خاصة، نريد أن نسأل: لقد حققت، بعض الدول المتقدمة كاليابان وألمانيا الغربية فوائض ضخمة من الأرصدة اعتمادا على خامات وبترول العالم الثالث بصفة عامة، فهل سمعنا أحدا- أرجع مشكلات العالم الاقتصادية إلى استغلال هذه الدول المتقدمة؟ ألسنا نعرف أنه في عام 1973 كان لدى اليابان وحدها فائض قدر بنحو 19 ألف مليون دولار من الذهب والنقد الأجنبي، وتسبقها ألمانيا الغربية في هذا المضمار، فهل نشرت هذه الأرقام وعلق عليها أحد؟ كل ما في الأمر أن المستفيد من ارتفاع أسعار المنتجات الصناعية والأسمدة والقمح هي الدول المتقدمة في أوروبا وأمريكا واليابان، بينما المستفيد في حالة البترول هي دول نامية، فما يعتبر تصرفا صحيحا بالنسبة للدول المتقدمة هل يعتبر خطأ بالنسبة للدول النامية؟ ما ذنب الدول النامية كي تستورد المنتجات الغذائية والأسمدة والمصنوعات بنفقات تبلغ ضعف نفقات البترول ؟

الدول العربية في حاجة إلى تنمية:

يتناسى الذين ينشرون أرقام عوائد البترول أنه مادة سرعان ما تنضب، وان الدول المصدرة الآن سوف تحدد الإنتاج في المستقبل للمحافظة على هذا المورد أطول مدة ممكنة، ويكفي أن الدول المتقدمة تستهلك وحدها اكثر من نصف استهلاك العالم كله. أن الحسابات الخاطئة لا تضع في الاعتبار أن دول البترول دول نامية في حاجة إلى تنمية اقتصادياتها بدءا من السعودية إلى العراق والكويت والجزائر وليبيا وقطر والبحرين، ومع هذا فالمبالغ المرصودة للتنمية عرضة للتعديل بحيث ترتفع كل عام، ذلك أنه بعد تخفيض سعر الدولار جرى تعديل لسعر العملات المحلية مرات متوالية، يكفي أن نقول بأن هناك في العالم العربي 200 مليون فدان قابلة للزراعة وينقصها ضمن ما يلزمها الاستثمارات، فهل تترك هذه الأراضي وتظل الدول العربية مستوردة للقمح والذرة واللحوم ؟ آن الأوان لقيام قاعدة صناعية في الدول المصدرة للبترول. ولماذا هذا الحشد من المصانع في الدول المتقدمة؟ لماذا لا تقوم صناعة البلاستيك والمنسوجات الصناعية والبروتينات والفيتامينات والأدوية وغيرها من المواد التي تعتمد على البترول

كمادة خام في نفس الدول المنتجة له ؟

ارتفاع أسعار السلع المتقدمة كان سابقا لارتفاع سعر البترول عام 1973

أن سهم الاتهام مردود إلى الدول الصناعية لأكثر من سبب، منها أن أسعار المواد الغذائية كانت آخذة في الارتفاع قبل ارتفاع أسعار البترول، بل إن أسعار المنتجات الصناعية قد ارتفعت قبل أزمة الطاقة، فعلى سبيل المثال ما بين يوليو1972 ويوليو 1973 أي قبل الارتفاع الأول لسعر البترول.

- تضاعف سعر القمح، ثم ارتفع مرة أخرى في النصف الأخير من عام 1973.

- سجل سعر السكر ارتفاعا بلغ أربعة أمثال سعره في أقل من ثلاث سنوات

- تضاعف سعر السماد.

- ارتفع سعر الإسمنت أربع مرات.

ولم يتحدث أحد عن التضخم في أسعار المواد المستوردة للدول النامية، زراعية أو صناعية والتي تنتجها الدول المتقدمة. كان السعر المبدئي لبرميل البترول من دول الخليج نحو25 ,2 دولار لعام 1947 خفض إلى 8 ,1 دولار وظل هذا السعر البخس حتى عام 1969، أي ظل العالم المتقدم يعتصر إنتاجنا في مقابل سعر ضئيل، على حين ارتفع سعر القمح ثلاث مرات والسكر 16 مرة، فكان من الواجب رفع سعر البترول لنحصل بدورنا على احتياجاتنا ورفاهية شعوبنا.

أين مساعدة الدول المتقدمة للدول الأفريقية قبل ارتفاع سعر البترول ؟

إن ما يدعو إلى الدهشة أن يدشن الإنسان العقد الحالي بغزو القمر، مبرهنا بهذه البراعة الخارقة على أن قدرته العلمية والفنية هي في مستوى أعقد المشاكل التي تطرحها الطبيعة، في حين يكاد عجزه يكون مطلقا أمام البؤس والفقر الذي يسود معظم سكان العالم. لقد انتهزت دول العالم المتقدم فرصة ارتفاع أسعار البترول لتوحي للدول النامية غير المنتجة بما

فيها الدول الأفريقية أن هذا الارتفاع سيزيد في أزمتها. ولكن هل كان من الممكن النظر إليها نظرة خاصة؟ لا نعتقد هذا، لأنه لم يكن عمليا وضع أسعار متباينة للبترول، واحد للدول المتقدمة، والثاني للدول النامية والأفريقية بخاصة، ذلك أنه في ظل سياسة الحظر التي صحبت حرب أكتوبر على بعض الدول، كان من المشكوك فيه أنه تم على الوجه الأكمل نظرا لإمكانية تغيير سير الناقلات في عرض المحيط.

أن الدول المنتجة للبترول تعرف أن ارتفاع أسعار البترول قد يؤذي بلدان العالم الثالث[3*]، ولكنها ترى أن مسؤولية المساعدة كانت تقع على عاتق الدول المتقدمة منذ زمن طويل، وقد اتفقت الدول في اكثر من مؤتمر للتجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة (الانكتاد)

United Nations Conference on Trade and Development (Unetad)

على أن تخصص الدول الصناعية نسبة ١٪ من دخلها لمساعدة الدول النامية، ولكن هذه النسبة لم تدفع أبدا[45] وناشد روبرت مكنمارا رئيس البنك الدولي في الجلسة الافتتاحية للبنك في أكتوبر 1974- ناشد الدول المتقدمة أن تهرع الدول الصناعية إلى نجدة الدول النامية عن طريق زيادة مساعداتها الحكومية لها، مذكرا إياها بأن مساعدات عام 1974 وصلت إلى أدنى مستوى لها خلال السنوات الأربع الأخيرة. أن الديون المستحقة على الدول الأفريقية لصالح الدول المتقدمة ارتفعت من 9200 مليون دولار عام 1967 إلى 28500 مليار عام 1974. فهل هناك دولة متقدمة تعفي الدول النامية حتى من الفوائد فقط؟ لقد تم منح مساعدة (مشروع مارشال) عقب الحرب العالمية الثانية ضمن إطار تحالف سياسي وعسكري بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية وقد بلغت المساعدة التي قدمها بلد مصنع إلى بلاد مصنعة أخرى نحو ٣٪ من الدخل الإجمالي للولايات المتحدة وكان تعبئتها واستخدامها على وجه السرعة وبالصورة الكاملة التي تمت بها يقيم الدليل على أن الإمكانات المالية يمكن تأمينها بمنتهى السهولة على مستوى البلاد المصنعة عندما تتوفر الإرادة السياسية.

الدول المنتجة للبترول رائدة للدول الأفريقية:

أن دول البترول ومنها الدول العربية مهما بلغ غناها فهي من دول العالم

الثالث، وتعتبر رائدة للدول المنتجة للمواد الخام، وقد رأينا مدى اعتماد الدول الأفريقية على الخامات، لذلك لا توجد دولة منتجة ومصدرة للمواد الخام في أفريقية أو غيرها إلا وتبدي إعجابها بمنظمة الأوبك بدرجة أو بأخرى، فقد حققت بنجاح ما كانت الدول الأفريقية تتوق إليه لأنها فرضت ولأول مرة السعر الذي تريد أن تبيع به للدول الغنية الصناعية، وقد شجعت بهذا اكثر الدول المنتجة للخامات ومنها الدول الأفريقية لمحاكاتها أو للتخطيط للعمل على نمطها. وسواء كانت اتحادات بعض المواد الخام كانت موجودة قبل ارتفاع سعر البترول أو ظهرت بعدها، فهي تعتبر اتحاد مصدري البترول (OPEC) رائدا في هذا المضمار.

فهناك اتحاد منتجي الكاكاو (70٪ إنتاج أفريقي) واتحاد منتجي البن (31٪ إنتاج أفريقي) وهناك اتجاه من منتجي النحاس (25٪ إنتاج أفريقي) للحد من إنتاجه، ويناقش منتجو البوكسيت (خام الألومنيوم 8٪ إنتاج أفريقي) إمكان وضع حد أدنى لسعره، ومنظمة الدول المصدرة للفول السوداني (75٪ من الصادر العالمي أفريقي) هذه الاتحادات وغيرها والتي تشترك فيها الدول الأفريقية شجعتها منظمة الأوبك على أن تتخذ قرارات فيما يختص بإنتاجها وصادرها. ويبدو أن هناك اتجاها من الدول المنتجة للبترول لتمويل بعض المشروعات المقدمة من الدول المنتجة للخامات وذلك لتقوية موقفها في المساومة أمام الدول المتقدمة.

ارتفاع سعر البترول يفيد الأقطار الأفريقية المنتجة للخامات:

ولا ننسى أن ارتفاع البترول أفاد الدول الأفريقية بطريق غير مباشر، عن طريق رفع أسعار السلع التخليقية (Substitutes)، والتي أصبحت منافسا خطيرا لهذه الخامات، وتمثل هذا بصور متعددة، ففي حالة القطن (أفريقية لها 25٪، 4/1 الإنتاج العالمي، + 70٪ من الأقطان الطويلة التيلة) زادت باطراد قوة تحدي الألياف الصناعية المشتقة من البترول، فقد بلغ الاستهلاك العالمي من الألياف الصناعية عام 1968 حوالي 47٪ من إجمالي الألياف (fibres) المعروضة مقابل 27٪ عام 1958. وكان هذا لخاصية البس واغسل (wash and wear) وهي ميزة موفرة للجهد والمال بالنسبة للمستهلك، بل استحوذت الألياف الصناعية على بعض أوجه الاستعمالات الأخرى التي

كان ينفرد بها القطن كإطار السيارات والباراشوت وشباك الصيد ومنتجات التريكو، بل أن الأقمشة الرفيعة المصنوعة من القطن الخالص أصبحت الآن تواجه منافسة من منتجات الألياف الصناعية بنسبة 100٪ مثل كوانا (Quana)، وهو صنف جديد له مظهر الحرير أنتجته شركة (Dupont .) الأمريكية، وتعدت منافسة الألياف الصناعية للقطن ناحية الخصائص إلى المنافسة في الأسعار، فأصبحت أسعار الألياف البوليستر قريبة جدا من أسعار القطن، خاصة إذا أدخلنا في الاعتبار ارتفاع نسبة المعدوم في الصناعة القطنية، ليس من شك أن ارتفاع سعر البترول يؤدي بالتالي إلى ارتفاع سعر مشتقاته المنافسة للخامات، ويجعل من الممكن الرجوع للخامات النباتية مرة أخرى. وما قيل عن القطن يقال عن البولي بروبيلين (Polypropylene) ومنافسته للسيسل (66٪ إنتاج أفريقية) الذي تصنع منه حبال السفن والبالات، فقد تميزت الحبال المصنوعة من البولي بروبلين بقوة احتمالها عن السيسل ويمكن أن يكون عامل السعر محددا لاستهلاكه.

(استراتيجية الدول العربية نحو الدول الأفريقية)

انتبهت الدول العربية إلى هذه الاستراتيجية الاستعمارية التي تحاول إلقاء التبعة على الدول المنتجة للبترول وخاصة الدول العربية، وبذر بذور الشقاق بين الدول العربية والأفريقية، فانعقد مؤتمر القمة العربي في الجزائر في نوفمبر 1973 لتدعيم التضامن العربي الأفريقي، وحتى تحس الدول الأفريقية بأن الدول العربية لم تنسها كما لم تنس الدول الأفريقية شقيقاتها العربيات، اقر المؤتمر فرض حظر بترولي على البرتغال وروديسيا وجنوب أفريقية على اعتبار أنها دول معادية للتحرر الأفريقي، كما أقر المؤتمر إقامة صندوق عربي أفريقي برأسمال قدره 100 مليون دولار زيد فيما بعد إلى 200 مليون دولار، لمساعدة الدول الأفريقية التي تواجه صعوبات اقتصادية بسبب ارتفاع أسعار البترول ووضعت اللجنة المنبثقة عن منظمة. الوحدة الأفريقية أربعة عوامل اقتصادية أخرى في الاعتبار لرفع نصيب الدول الأفريقية من هذا الدعم وهذه العوامل هي: الجفاف، الدول الحبيسة، الدول التي لم ترتفع أسعار صادراتها بنسبة كبيرة، والدول التي مستوى دخل الفرد فيها ضئيل. وأنشئ كذلك بنك عربي للتنمية الزراعية والصناعية

لأفريقية في الخرطوم في يناير 1974 برأسمال مبدئي قدره 195 مليون دولار، زادت منذ نهاية نوفمبر1974 إلى 231 مليون دولار ثم كان مشروع الصندوق العربي لتقديم المعونة الفنية للدول الأفريقية، هذا وقد تطور مبلغ المعونة العربية الاقتصادية لأفريقيا من 144 مليون دولار عام 1973 إلى 1332 مليون دولار عام 1977، هذا غير المعونات الاقتصادية الثنائية.

وكانت هناك رغبة من الدول الأفريقية لدول الأوبك في أن تتبع سياسة السعر المزدوج أي أن تبيع للدول الأفريقية بسعر خاص مخفض، وتبيع للدول الأخرى بسعر عال، ولكن الفكرة لم تجد قبولا لأنه لا يمكن التحكم في هذا الإجراء، و يكفي على سبيل المثال الاستشهاد بما حدث في فترة الحظر البترولي، فقد قررت منظمة الدول العربية. المصدرة للبترول (الأوابك Oapec) بأن هناك نحو 3,5 مليون طن من البترول العربي تسربت إلى الولايات المتحدة الأمريكية بين 17 أكتوبر 1973 وآخر ديسمبر من ذلك العام، فإمكانية التسرب ممكنة إلى حد ما لأنه يمكن الشحن والتفريغ بين الناقلات في أعلى البحار.

الدول العربية والأفريقية مواجهة أو تضامن ؟

أخيرا في ختام هذا لا نجد مواجهة أو تناقضا بين العرب والأفارقة، ولا بين أفريقية شمال الصحراء وأفريقية جنوبها، وليس هناك من داع لأن نقول أن هناك تجانسا تاما بين أجزاء أفريقية، ولكن الذي يجب أن يعرفه الجميع أن العروبة ليست لها ارتباطات سلالية تجمع بين أفرادها، أو تقتصر على سلالة معينة، وإنما هي رباط لغوي ثقافي حضاري يجمع بين الألوان جميعا من الأبيض إلى الأسود وما بينهما من درجات، ولو لم يكن هذا هو مضمون العروبة لما أصبح كل من يسمون عربا الآن سواء في آسيا أو أفريقية قد أصبحوا عربا وكما أن العروبة ليست سوى رباط حضاري لغوي ثقافي، كذلك الأفريقية ليست رباطا سلاليا، بل رباطا جغرافيا حضاريا سياسيا، بصرف النظر عن اللغة والدين والسلالة.

تاريخ مشترك:

وإذا كانت القومية الأفريقية ارتبطت بها فكرة الحرية، وأن هذا الشعار

هو الذي كان ينادي به المواطنون في شوارع أكرا في أوائل الخمسينات وحاربت من أجله شعوب موزمبيق وأنجولا، فهذا الشعار هو أيضا الذي نادى به المصريون من مصطفى كامل إلى سعد زغلول في العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، واستمر بعد ذلك حتى جلاء الجيوش البريطانية في الخمسينات، وهو نفس الشعار الذي نادى به الليبيون والتونسيون والسوريون واللبنانيون والمغاربة، وإذا كانت أفريقية وجنوب الصحراء قد خضعت لسيطرة الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فان سكان أفريقية شمال الصحراء والشام والعراق قد خضعوا لنفس النفوذ، وكان النصف الثاني من القرن العشرين هو عصر انحسار المد الاستعماري سواء في أفريقية أو العالم العربي، كل ما في الأمر أنه كان اكثر تبكيرا في بعض أقطار العالم العربي. وقابل استيطان الأوربيين في كينيا وتنجانيقا استيطان الفرنسيين في المغرب العربي وبصفة خاصة في الجزائر. وقابل استيلاءهم على الأرض وحرمان الوطنيين منها في كينيا؟ استيلاؤهم على أراضي الجزائر الخصبة، فالتناظر واضح بين المرتفعات البيضاء, في كينيا والتل التونسي والجزائري، بل إن الصورة تتكرر في اكثر من موقع، فقد عطل المستوطنون استقلال الجزائر، كما عطل المستوطنون استقلال كينيا عن جارتيها أوغندا وتنجانيقا. وإذا كان كينياتا تعرض للنفي وجوشوا نكومو تعرض للسجن فقد نفى سعد زغلول وعبد الكريم الخطابي والملك محمد الخامس وحكم على عمر المختار بالإعدام رغم شيخوخته. إذن ما بين هؤلاء وأولئك تاريخ مشترك وتحد للقوى الأجنبية، وإنجاز تفخر به هذه الدول، أفريقية وعربية، وهو التحرر.

اقتصاد متماثل:

فإذا أضفنا إلى التاريخ المشترك الظروف الاقتصادية المتشابهة، أدركنا المصلحة المشتركة، فالمشكلات التي تعانيها الدول الافريقية والدول العربية في معظمها واحدة، وهي صورة مكبرة أو مصغرة من مشكلات العالم النامي، فالدول العربية والافريقية هي دول نامية يعتمد وما زال اقتصادها على الحرف الأولية كالزراعة والرعي والتعدين، ولم يكن الاستعمار يسمح أو يشجع على قيام الصناعة لتظل أسواق الدول العربية والافريقية مفتوحة

أمام المنتجات الأوروبية، وهذا أمر طبيعي وكان منتظرا من الدول الاستعمارية، وليس هذا رأينا وحدنا بل هو رأي واحد من اكبر الاقتصاديين البريطانيين وهو (نيركسة) في محاضرته عن الأثر الاقتصادي للاستعمار. فكانت النتيجة أن أصبحت صادراتنا جميعا من المواد الخام التي تصدر إلى أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان لتصنيعها، ثم عودتها إلينا مصنعة نشتريها بأعلى الأسعار ليرفع العالم الصناعي من مستوى معيشته على حساب مستوى معيشة شعوبنا.

فإذا كانت الزراعة تمثل الحرفة الرئيسية وعماد الصادرات في السنغال، و بنين وتوجو، وغانا، وأثيوبيا، وساحل العاج، وأوغندا فهي الحرفة الرئيسية وعماد الصادرات في تونس، والمغرب، وسوريا، والعراق، ومصر، والسودان. وبينما تعتمد مصر والسودان، على القطن ومنتجاته، كسلع تصدير أساسية، وتعتمد تونس على زيت الزيتون والفاكهة، والمغرب على الخضراوات والفاكهة، كذلك تعتمد السنغال والنيجر على الفول السوداني وأوغندا وأثيوبيا على البن، ومالاوي على الدخان وساحل العاج على البن والكاكاو. وكما تصدر ليبيريا وسيراليون الحديد خاما، وتصدر زائير وزامبيا مركزات النحاس، وأفريقية الوسطى الماس، تصدر الجزائر الحديد والبترول وتصدر تونس والمغرب الفوسفات، وتصدر ليبيا والكويت والسعودية البترول خاما، كما تفعل نيجيريا والكنغو. ومن هنا كانت اقتصادياتنا كدول عربية وأفريقية تتميز بالتماثل في طريقة استغلالها، واعتمادنا جميعا على صادراتنا في الحصول على العملات الأجنبية اللازمة لنمونا الاقتصادي والاجتماعي، وكان هذا معناه التبعية الاقتصادية للغرب وعدم الاستقرار الاقتصادي وذلك لتعرض اقتصاديات هذه الأقطار للذبذبات الحادة في الأسعار والتي تحددها أسواق الدول الأوروبية والأمريكية، و يكفي أن نذكر الرواج الذي لاقته خامات الدول العربية والأفريقية أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها لشدة الحاجة إليها لتموين الجيوش الأوروبية ثم للحصول على غذاء للأوروبيين ولكن هذه الصورة انعكست منذ الستينات حيث شاهدت هذه الخامات العربية والأفريقية نكسة، وكانت هذه النكسة في الأسعار في نفس الوقت الذي بدأت فيه معظم هذه الدول تحصل على استقلالها، حيث استقلت سياسيا ولكنها وجدت نفسها تابعة اقتصاديا.

صعوبة مواجهة الدول الافروعربية لمشكلاتها منفردة:

ليس من شك بأن الدول العربية والأفريقية تجد صعوبات في تنفيذ برامج التنمية في منفردة، وفي بعض الحالات تعجز إمكانات الدولة الواحدة عن مواجهة هذه المشكلات بالحلول المناسبة، ففي ظل الثورة التكنولوجية المعاصرة، أصبحت الصفة التي يتميز بها النشاط العلمي والأبحاث العلمية هي العمل الجماعي والأبحاث المشتركة لأنها تتطلب معدات وأجهزة باهظة التكاليف، فضلا عن خبرات متنوعة وعلى مستوى عال مما لا يمكن لموارد دولة واحدة أن تتحملها، ويكفي أن تعلم بأن الولايات المتحدة الأمريكية تصرف 21 مليار دولار سنويا على الأبحاث، وتنفق الدول الأوروبية نحو 6 مليارات دولار في هذا المجال. هذا كما يصعب توفير الخبرات اللازمة في دولة واحدة في بعض الأحيان، من ثم يتطلب الأمر تكوين مجموعات عمل عربية أفريقية مشتركة قادرة على مواجهة المشاكل التي تتعلق بالتنمية وخاصة في مجال استخدام التكنولوجيا الحديثة، وتجميع الطاقات لمتابعة التطور المذهل في هذا الميدان.

ومن المسلم به أيضا وفرة الموارد الطبيعية لدى الدول الأفروعربية، ومع ذلك فمعظمها غير مستغل، فإذا تركنا الأرض التي يمكن استصلاحها للزراعة، فهناك الثروة المعدنية التي ذكرناها وغيرها من الإمكانات التي يمكن أن تقوم عليها قاعدة صناعية ضخمة كالسدود التي تقام على الأنهار، ويستفاد منها بطاقات كهربائية ضخمة، واستغلال هذه الثروات الكامنة يزيد من معدل التنمية الاقتصادية والاجتماعية فيها، ولكن استغلال هذه الثروات تقف أمامه صعوبات متعددة، نذكر منها عدم توفر وسائل النقل، وضيق المواني، وقلة الطرق المناسبة، والتكاليف الباهظة، مما تعجز عنه موارد الدولة الواحدة، أما إذا تكلمنا عن الصناعة وهي أمل الدول النامية بوجه عام والتي تخرج الدول الأفروعربية من حالة التبعية للدول المتقدمة لأنها ستقلل من الاعتماد عليها في تصريف المواد الخام، وفي جلب السلع الصناعية، فضلا عن الأثر الذي يتركه التصنيع على المستوى العام للتعليم والمهارات وبث روح الابتكار، فإن هذه الصناعة لا يمكن أن تقوم في دول منفردة تتميز بضيق السوق، وقلة الموارد المالية، والخبرات الفنية، فالصناعة الحديثة في الدول المتقدمة والتي تكتسح بها العالم النامي ومنه الدول

الأفروعربية، هي صناعة آلية ضخمة ذات إنتاج عملاق، يتعدى الحدود القومية في تصريفه إلى ما وراء البحار، ثم إذا أرادت دولة عربية أو أفريقية قيام صناعة منفردة فيها فإن الآلات الضخمة يمكنها أن تغطي احتياجات السوق المحلية الضيقة لبضعة أسابيع، وتظل آلات الإنتاج معطلة بقية العام.

لهذه العوامل مجتمعة لابد من استخدام خبرات وإمكانات واسعة، وزيادة إمكانات تنفيذ مشروعات النقل والتخزين وتوليد الكهرباء وقيام قاعدة زراعية وصناعية متطورة.

ضرورة التكتل في عالم التكتلات:

إن الفترة التي يمر بها العالم اليوم هي فترة التكتلات السياسية والاقتصادية، فهناك الجماعة الاقتصادية الأوروبية EEC أو ما يعرف بالسوق الأوروبية المشتركة، وهناك الكوميكون أو مجموعة دولة المعسكر الاشتراكي وغيرها من التكتلات التي تبغي مصلحتها أولا، وهذه التكتلات الضخمة من الملاحظ أنها بين الدول المتقدمة، على حين أن الدول الأفروعربية تنتمي لمجموعة الدول النامية التي تعتمد على تصدير المواد الأولية إلى الدول المتقدمة، وهذه الأخيرة كما مما سبق أن ذكرنا تتحكم في الأسعار وتجعلها في صالحها وتسيء إلى مصالح الدول الأفروعربية بحيث اتسعت الفجوة وما تزال تتسع بين الجانبين. وإذا كانت الدول المتقدمة قد انتبهت إلى ضرورة التكاتف ضمن كيانات سياسية واقتصادية ضخمة، وأخذت تجمع قواها في تخطيط وتنفيذ مشترك، فما أحوج الدول الأفروعربية إلى هذا التعاون فيما بينها، وتبدو ضرورة التعاون الاقتصادي بين الدول الأفروعربية للوقوف صفا واحدا أمام الدول المتقدمة، حين تحاول هذه شق صفوف الدول العربية والأفريقية، وإحداث انشقاق بينها، وقد تعددت هذه المحاولات، وكان آخرها محاولة الدول المتقدمة اجتذاب الدول النامية المستهلكة للبترول إلى صفها بحجة أن الدول البترولية المصدرة ومعظمها عربية هي المسؤولة عن التضخم في الأسعار الذي تعاني منه الدول غير البترولية، وذلك بهدف شق صف الدول النامية.

ويمكن أن نختتم حديثنا في هذا المجال بالقول بأنه إذا كانت الخمسينات

والستينات هي سنوات الحسم السياسي وسنوات الاستقلال للدول العربية والأفريقية، فإن السبعينات والثمانينات يجب أن تكون سنوات تعميق الاستقلال السياسي عن الدول الأوروبية، بمواجهة مشكلات التنمية فيها، فلم يكن التخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال هو نهاية المشاكل بالنسبة للشعوب الأفروعربية، بل يعتبر بداية لمشكلات أعمق أساسها إقامة اقتصاد وطني سليم لا يعتمد على الخارج، ولا على التبعية للدول المتقدمة.

الحواشي

(1) المرجح أنه رحالة أو تاجر إغريقي عاش في الإسكندرية في القرن الأول الميلادي، وتحدث عن المناطق التي شاهدها بنفسه، وتوجد ترجمة إنجليزية لهذا الكتاب بعنوان. The Prepiplus of the Erythnean Sea. Newyork 1912.

(2) Huzayyin.S. A. "Arabia and the Far East" Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and lrano-Arabian. 5.6 Times, Cairo-I 942. pp. 5.6

(3) سورة يوسف (59- 61)

(4) سورة يوسف (63- 64)

(5) عباس عمار: «المدخل الشرقي لمصر» القاهرة 1942 ص 90, 93.

(6) محمد عوض محمد: «السودان الشمالي» سكانه وقبائله، القاهرة 1951

(7) محمد عوض محمد: «الشعوب والسلالات الأفريقية» القاهرة ص 338

(8) محمد عبد الغني سعودي: «الوطن العربي» القاهرة 1978 ص 518, 519

(9) Law, R.C.C. "The Garamants and Trans-Saharan Enterprise in Classical Times", Jour. afr. History, vol IIII, no. 2. pp, 82, 83.

(10) Davidson. B. "Africa in History". London. 1970. pp. 62, 64.

(11) Hopkins. A.G. "An Economic History of West Africa", London 1973. pp.80,81.

(12) Barber. W. "The Movement into the World Economy" in "Economic Transition in Africa" London 1964 p. 300, Oliver R., Fage j. A short History of Africa Penguin, 1962, p. 61.

ويقول دافيدسن في كتابه أفريقية في التاريخ، أنه لولا ذهب غرب أفريقية الذي كان ينقل عبر الصحراء ما كان في الإمكان لأوروبا أن تستخدم الذهب كوسيلة نقدية في العصور الوسطى، فكان الملوك يصكون عملاتهم من ذهب غرب أفريقية بل انه في عام 1932 عندما استولت فرنسا على الجزائر وجدوا مخزنا به مالا يقل عن 15500 رطل من الذهب، ليس من شك أنها أتت عبر الصحراء (راجع الكتاب المذكور ص 65).

(13) Bovill, E.W. "The Golden Trade of the Moors" 2nd Edition.1968., p.236.

(14) Ibid. P. 239

(15) Hopkins. A.G. "An Economic History of West Africa", P. 86.

(16) دكتور صابوري بيوبكو مؤرخ نيجيري، وكان مديرا لمعهد الدراسات الأفريقية في جامعة Ife وانظر أيضا.

Meek. C.K. Tribal Studies in Northern Nigeria, London 1931.

(17) Wormington, C. "The Ancient Explorer" Pelcan 1963. P. 21

(18) Huzayyin, "Arabia and the Far East". P. 36.

(19) كلمة «داو» وجمعها داوات هي ألفاظ سواحيلية اكثر منها عربية، وان كان يستعملها الجميع في شرق أفريقية، ويستعمل العرب كلمة سمبوك (سنبوك) الفارسية الأصل، وهي عبارة عن

المراكب الخشبية التي كانوا يستعملونها في الملاحة معتمدين على الشراع والمجداف، وهي تختلف حجما ونوعا.

(20) Mc Master. D. N. “The 0cean-Going Trade to East Africa,” East Africa Geogr. Review, no.4.April 1966. P. 15.

(21) Ibid.. P. 18

(22) حدثت تطورات جديدة في تجارة أخشاب المانجروف، فأصبح ما يقطع من زنجبار وبمبا قليلا إذا ما قورن بجهات أخرى مثل الفروع الخمسة لنهر روفيجي وكذلك الحال في ضواحي بلدة لامو، حيث الظروف الصحية افضل، وتقوم مصلحة الغابات في كينيا بالإشراف على هذا الإقليم منذ عام 1950، هذا وتجد أخشاب المانجروف منافسة قوية في شبه جزيرة العرب من جانب مواد البناء.

(23) Beach. R. W. “The East African Ivory CoastTrade in the Nineteenth Century” Jour. Afri. Hist. vol III, 7, 1967. p. 770

(24) وصل العرب إلى أوجيجي على بحيرة تنجانيقا في نفس الوقت الذي وصل فيه الرحالة في عهد محمد علي إلى غندكرو في السودان، فعندما وصل برتون وسبيك إلى اوجيجي في يناير 1858 قابلا تاجرا عربيا يدعى محمد بن شهاب الذي كان يعيش هناك منذ اكثر من خمسة عشر عاما. وعندما وصل ليفنجستون عام 1969 كان العرب الذين يعيشون في اوجيجي يتاجرون غرب البحيرة، وكانت بلدة كيسنجا إلى الغرب من البحيرة من المراكز التجارية العربية عام 1859 وكذلك وضع المرشد العربي المشهور شهاب الدين احمد بن ماجد دليلا بحريا (وهماني) ممتازا استند فيه إلى خبرته الشخصية والكتب السابقة، وحينما وصل فاسكو داجاما إلى ماليندي في شرق أفريقية، بحث عن أحد الأدلاء يحمله إلى الهند، وهناك لم يجد إلا احمد بن ماجد هذا، فأقنعه بقيادة سفن البرتغاليين عبر المحيط الهندي إلى كلكتا. انظر في هذا مقالة Beach التي أشرنا إليها من قبل فضلا عن

Trimingham, S. “Islam in East Africa”, Oxford U. P. 1964, p. 24 Ibid, p. 24.

(25) Ibid. P. 24.

(26) Neumark, D. “Foreign Trade and Economic Development In Africa”, Stanford, 1964. P. 50.

(27) Bear, G. Slavery in Egypt in the Nineteenth Century journal of African History, vol. VII, 3, 1967. pp.422.

(28) بازل دافيدسن: «أفريقية تحت أضواء جديدة:< الترجمة العربية لجمال محمد أحمد دار الثقافة العربية-بيروت-ص 17.

(29) Hopkins, A,G, “Economic History of West Africa”, Longmans, 1973. p.90%

(30) Neumark, op, cit.. p. 51.

(31) Ibid. p.51.

(32)Hopkins, A, G., “Economic History of Africa”. p. 91.

(33) Neumark, p, 54.,

(34) Hopkins, op. cit., p. 92.

(35) بازل دافيدسن: صحوة أفريقية، ترجمة عبد القادر حمزة، الألف كتاب ص 288- 289 وراجع أيضا عن مهازل البرتغاليين في أفريقية:

James Duffy,"Portugal in Africa". Penguin, 1962, pp. 149. 191.

(36) محمد عبد الغني سعودي. «الجغرافية والمشكلات الدولية»، القاهرة 1973 ص 391 وراجع

Emerson, E., . "From Empire to Nation". Harvard, 1960.

(37) First. R. "South West Africa". Penguin, 1963

(38) بازل دافيدس: «أفريقية تحت أضواء جديدة:< ص 193- 195.

(39) U.N., ECA., "Survey of the Economic and Social Conditions in" Africa for the year 1975"

(40) U.N., ECA., "Association of African Central Banks", Addis Ababa, August 1975. Impact of Energy Crisis on Trade and. Development of African Countries, p.p. 5-16.

(41) محمد عبد الغني سعودي: «الاقتصاد الأفريقي والتجارة الدولية»، القاهرة 1973.

(42) Africa Magazine. London, Sept. 1975, p. 37.

(43) Ibid., P. 37.

(44) Ibid., P. 36.

(45) Ibid., p. 37.

3 قضية اللغة

اللغة وسيلة الاتصال والتعبير عن الكيان الذاتي

يرى الباحثون أن وحدة اللغة عنصر هام من عناصر الوحدة القومية، وأنها اكبر عامل يولد في نفوس الناس إرادة الانتظام في أمة واحدة، وإذا كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه مدني (اجتماعي) وأنه ناطق (مفكر) فإن الشعوب تتميز بعضها عن بعض بأن لكل منها لغة خاصة تتكلم بها، فما لا شك فيه أن اللغة هي أقوى رباط معنوي بين الأفراد، وكما قالوا فاللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ومعنى هذا أن لكل قوم لغتهم. ومتى تفاهم الأفراد بلغة واحدة تقارب تفكيرهم، ونشأ فيهم شعور بالتعاطف، قلما ينشأ مثله بين أفراد يتكلمون لغات مختلفة، وهذا التعاطف عامل عظيم في جعل المتكلمين لغة واحدة يؤلفون أمة واحدة، ولما كانت اللغة هي عماد الثقافة للأمة، والثقافة بالنسبة للأمة هي بمثابة الروح بالنسبة للإنسان لذلك يذهب البعض إلى أن الأمة ليست ملايين من البشر، يعيشون على نفس الأرض أو يرجعون لأصل واحد فحسب، بل الأمة أيضا وحدة من الفكر والشعور والإرادة والعمل. ومن أجل المشاركة في

الفكر والشعور والإرادة والعمل، لابد وأن يكون هناك اتصال بين أعضاء الجماعة القومية، ومن ثم كان للغة المشتركة أهميتها وأثرها كأداة فعالة في تشكيل الوحدة القومية، ومن الناحية النظرية يفترض أن العقل البشري يفكر مجردا ولكنه من الناحية الفعلية يفكر بلغة ما. لذلك فالوحدة التي تتم بين أناس يتكلمون لغة واحدة، لابد أن تكون قوية لأنها تخلق فيهم أرقى أنواع الوحدة وأكثرها ضرورة للإنسان، وهي وحدة الفكر، فالصيحة التي نسمعها أحيانا في الدول التي تتعدد فيها اللغات وهي «شعب واحدة ولغة واحدة» ليست شعارا سياسيا أجوف بأي حال، و يزيد على وحدة الفكر والمشاعر أن اللغة تعتبر الوعاء الذي تتجمع فيه وتختزن خبرات الأمم خلال الأزمنة المختلفة، وإنجازاتها الأدبية، والفنية، والعلمية، تختزن فيه آلامها وآمالها ومشاعرها بوجه عام. إن وحدة الفكر والشعور والسلوك هي ما تعطي في النهاية الشخصية القومية.

وقد قام كثير من المحللين بتقدير أثر اللغة على القومية الأوروبية، فأشاروا مثلا إلى تلك العلاقة المطردة بين التنوع اللغوي في أوروبا بين عامي 1800 , 1937 وزيادة عدد الدول الأوروبية المستقلة في نفس تلك الفترة، وأشارت الدراسات المتعددة إلى أثر اللغة الواحدة في تقوية الإحساس بالهوية القومية والولاء، وكيف أن هؤلاء الذين يتكلمون لغة معينة يحسون أنهم مختلفون عن الجماعات الأخرى.

لذلك كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، تعمل الدول المستعمرة جاهدة على قتلها لنشر لغاتها وبث ثقافتها، لما في ذلك من تأثير كبير في وأد الروح الوطنية أو خلق شعور بالرضى عن أفاعيل الدول الاستعمارية، وكثيرا ما كان اختلاف اللغة والثقافة عاملا على نشوب الثورات والحركات الانفصالية سواء في التاريخ القديم أو الحديث، ففي بلجيكا في وقت ما مثلا هدد الانقسام اللغوي إلى فلمنك Flemish والون WalIoon وحدة الدولة، ذلك أن الوالون اللاتينيين كانوا يتجهون في عواطفهم نحو فرنسا، بينما الفلمنك الألمان يولون وجوههم شطر ألمانيا، وكانت الغلبة لعنصر الوالون بعد الاستقلال مباشرة، ولذلك جاهد الفلمنك للمساواة بهم ووصل الفريقان أخيرا إلى المساواة معا، وخفت مرارة الشعور الذي كان يكنه كل فريق للآخر.

وتعتبر مشكلة الأقلية الألمانية في الالزاس واللورين طريفة من ناحية، وتعطي مثلا حيا على أثر اللغة في عملية الدمج والوحدة من ناحية أخرى، ذلك أن إقليم الالزاس واللورين في فرنسا يقع قرب الحدود الألمانية، اشتهر بحديده و بوتاسه، ونظرا لأنه متاخم لألمانيا فقد كان دائما يتبادله الألمان والفرنسيون تبعا لميزان القوى بينهما، واستمر تبادل الإقليم نحو أربع مرات منذ عام 1870 وبمقتضى معاهدة فرانكفورت عام 1871 ضمت ألمانيا الإقليم إليها حتى تضعف من قدرة فرنسا الدفاعية، وللحصول على حديد اللورين، وكان هذا من عناصر قوة ألمانيا العسكرية قبل الحرب الأولى، ولم يرض الفرنسيون عن هذا الوضع نظرا لأنهم وجدوا جيلا من الألمان بدأ يتكاثر في إقليم يعتبرونه جزءا من أراضيهم، ولكنها لم تستطع شيئا حتى ضمته بعد الحرب الأولى ثم استرجعته ألمانيا بعد غزوها لفرنسا عام 1940، ثم خرجت ألمانيا مغلوبة في الحرب العالمية الثانية، وضم الإقليم إلى فرنسا.

ماذا تفعل فرنسا أمام الأقلية الألمانية في الإقليم حتى تدمجها في الشعب الفرنسي ؟ اتجه التفكير الأساسي إلى اللغة، فإلغاء الألمانية أو التقليل منها سوف يقلل من ولاء هؤلاء السكان بمضي الزمن لألمانيا، فكانت الخطة هي السماح للطفل عندما يذهب إلى المدرسة، أن يدرس اللغة الفرنسية في ثلاثة الأعوام الأولى ولا يدرس الألمانية لغة الوطن الأم خلال هذه الفترة، ثم بعد ذلك يدرس الفرنسية فضلا عن الألمانية حتى يجيد الفرنسية إجادة تامة، وإذا احتج بعض السكان على هذا على اعتبار أنه تدخل في حرية اللغة فإن المنطق الفرنسي يرد عليهم بأنه مادامت الالزاس واللورين جزءا من فرنسا فمن صالح أبناء الإقليم إتقان الفرنسية إلى جانب الألمانية لأنهم سيعملون في فرنسا[1].

وكثيرا ما تعترف الدولة بحرية استعمال الأقليات للغاتها وتدريسها في مدارسها، لا بغرض تشجيعها، ولكن للخوف من المطالبة بالانفصال عن جسم الدولة إذا منعتها من استعمال هذا الحق. ولنأخذ مثلنا من بلد ألف مليون النسمة أو ربع البشر الذين يعيشون على سطح الأرض، فتظهر هنا الطرافة حيث يفهم الصينيون بعضهم حين يكتبون وقد لا يفهمون بعضهم حين يتكلمون، ذلك أنه من المتعارف عليه أن كل لغة في معظم الأحوال لها أصوات تمثلها رموز معينة وهي. Phonetic Written form على عكس الصينية

فالرموز تدل على أشياء وأفكار لا أصوات (Sounds)، من ثم فقراءة وكتابة اللغة الصينية أكثر صعوبة مما هو في اللغات التي لها أبجدية صوتية، ونعود إلى موضوعنا، ونذكر أنه حين نقول اللغة الصينية فليس المقصود بها لغة يتكلمها كل الصينيين، وإنما لغة الغالبية أو الهان Han أي الوطنيين، وهم يمثلون 94٪ من سكان الصين ومن ثم كانت اكبر كتلة متجانسة في الصين سواء في لغتها أو تقاليدها أو ثقافتها، وان كانت هذه بدورها تضم لهجات عديدة بحكم اتساع الصين، أما الستة في المائة الباقية، فهي تمثل أقليات لغوية، وإذا كان الحزب الشيوعي الصيني يعترف بأن اللغة هي إحدى أسس القومية، إلا أنها في نظره ليست الوحيدة، فهناك الإقليم المشترك والروابط الاقتصادية والنفسية المشتركة، وهذه كلها لا تقل أهمية عن اللغة في تحديد الأقلية القومية. وتحتفظ الحكومة الصينية لنفسها بالحكم النهائي في اعتبار مجموعة ما أقلية قومية أم لا، وبمقتضى هذا القرار تعترف الحكومة الصينية بوجود أربع وخمسين قومية في الصين كل لها لغتها التي تميزها[2].

وقد قامت سياسة الحزب على الاحتفاظ بشخصية كل قومية، وان تنمو في داخل أطرها الثقافية، وأن تعطي للغة كل قومية أهميتها، ويعزو البعض عمل الدولة والحزب على الحفاظ على هذه الأقليات اللغوية ومساندتها وعدم القضاء على لغاتها إلى عدة أسباب أهمها:

1- إن الاتحاد السوفيتي كان المثل والنموذج الذي حذا الصينيون حذوه وكان هذا هو مدخله أو طريقته في المتعامل مع الأقليات غير الروسية.

2- استولى الحزب على جميع أراضي الأقليات القومية إما بالقوة أو نتيجة استسلام النخبة فيها عندما وجدوا أن معظم الصين أصبحت خاضعة له، ومن ثم تصبح المقاومة من السذاجة بمكان.

3- وقوع معظم أراضي الأقليات على الأطراف وهي عاده مخلخلة السكان، بعيدة عن طرق المواصلات الجيدة، كما تتميز بوعورتها، لذلك وجدت الحكومة أنه من الصعب ممارسة الضغوط في مثل هذه الأقاليم.

4- خوف الحكومة الجديدة من تدخل قوى أجنبية، خاصة وان إلغاء اللغات المحلية سوف يثير أناسا هي في أشد الحاجة إلى ولائهم في فترة نشأتها.

5- اعتقدت الحكومة الصينية بأن وجود أقليات لغوية لن يسبب مشكلات نظرا لأنه لا توجد قومية من هذه القوميات متقدمة تكنولوجيا كما هو الحال عند الهان الصينيين والذين يكونون الغالبية العظمى، فهذه الأقليات سوف تتعلم لغة الهان مع مرور الزمن وذلك لتلحق بركب التقدم والاشتراكية.

وهكذا أقر برنامج الحزب الجديد عام 1949 حرية الأقليات في تنمية لغاتها، وذهب دستور الدولة عام 1954 إلى أبعد من هذا في نصه على أنه يمكن لأقاليم الأقليات استخدام لغة أو أخرى من اللغات الشائعة في تلك الأقاليم لإنجاز معاملات الدولة الرسمية، كي يمكن)للمحاكم استخدام اللغات المحلية عند نظر القضايا، وإصدار الحكم بها، وأقر مؤتمر تعليم الأقليات الصينية المنعقد عام 1951 بأن تدرس اللغات المكتوبة منها في المرحلتين الابتدائية والثانوية، أما تلك الأقليات التي ليست لها لغات مكتوبة فيجب معاونتها على كتابتها، وأن يكون التعليم فيها باللغة الصينية (الهان) أو بإحدى لغات الأقليات القومية، إن وجدت كتب دراسية مكتوبة بها، ووافق أعضاء المؤتمر بالإجماع على إدخال لغة الهان في جميع الفرق الدراسية بمدارس الأقليات طبقا لاحتياجات ومتطلبات تلك الأقليات[3].

والسبب الرئيسي هو الحفاظ على الأقليات اللغوية دون المطالبة بالانفصال، هذا وقد اعترفت بريطانيا بلغات اسكتلندا وويلز، واعترفت فرنسا بلغة البريتون، وفي أحيان أخرى قد لا تمنح الدولة حرية لغوية للأقليات خوفا من أن يكون هذا عاملا مساعدا ومشجعا على الانفصال، وإضعافا لكيان الأمة، فعلى سبيل المثال، كانت هناك أقلية نمساوية في التيرول تقدر بنحو 300 ألف نسمة لم تعطها إيطاليا حرية لغوية. بل غيرت أسماء شوارعها، وأجبرتها على استعمال اللغة الإيطالية في المدارس والكنائس، ولم نذهب بعيدا ؟ وكانت أمامنا محاولات فرنسا لفرنسة المغرب العربي بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، لولا قوة اللغة العربية وصمودها، وكذلك استغلال التفتت اللغوي في بقية القارة الأفريقية وفرض لغة كل دولة مستعمرة على شعوب القارة. ذكرت أمثلتي أخيرا من أوروبا متعمدا، وذلك لنعرف كيف يفعل الأوروبيون بعضهم مع بعض فيما يختص بموضوع اللغة، لأن اللغة ليست مجرد وسيلة أو آلة لترجمة الفكر والاتصال بالغير في أفريقية، بل هي أيضا لتأكيد الذات الأفريقية.

تعدد اللغات الأفريقية

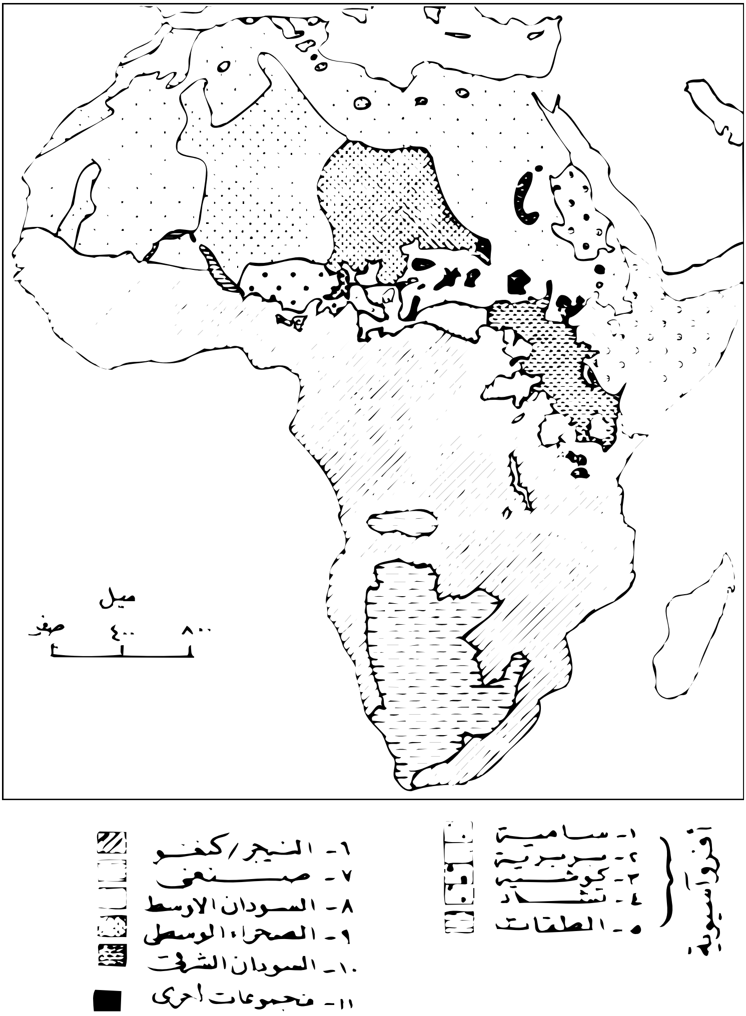
عندما حصلت أوغندا على استقلالها كان راديو أوغندا يذيع بست لغات هي الإنجليزية واللوجاندا والرونيورو والاتيزو واللو والروتورو.

وفي مارس سنة 1967 عندما افتتح الرئيس السابق لأوغندا ندوة عن وسائل الاتصال الجماهيري في شرق أفريقية ذكر في خطبته الافتتاحية أنه أضيفت إلى اللغات السابقة عشر لغات أخرى ستذيع بها إذاعة أوغندا، ثم أضيفت عدة لغات أخرى في سبتمبر سنة 1969 ليصل الرقم إلى ثماني عشرة لغة !! وهذه اللغات هي:

الإنجليزية	English		
لوجاندا	Luganda	لوسوجا	Lusoga
لانيولي	Lunyole	لوسامبا	Lusamaba
سيبي	Sebei	رونيورو	Runyoro
روتورو	Rutoro	رانيا نكوري	Runyan Kore
روكيجا	Rukiga	لوو	Lwo
الاتيزو	Ateso	كاراموجنج	Karamojong
مادي	Madi	كاكوا	Kakwa
لوجبارا	Lugbara	اللور	Alur
كوماني	Comani	هندوستاني	Hindustani

ومع ذلك فقد أعلن الرئيس أوبوتي عام 1967 بأن الأربع عشرة لغة التي كان يذاع بها في ذلك الحين لم تكن ضرورية تماما، وأضاف «ومع ذلك فلكوني في مركز السلطة والحكم فلا بد لي من مراعاة الأحاسيس والمشاعر السياسية Political feelings للسكان ووضعها في الاعتبار عند تشكيل سياسة الدولة.» كل هذا الخليط من اللغات في مساحة من الأرض تبلغ نحو ثلث مليون كيلو متر مربع، وبعدد من السكان يبلغ نحو 10 ملايين نسمة، فكيف الحال على مستوى القارة بمساحة تزيد عن مساحة أوغندا بنحو90 مرة وبسكان يبلغون قدر سكان أوغندا سبعا وثلاثين مرة لا شك أنكم تتصورون حجم المشكلة وضخامتها.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة كل من باسكوم وهرسكوفيت حين يقولان:



-شكل رقم (١٩) المجموعات اللغوية في أفريقية عن:

D. Stamp. “Africa” A Study in Tropical Development, London, 1965, p. 140

«تعتبر أفريقية من الناحية اللغوية من أشد المناطق تعقيدا في العالم. وربما لا ينافسها في ذلك سوى سكان أمريكا الجنوبية، ويقدر عدد اللغات في أفريقية عادة بثمانمائة لغة، بينما تقدرها خريطة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن بنحو 1500 لغة فضلا عن اللغات الأوروبية، غير أننا إذا ذكرنا أن هناك ألف لغة أو اكثر جنوب الصحراء فليس معنى هذا أن هناك ألف جزيرة لغوية كل منها منعزل عن الآخر، وأن أفراد هذه الجزر لا يستطيعون الاتصال ببعضهم، ذلك أن ثنائية اللسان، بل وتعدده كان منتشرا إبان الفترة الاستعمارية، وربما زاد الآن، و يرجع هذا إلى الرغبة في إيجاد نوع من الاتصال عبر الحواجز اللغوية، إن كانت هناك رغبة في إيجاد علاقات تجارية وغيرها.

و يزيد على ذلك أن أنماط الاتصال والسياسات التعليمية قد أعيد تنظيمها بواسطة القوى الاستعمارية والدول المستقلة (5). فكل دولة استعمارية فرضت لغتها كلغة للإدارة وللتعليم وللنخبة من الوطنيين لأكثر من غرض في رأيهم مثل:

1- تيسير الاتصال بين الإدارات الاستعمارية والسكان الوطنيين.

2- نقل الحضارة الأوروبية إلى السكان الوطنيين، ومن الطبيعي أن السبب الأول هو الأساسي، أما الغرض الثاني فهو للدعاية لا اكثر.

ذكرنا أن اللغة عند غالبية الكتاب ليست بعدا أساسيا للقومية فحسب، وإنما هي أيضا مقياس ومعيار دقيق لها، فأين تقع الدولة الأفريقية على هذا المقياس ؟ وما بالك إذا انتقلنا من الدولة إلى القارة ؟ يا للأسف لابد وأن نقرر بأن اللغة قد تكون نقطة الضعف الكبرى في بناء القومية في الجزء الأكبر من القارة، ذلك أن القارة تضم عددا لا حصر له من اللغات واللهجات، وأيا ما كان الرقم الدقيق لعدد اللغات في أفريقية، فهذا في جملته معناه أن أفريقية وحدها تضم نحو نصف لغات العالم قاطبة[6].

ولو نسبنا هذا إلى عدد السكان في القارة، لكان متوسط قوة اللغة الواحدة في إفريقية لا يزيد عن ثلث المليون إن لم يقل، وهذا وحده كفيل بأن يكون عقبة في سبيل التماسك والترابط، ولكن لما كان هناك لحسن الحظ لغات واسعة الانتشار عالية القوة كاللغة العربية فإن هناك بالضرورة ولسوء الحظ لغات تقل كثيرا جدا عن هذا المتوسط النظري.

أفريقية الجنوبية

ويتكلم السكان في أفريقية جنوب خط الاستواء، لغة أو أخرى من 350 لغة تنتشر هناك يطلق عليها البانتو[7] (Bantu)، وهذه المجموعة تدخل ضمن أسرة لغوية واحدة تتشابه جميعا في مفرداتها وقواعدها، و يظهر أنها كلها مشتقة أصلا من لغة واحدة سابقة عليها جميعا يطلق عليها: السابقة للبانتو Proto-Bantu وكلمة البانتو ذاتها معناها الناس. ومن أشهر لغات البانتو لينجالا Lingala وهي اللغة الرئيسة في زائير الآن، و بدأت زائير في اعتبارها لغة رسمية، و يتكلمها أصلا عدة ملايين من السكان، وهي أصلا لغة سكان وسط زائير وانتشرت في البلاد بعد أن أدخل البلجيكيون عددا منهم في الجيش، وانتشروا في البلاد، وانتشرت لغتهم معهم. ومن لغات البانتو أيضا النجوني (Nagoni) في جنوب شرقي جمهورية جنوب أفريقية وتضم مجموعة لغات الزولو، والاكسوزا والسوازي، وهناك البمبا التي يتكلمها عدد كبير من سكان زامبيا، وفي غرب أفريقية تتعدد اللغات ومن أشهرها اليوروبا لغة سكان جنوب غرب نيجيريا ويتكلمها نحو15 مليون نسمة، ولغة الايبو في جنوب شرقي نيجيريا و يتكلمها نحو 9 ملايين نسمة، وهناك الماندي بلهجاتها المختلفة من البمبارا والديولا المعروفة في غينيا وما جاورها والولوف في السنغال، والفولاني التي تنتشر من السنغال إلى شمال نيجيريا، غير أن أكثر اللغات انتشارا في غرب أفريقية بحيث أصبحت لغة تفاهم مشترك[8] هي لغة الهوسا.

أما في شرق أفريقية فهناك العديد من اللغات كالانكولي والسوكوما والبمبا والتونجا غير أن السواحيلية هي لغة التفاهم المشترك.

وإذا عرضنا توزيع اللغات بصورة أخرى يظهر لنا مدى التمزق والتفتت اللغوي، ففي زائير 4 لغات رئيسية بالإضافة إلى ما يزيد على 40 لغة فرعية، بينما في تنزانيا اكثر من 100 لغة ولهجة بين اثني عشر مليونا من السكان، وفي ليبيريا 20 لغة وطنية بين 5 , 1 مليون. ويتكلمون في غانا 34 لغة بالإضافة إلى 15 لغة إضافية يتكلمها الأجانب و يزداد التنوع والاختلاف في أكرا (عاصمة غانا) وضواحيها فقد قام الاجتماعيون بعمل مسح لغوي، فوجدوا في ضاحية المدينة 70 لغة يتكلمها ألفا شخص فقط، كما ظهر أن 69٪ من سكان هذه الضاحية يتكلمون بلسانين، 70٪ لديهم كفاءة في لغة أو

لغتين[9].

وتقوم الإذاعة ببث برامجها بالإنجليزية، بالإضافة إلى بث بعض البرامج كل أسبوع بخمس لغات، وتبلغ نسبة الإذاعة باللغة الإنجليزية إلى ما يذاع باللغات الأخرى1 :3، ترتفع هذه النسبة إلى 1 :14 في الإرسال التليفزيوني.

وفي نيجيريا يتراوح تقدير عدد اللغات بين الخمسين ومائة اللغة، وان كان الرقم الحقيقي مازال مجهولا، وتقوم الإذاعة النيجيرية بالبث باللغة الإنجليزية فضلا عن ثماني عشرة لغة نيجيرية [10].

وهكذا لا يوجد في أفريقية (جنوب الصحراء الكبرى) دولة واحدة موحدة لغويا ربما باستثناء الصومال.

غير أن ثمة نقطة بالغة الأهمية، فلشد ما بولغ في تصوير تعدد وتفتت اللغات في أفريقية جنوب الصحراء، ولكن الحقيقة الموضوعية هي أن كثيرا جدا مما قد يسمى (بغير دقة) لغة هو مجرد لهجة، ولم يباعد بين الألسنة سوى العزلة الجغرافية والبشرية الطويلة، ولهذا فقد يكون عدد اللغات أقل من هذا بكثير، ومما قد نستشهد به في هذا السبيل سرعة انتشار اللغات المشتركة في أجزاء كبيرة وما انتشارها إلا للتقارب في لهجات هذه الأقاليم.

وتتميز هذه اللغات جميعا بأنها غير مكتوبة باستثناءات تعد على أصابع اليد، فهي تعتمد على الرواية، ومن المعروف في أفريقية مثلا أن العقود الشفهية بين الأفراد لها قوة العقود المكتوبة في المجتمعات الأخرى، ولذلك اعتمد التراث في جزء كبير منه على ما يتناقله الرواة من جيل إلى جيل لأنه غير مكتوب. وتقع مسؤولية هذا العمل على أناس معدودين في القبيلة، وهم من كبار السن عادة ويعرفون عند الماندنج مثلا باسم [11] Griots. ولما كان التراث السابق غير مكتوب، يصبح الخطر الكبير الآن في أفريقية المعاصرة واضحا للغاية حيث التطورات السريعة من جانب، ووفاة هؤلاء الكبار من جانب آخر. وكما قال G. Vielliard وهو مؤرخ وباحث اجتماعي في المعهد الفرنسي لأفريقية السوداء «عندما يتوفى رجل مسن في أفريقية فمعنى هذا احتراق مكتبة كاملة».

ورغم أنها غير مكتوبة في معظمها[12]، فإن هذا التراث الشفهي غني بأنواعه، فعلى سبيل المثال يمكن تمييز سبعة ضروب منه لدى شعب اليوريا

في غربي نيجيريا وهي الأساطير، والقصص، والفوازير، والأمثال، والحكم والأغاني والتعاويذ والدوبيت couplets التي تصاحب الاحتفالات الدينية.

و يكن الناس احتراما خاصا لهؤلاء الذين يحفظون الأمثلة ويستعملونها في الوقت المناسب، أما القصص والأساطير فعادة ما تحكي في الليالي المقمرة كما يحدث عند الايبو في جنوب شرقا نيجيريا والتي غالبا ما يكون فيها بطل القصة السلحفاة الذكية وعدوها الفهد. كما أن هذه اللغات غنية بالأشعار التي تنشد في المناسبات المختلفة، وأما المناسبات الاجتماعية كالزواج وولادة الأطفال، والدفن، وعادة ما يصحب إنشاد الأشعار على الموسيقى الرقصات الخاصة بكل مناسبة.

ورغم أن هذه اللغات غير مكتوبة، فهي غنية بمفرداتها، ففي لغة الايبو في جنوب شرف نيجيريا، هناك أربعة أفعال Verbs بمعنى «يأكل» يتوقف استعمال كل منها على نوع الطعام، وهناك 20 كلمة تصف سير الإنسان.

لغات التفاهم المشترك أو لغات التعامل

أ- السواحيلي

إحدى اللغات الرئيسية في العالم أو إحدى اللغات المليونيه... واللفظ السواحيلي مشتق من اللفظ العربي السواحل جمع ساحل، ومعناها هنا سكان السواحل، ويقصد بها السواحل الشرقية لأفريقية و يستخدم اللفظ عامة لكل سكان هذه السواحل، وهم خليط من الأفريقيين والعرب والإيرانيين. و يرجع هذا أن موقع هذا الجز مطلا على المحيط الهندي ومقابلا للسواحل الجنوبية لشبه جزيرة العرب والخليج العربي. وبالتالي نشاط الاتصالات بين الجانبين نتيجة تضافر الظروف الجغرافية في هذه المنطقة من المحيط الهندي. من ثم كانت السواحيلية هي لغة من لغات البانتو الأفريقية، ولكنها استعارت كثيرا من ألفاظ اللغات الأخرى وأهمها العربية والفارسية. وترجع أهميتها كلغة أفريقية إلى أنها أهم لغات شرق أفريقية إذ يتكلمها اكثر من مليون نسمة كلغة أم، فضلا عما يزيد على اثني عشر مليونا آخرين يتكلمونها كلغة ثانية إلى جانب لغاتهم الأصلية، وازدادت أهميتها بعد الاستقلال، حيث أصبحت اللغة الرسمية الحكومية لتنزانيا وكينيا، ويمتد توزيعها الجغرافي ليشمل رواندا و بوروندي Burundi, Rawanda

وحتى شرق زائير أما على الساحل فتمتد من جنوب الصومال إلى شمال موزمبيق. ويمكن أن نضيف أيضا أنها تفهم في موانى البحر الأحمر الجنوبية، وعلى طول سواحل شبه جزيرة العرب وعمان. لهذا الانتشار الواسع كانت السواحيلية هي اللغة التي اتفقت حكومتا كينيا وتنزانيا على أن تكون اللغة الرسمية الوطنية البديلة للغة الإنجليزية بعد خروج بريطانيا، وتستعمل كلغة للتدريس في كل مدارس تنزانيا، ولها مناهجها في جامعات كينيا وأوغندا.

و يبدو أن السواحيلية بأشكالها ولهجاتها المعروفة الآن بدأت في الظهور منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وأخذت بعد ذلك نحو قرنين لتصبح وسيله التفاهم الرئيسية في هذه المساحة الضخمة من القارة، على العموم يرجع أقدم مخطوط سواحيلي إلى عام 1724 م، ولكن من المعروف أن الأعمال الموجودة في هذه المخطوطة ليس من اللازم أن تكون قد ألفت في ذلك التاريخ، أو انتقلت من الأصل العربي الذي سبق أن كتبت به قبل ذلك. و يقسم الباحثون الأدب السواحيلي إلى أدب شفهي وأدب مكتوب، ويحتل الأدب الديني الجزء الأكبر سواء في الأدب الشفهي أو المكتوب، وحتى الكتابات غير الدينية نجد عليها المسحة الإسلامية، و يركز الفلكلور على القصص التي تبرز فيها أعمال البطولة المستمدة من الأساطير القديمة، وأحيانا تكون الحيوانات أبطال هذه القصص مثل الأسد والضبع والعنكبوت والحية والتنين، وكما هي العادة في القصص العربي الإسلامي إذا كان بطل القصة إنسانا فهو في معظم الأحيان مسلم، كما يضم هذا القصص كثيرا من الروايات المقتبسة من قصص السندباد[13].

ومن الواضح أن طبقة التجار في المدن الساحلية كانوا أصحاب الفضل في إدخال كثير من الألفاظ العربية بل والثقافة العربية في الثقافة السواحيلية، لذلك كان الاقتراض من الأفكار العربية والأسلوب العربي يظهر أوضح ما يكون في الفلكلور السواحيلي الذي ينتشر في الحضر حتى ولو كان الأصل غير عربي مثل قصة (الرجل الذي يعرف لغة الحيوان) فيحكى أن رجلا كان له ثور وحمار، وكان الثور يعمل في الحقل على الدوام ويشقى كثيرا، بينما لم تكن مهمة الحمار سوى حمل الرجل، فاشتكى الثور للحمار من التعب الذي يعانيه، فنصحه الحمار بالتمارض، ولما كان صاحبهما

يعرف لغة الحيوان، فقد أخذ يضحك ويقهقه، وجاءت زوجته على قهقهته، وأرادت معرفة سر ضحكه بإصرار، فلما كثرت أسئلتها وازداد إلحاحها ضربها زوجها ونهرها بشدة كيلا تتدخل في شؤونه مرة أخرى.

ومن الواضح أما هذه القصة ليست أفريقية الأصل لان الثور لا يستخدم في الأعمال الزراعية لدى شعب شرق أفريقية وإنما الذي يقوم بالعمل الزراعي هو المرأة الأفريقية مستخدمة المعزقة وهذه القصة مأخوذة عن أصل هندي.

على العموم يمكن تمييز ثلاثة أنماط من القصص السواحيلي وان كانت الحدود بينها ليست واضحة. وتتكون المجموعة الأولى من قصص تنتمي لأصل بانتوي (أفريقي) وغالبا ما تركز على الحيوان مثل قصة القرد والسلحفاة، والسنجورا والضبع والأسد ويظهر في المجموعة الثانية الحبكة القصصية العربية ولكنها مليئة بتفاصيل يمكن إرجاعها إلى التراث الأفريقي مثل قصص «اللصوص الأذكياء» و«السلطان المجنون» و «الصياد والروح الشريرة» إلى المجموعة الثالثة فهي معروفة ومنتشرة في الأوساط العربية مثل القصص الديني الذي يدور حول سيرة الأنبياء، وقصة الخلق، والقصص المرتبط بسكان الحضر مثل قصة «السلطان والصياد»، «محمد والسبعة لصوص» وهذا النوع الأخير صارت جذوره عميقة في الأدب الروائي السواحيلي، بل أن الأدب الحديث اصبح يستقي مادته من هذه الموضوعات القديمة، فالأديب السواحيلي المعاصر شعبان روبرت كتب قصة «عديلي وأخواته» معتمدا على قصة «عبد الله بن فضل» إحدى قصص ألف ليلة وليلة.

كذلك تعرف السواحيلية الشعر والملاحم الأدبية، ولعل الشعر هو اكثر الضروب الأدبية دراسة في الأدب السواحيلي، إذ نشرت فيه دراسات عديدة، و يتضح فيه الأثر العربي والإسلامي، ويحمل بحران من بحوره الأربعة أسماء عربيه وهي المشارى والرباعي، أما البحران الآخران فأسماؤهما سواحيلية وهما نيمبو Nyimbo أي الأغاني، والتنزي Tenzi و يعتبر النيمبو أو شعر الأغاني حقلا جيدا سواء لدارسي الأدب الشفهي للسواحيلية أو للأنثروبولوجيين، بينما شعر التنزي اكثر الأشعار انتشارا أو تعبيرا لدى السواحيليين هو شعر القصائد الدينية التي قد تبلغ في بعض الأحيان

مئات الأبيات، و يتضمن عادة المواعظ والعبر[14].

أما الشعر السياسي والذي يطلق عليه المشارى فمجاله المناقشات والمجادلات ومن أشهر شعراء المشارى الشاعر الوطني مويكا بن الحاج غاسريني (1776- 1840) ومن الشعراء والكتاب الأكثر حداثة شعبان روبرت الذي يكتب في السير الذاتية وقصص الأطفال، ومنهم أيضا الشيخ كالوتا عمري عبيدي وفي تاريخنا المعاصر نذكر كتابا يعتبرون أعلاما في الأدب السواحيلي مثل احمد ناصر الذي حاز جائزة كينياتا في الأدب لعام 1972 وإبراهيم حسين الذي كتب كثيرا من التمثيليات، ولا ننسى أن الرئيس نيريري قد ترجم بعضا من روايات شكسبير إلى السواحيلية.

وقد استعملت السواحيلية الحروف العربية في كتابتها أول الأمر، ورغم استعمال الحروف اللاتينية في كتابتها الآن فان الألفاظ العربية واضحة فيها مثل:

Adui = عدوى

Alfagiri = الفجر

Asali = عمل

Boustani = بستاني

Elfu = ألف

Ama = أما

Asubuhi = الصبح

Baadi = بعدى

bila = بدون (بلا)

Dakika = دقيقة

Faida = فائدة

Ghali = غالى (مرتفع السعر)

Hakika = حقيقة

jaribu = جرب

Kablaya = قبلي

Kalamu = قلم

Kingereza = إنجليزي

Adabu = الأخلاق

Afya = صحة-عافية

Arobini = أربعين

Baluri = بلور

Dawa = دواء

Adhuri = الظهر

Askari = عسكري

Baada = بعد

Bata = بطة

Chai = شاي

Edashra = إحدى عشر

Farasi = فرس

Hadithi = قصة

Ja = أتى-جاء

juma = جمعة

Kahowa = قهوة

Kata = قطع

Laini = لين-ناعم	Kitabu = كتاب
Lugha = لغة	Lazima = ضروري-لازم
Safari = رحلة	Maana = معنى
Salamu = سلام	Labika = لبيك

ويظهر اثر اللغة العربية أيضا في شخصيات القصص السواحيلي مثل السلطان، البدوي الوزير، التاجر، السقا، بل أخذت بعض الكلمات السواحيلية تحل محلها كلمات عربية مثل «بدلا من صص موتا موجا».

ب- الهوسا

والهوسا من ناحية الأصل هي اسم لغة قبل أن تكون اسم قبيلة أو جماعة معينة، ثم أصبحت بعد ذلك علما على معظم سكان شمال نيجيريا وما جاورها من النيجر.

ومع ذلك لا يمكن فهم الانتشار الواسع للغة الهوسا في غرب أفريقية إلا بفهم طبيعة الموسا أنفسهم. فهم يعيشون على الزراعة المعتمدة على المطر في المكان الأول. ولما كان هناك فصل جفاف طويل، فقد اتجه كثير منهم في هذا الفصل إلى حرفة التجارة، وقطعوا نتيجة لذلك مسافات طويلة حتى بلغوا سواحل غرب أفريقية فتجدهم في غانا كما تجدهم في داهومى وساحل العاج وغيرها، يعيشون كجماعات خاصة في أحياء خاصة بهم يطلق عليها سابونجاري Sabongari في ايبادن في جنوبي نيجيريا. وتخصصوا في تجارة سلع معينة كثمار الكولا وتجارة الماشية، ومن هنا انتشرت لغتهم معهم أينما ساروا، ولغتهم من أهم لغات غرب أفريقية بعامة، فهي اللغة الأم لما يتراوح بين 15 , 20 مليون نسمة بالإضافة إلى 15 مليونا آخرين ليسوا من الهوسا، ومع ذلك يتكلمونها رغبة من الإدارة الاستعمارية في تنميتها كلغة تفاهم مشترك لكل الإقليم الشمالي من نيجيريا. وقد ترجمت هذه الرغبة إلى سياسة رسمية لهذا الجزء من البلاد، فقد جاء في التقرير السنوي عن التعليم لعام 1934 بأن لغة التعليم هي الهوسا في معظم القسم الشمالي، وحيثما كانت هناك لغة أخرى يبدأ بها، فان الهوسا أيضا يبدأ تعليمها كلغة، ولا تلبث أن تصبح لغة التعليم قبل نهاية العام، والمحصلة النهائية اليوم أن الهوسا أصبحت تنتشر انتشارا واسعا في

اكثر من نصف مساحة نيجيريا، وفي كل الولايات الشمالية كانت هي اللغة الرسمية إلى جوار اللغة الإنجليزية حتى عام 1966، بل والظاهرة اللغوية هناك هي ذلك العدد الكبير من غير النيجيريين الذين يتكلمونها بطلاقة، فعليهم أن يحيدوها حتى يصبح في إمكانهم العيش اقتصاديا واجتماعيا في ذلك المحيط، هذا بينما لا توجد لغة في الجنوب لا يتكلمها غير النيجيريين.

ولا يمكن لأي لغة من لغات جنوب نيجيريا أن تحتل نفس المكانة التي للهوسا في الشمال ويرجع هذا إلى أن الشمال كان يعتنق الإسلام قبل ظهور الأوروبيين، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال أمام البعثات التبشيرية لتعمل في الشمال(15).

ولغة الهوسا غنية بالتراث غير المكتوب، أي بالتراث المحفوظ، فهناك قصص الحيوان والأساطير العديدة التي تعطي تفسيرا لكثير من الأحداث التاريخية. أما الهوسا المكتوبة فقد بدأت منذ نحو قرنين مستعملة الحروف العربية، و يطلق على هذا النوع أعجمي Sabongari كما في كتابات وروايات الحاج أبو بكر إمام.

وهذه تميز عن الهوسا التي كتبت بالحروف اللاتينية والتي استعملها بعض الكتاب المحدثين ويطلق عليها بوكو Boko وتعرف لغة الهوسا شعر«واكا» ويطلق هذا اللفظ أيضا على الأغاني وعادة ما يتغنى بالشعر، فهذا أمر من تقاليد الهوسا، وتتعدد أبواب الشعر من المدح «يابو» لمن يجزل العطاء أو الشعر الهزل (Zambo) وقد يكون خاصا بالصيد أو الزراعة أو حتى الشعر السياسي.

و يستعمل المنشد بعض الآلات الموسيقية التي تصاحب الغناء كالطبل والربابة (الكمان)،والتأثيرات الثقافية على الهوسا ولغتهم من جانب اللغة العربية والإسلام كبيرة للغاية، و ينعكس هذا بصورة خاصة في اللغة، ذلك أن اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة الإسلام الذي يدين به الهوسا جميعا ويتضح هذا في بعض الألفاظ مثل:

Alada = العادة	Adali = العدل
Alhamis = الخميس	Alama = علامة
Altajiri = التاجر	Alla = الله

Alif = ألف	Albashiri = البشير
Hamsin = خمسون	Arbain = أربعين
In Shaalla = إن شاء الله	Hosara = خسارة
Zube = صب	jumaa = الجمعة

أفريقية الشمالية

ويختلف الحال في أفريقية الشمالية فهنا نجد اكثر اللغات انتشارا في القارة بصورة عامة اللغة العربية، حيث تكاد تغطي اللغة العربية كل أفريقية الشمالية ومساحة ضخمة من الصحراء الكبرى حتى إقليم السفانا Savanna، وتصل بذلك إلى منحنى نهر النيجر والى نهر السنغال، وبذلك يتكلمها ما يقرب من مائة مليون نسمة أو نحو ثلث سكان القارة الذين يسكنون ثلث مساحتها، بينما تنتشر بقية اللغات التي ذكرناها في الثلثين الآخرين، وفي هذا النطاق لا نجد لكل وحدة سياسية لغة قومية، وإنما فرشة لغوية واحدة تغطي هذه المساحة. واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية التي انتشرت في شبه جزيرة العرب، وكذلك على الجانب المقابل من أفريقية، فالأمهرية والتجرينية في أثيوبيا هي من مجموعة اللغات السامية، و يبدو أن اللغة المصرية القديمة قد انطبعت بدورها بالطابع السامي منذ زمن قديم جدا وكان هذا نتيجة هجرات قديمة بحكم الجوار، ومن ثم يمكن القول بأن اللغات السامية ومنها العربية كانت أفريقية تعرفها قبل الإسلام، وان كان الانتشار الواسع لها قد تم بعد ظهور الإسلام في القارة.

فمن الأخطاء التي سارت زمنا أن دخول العرب أفريقية يرجع إلى فترة الفتح العربي الإسلامي على يد عقبة بن نافع فحسب، بل حدثت موجة في أوائل النصف الثاني من القرن السابع الميلادي كان معظمها من الخوارج الذين هزمهم علي بن أبى طالب فهربوا إلى تونس ولا تزال سلالتهم إلى الآن في جزيرة جربا وفي الواحات الجنوبية، أما موجة الفتح العربي فكان لها اثر اكبر في نشر اللغة العربية والإسلام، فقد جاست جيوش العرب البلاد من الشرق إلى المغرب إلى أن تم الاستيلاء عليها وطرد الرومان وكانت الجيوش العربية تتألف من الرجال دون النساء، فلما استقروا تزوجوا من نساء البربر، ونشروا العربية والإسلام، وكانت عاصمتهم في القيروان

التي أسسها عقبة بن نافع عام 760 م، كما كان لوالي المغرب خليفة في طنجة.

وكانت الموجة الأخيرة والكبرى هي موجة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر (1045م) حين سمح الخليفة المستنصر لهذه القبائل بأن تتخذ طريقها إلى بلاد المغرب انتقاما من قبائل صنهاجة، لأنها خطبت باسم الخليفة العباسي، ووصل بنو هلال حتى الصحراء الغربية (ريود ورو) ومنهم من احتل سهول الأطلنطي في المغرب، ومن احتل المناطق الداخلية من فاس إلى مراكش، وهكذا انتشرت العربية والإسلام واصبح كثير من المساجد جامعات إسلامية، كما في فاس وتونس والقيروان [16].

وهكذا كانت الوحدة اللغوية هي نواة فكرة الوحدة العربية. و يرجع انتشارها إلى الانتشار العربي في القارة وكذلك انتشار الدين الإسلامي، فهي لغة الدين أيضا، من ثم نجد المسلمين الذين لا يتكلمون العربية يرددون القرآن باللغة العربية في عبادتهم، وفي الغالب يعرفون العربية إلى جانب لغتهم الأصلية كما هو الحال عند قبائل البجا في شرق السودان وشمال شرقي أثيوبيا وعند بربر الجزائر والمغرب، وهي لغة أساسية في الصومال يتعلمها طلبة المدارس إلى جانب الصومالية، وإذا كانت أفريقية العربية وحدة لغوية متجانسة فليس معنى هذا أنها تخلو تماما من الأقليات اللغوية، ولكن هذه الأقليات اللغوية ضئيلة من ناحية العدد، هامشية من ناحية التوزيع فهي على الأطراف أو الجزر، تراجعت أمام العربية كالبربرية التي تظهر أحيانا في واحات الصحراء أو جزيرة جربة في تونس أو في السفوح المرتفعة كما في جبال أوراس والقبائل.

ويتكلم البربرية في تونس١٪ من مجموع السكان، وتصل نسبتهم في الجزائر إلى 15٪ ترتفع في المغرب إلى 20٪ فضلا عن أن هناك 14٪ يتكلمون العربية والبربرية، ومن الدول الواقعة على أطراف الصحراء والتي تعتبر فيها العربية اكثر اللغات الوطنية انتشارا موريتانيا وتشاد، فانتشارها في موريتانيا لا يقل عن انتشارها في المملكة المغربية، ذلك أن اللهجات البربرية المختلفة هي وسيلة التعامل المحلية عند حوالي ثلث سكان موريتانيا، بينما الغالبية تستخدم العربية بل إن نصف بربر موريتانيا يمكنهم التعامل في أمور الحياة العامة باللغة العربية، ونفس هذا الموقف يتكرر في كل المنطقة

الممتدة من السنغال ومالي إلى تشاد، وأهم تجمع بشري في هذه المنطقة يتعامل باللغة العربية في تشاد حيث تعتبر اللغة العربية هي اللغة الأم لنحو 60٪ من السكان، بينما لا يزيد نصيب اللغات الأخرى مجتمعه على 40٪ من سكان البلاد(17).

وعدا البربرية على حدود المغرب الكبير توجد أقليات لغوية أخرى كالطوارق (لغة تفناغ) الذين يبلغون بضع عشرات من الآلاف على حدود الجزائر وليبيا الجنوبية، كما تعيش جماعات التبو على حدود ليبيا الجنوبية، وتنتشر اللغة النيلوتية Nilotic في السودان الجنوبي.

وقد لعب الاستعمار دورا خطيرا في منع تسرب اللغة العربية كما حدث في السودان الجنوبي حيث منع هجرة العرب وحركة التجارة نحو الجنوب، وبذلك وقف سدا أمام انتشار العربية تمهيدا من وجهة نظره للتفتيت على اعتبار أن اللغة ركن أساسي من أركان القومية، وأحيانا يوصى بأن اللغة العربية لا تصلح كلغة عالم، وان لغة العلم والحضارة هي اللغات الأوربية لان اللغة العربية لن تسعف في ألفاظها و بالتالي إذا أرادت الدول الأفريقية (التي لا يتكلم سكانها العربية) لغة رسمية لها فخير لها أن تستعير لغة أوروبية، ولكن نود أن نتساءل من أين استمدت الحضارة الأوربية الحديثة جذورها وغذاءها الأول الذي به وعليه نمت وتطورت إلى شكلها الحالي؟ وعن أي طريق عرف الغرب المفكر الأفريقي وحضارة الهند وفارس؟ إن هذه لم تنقل إليهم إلا عن طريق العربية، ولم يكن العرب نقلة حضارة فحسب بل أضافوا الكثير، ويكفي أن لوغاريتهم في علم الجبر هو نسبة إلى الخوارزمي، كما يكفي أن نشير إلى الحسن بن الهيثم في الطبيعة وجابر بن حيان في الكيمياء وغيرهما. وهكذا تنتفي فكرة أن اللغة العربية لا تصلح لغة للعلم.

وقد أثرت اللغة العربية في اللغات الأوروبية فكلمة Algebra هي الجبر بالعربية بل وتعدى ذلك إلى بعض الأسماء مثل Andrew فهي إدريس بالعربية و(Joseph) هي يوسف، و(Jacob) هي يعقوب، وهذه بدورها أصابها تعديل في لغة الهوسا فأصبحت (Yakubu) وقد سبق عند الكلام عن اللغة العربية أن رأينا كيف أن بعض اللغات الأفريقية قد تأثرت بها. وأخيرا يمكن أن نختتم الكلام عن اللغة العربية بالاستعانة بما قاله واحد من أهم من عكفوا

على دراسة اللغات الأفريقية وهو جوزيف جرينبرج، عن أثر كل من اللغة العربية واللغات الأوروبية في لغات أفريقية جنوب الصحراء، فيقول. إن الأثر الإسلامي استمر يلعب دوره مدة طويلة من غير انقطاع، بحيث صاغ إلى حد كبير أنماط الحضارة عند الشعوب الزنجية في السودان بأسره وفي الكثير من أجزاء أفريقية الشرقية حتى انه تغلغل في جهات أخرى تقع جنوب هذه الأقاليم، وقد انعكس هذا في كلمات مستعارة كثيرة من أصل عربي حتى بين الشعوب غير الإسلامية والسؤال الآن: كيف انعكس أثر الأوروبيين في اللغة وهم الذين احتكوا بالأفريقيين في القرون الأخيرة؟ على الأرجح هو أثر صغير إذا ما قورن بأثر اللغة العربية(18). ولا ننسى أيضا أن اللغة العربية تجمع بين الصفتين اللتين قسم إليهما الباحثون لغات العالم وهما: ما يعد لغة قومية National Language وما يعد لغة ثقافية Cultural Language

النوع الأول تختص به شعوب معينه كاللغة السويدية أو النرويجية أو الرومانية، ومعظم لغات العالم من هذا النوع. والنوع الثاني يتميز بكثرة ما ألف به من المعارف الإنسانية مما يغري الآخرين بتعلمها واللغة العربية من هذا النوع.

الرجوع إلى الشخصية الأفريقية وضرورة التوحيد اللغوي

الشخصية الأفريقية عبارة أخاذة نطق بها دكتور كوامي نكروما رئيس غانا في اجتماع مؤتمر كل الشعوب الأفريقية. All African People‘s Conference المنعقد في ديسمبر سنه 1958، وكانت لاشك لها معنى ومغزى كبير، فقد كانت جدران قاعة ذلك المؤتمر في أكرا تضم كل أفريقية باستثناء غامبيا والسودان. جلس مندوبو الشعوب الأفريقي ينصتون و ينتظرون ما يوحد بين شعوبهم، وعندما هز التصفيق جدران قاعة المؤتمر أحس المجتمعون بشعور جياش وقد غمرهم إحساس بالكثير الذي يشتركون فيه، وهو الشخصية الأفريقية وهي شيء كان يعبر عن آمالهم جميعا وعن متاعبهم ومشاكلهم وعن غضبهم من ظلم العالم الخارجي.

ويقول Ezekiel Mphahlele ذلك الشاب الذي كان يعمل معلما في جنوب أفريقية ونفى إلى خارج البلاد هو ومائتا معلم لاحتجاجهم على سياسة

تعليم البانتو في أثناء لجان المناقشة، كنا نقترب من بعض أكثر فاكثر في محاولة ليفهم كل منا مشكلات الآخر، وقد وجدنا في هذا عامل توحيد بيننا، وقد تردد صدى الرغبة في الحرية التي أعلنها كوامي نكروما، ابتغاء الاستقلال السياسي، واخترق كل الحواجز الثقافية والعرفية وغيرها من عوامل الفرقة، وخرج المؤتمرون بحماس شديد وطموح كبير، ومنذ ذلك الوقت أصبحت فكرة الشخصية الأفريقية شبيهة بأسطورة لها جلالها وعظمتها.

ولكن إذا ناقشنا مفهوم الحرية لمدى الشعوب الأفريقية المتعددة التي حضرت المؤتمر من نيجيريا وغانا وسيراليون وأوغندا وروديسيا الشمالية، (زامبيا) فان الأمر يختلف، ففي نياسا لاند (ملاوي) لم تكن هناك مشكلة المستوطنين، إذ لم تتعد المساحة المخصصة للبيض فيها 4٪ من مساحة البلاد، وكذلك الحال في روديسيا الشمالية حيث لم يحتل المستوطنون سوى5 ,2٪ من مساحة البلاد، أما في كينيا وتتجانيقا (تنزانيا) وروديسيا الجنوبية حيث المجتمعات المتعددة، وحيث تريد كل جماعة أن تكون ممثلة في الحكومة بحجم مناسب، فيصبح من غير المعقول طرد الهنود أو الأوروبيين أو بمعنى آخر طرد الجاليات الوافدة أو إذلالها، من ثم حين يطالب سكان غرب أفريقية بالحرية فهم يعنون بذلك الاستقلال وقيام حكومة أفريقية، ولكنها بالنسبة لبعض الأحزاب في كينيا حينذاك كان مفهومها قيام حكومات الأغلبية، أي حكومة يتولاها الأفارقة لا المستوطنون البيض وبالنسبة لبعض الأحزاب الأخرى في كينيا تعني الحرية السياسية لجميع العناصر العرقية، وإقامة حكومة أغلبية، وذلك على أمل أن تكون الحكومة في النهاية غالبيتها من الأفريقيين لانهم يمثلون الأغلبية ومن ثم تكون حكومة غير عرقية، وتعني الحرية في جنوب أفريقية شيئا آخر وهو قيام حياة غير عنصرية أساسها مجتمع خال من التمييز العنصري يتم فيه الانتخاب على أساس صوت واحد لرجل واحد سواء كان أبيض أو أسود وتمتزج في ذلك المجتمع جميع الفئات بحيث لا يصبح هناك مجال للكلام عن الأقليات.(19)

وهكذا فالقاسم المشترك الأعظم بين الأقطار الأفريقية أنها كانت في مرحلة التحرير وحاولت الاستقلال، ونجحت في طرد الاستعمار، وسعت إلى تصفيته لدرجة أن هناك اتفاقا عريضا بين الكتاب على أن أساس

حركة القومية الأفريقية هي رد الفعل والوعي بالذات ضد الاستعمار الأبيض، يشترك في هذا الكتاب الأفريقيون والأجانب، فالزعيم الأفريقي سيتولى Sithole يقول بأن أفريقية تدين بروح الوطن أو الروح القومي للاستعمار الأوروبي «فهو الذي عبأ الشعور وخلق الوعي بالذات بين الأفريقي وجمع بين شتاتهم القبلي تحت هدف واحد» [20]. وفي الحقيقة كان مجرد الوجود الأوروبي هو أول مفجر للقومية الأفريقية، وكقاعدة عامة فإن الوعي بالذات وبالجماعة لا يبدأ جديا إلا حين تجد الجماعة نفسها فجأة وجها لوجه أمام جماعة أجنبية مختلفة كل الاختلاف، والمقاومات المبكرة سجلها تاريخ القارة لبعض القبائل في داهومي في التسعينات وفي روديسيا في التسعينات أيضا تحت قيادة الميتابيلي. Mitabele

وليس هذا عيبا على أية حال، يقرر الجغرافي البريطاني سير هالفورد ماكيندر[21] Sir Halford Mackinder «انه لم ينقل أوروبا الوسيطة من مرحلة القبائل إلى الشعوب. ولم يخلق الشعور بالقومية والوعي بالذات إلا الأخطار الخارجية الثلاثة التي أحدقت بشبة جزيرة أوروبا، التتار، من الشرق والفايكنج من الغرب والعرب من الجنوب.»

يقول الجغرافي الامريكي كمبل Kimble «إن معاداة الاستعمار لا تمثل في ذاتها أساسا لبناء دولة وطنية، بل إن إقامة مثل هذه الدولة يزيل مباشرة الأساس الذي أقيمت عليه»[22].

إن ما كانت تسعى إليه الدول الأفريقية قبل التحرر هو رد الاعتبار السياسي والاقتصادي والثقافي وإذا كان رد اعتبار السياسي قد تحقق فلن يقل عنه أهميه رد الاعتبار الاقتصادي والثقافي، أو بعبارة أخرى إزالة الصبغة الأوروبية والعودة إلى اللون الأصلي وتأكيد الشخصية الأفريقية والكيان الذاتي أو إعادة افرقة أفريقية.

ولعل من أبرز مظاهر السعي إلى إعادة الصبغة الأفريقية من الناحية الثقافية البحث في التواريخ القومية وإعادة كتابة التاريخ الأفريقي بأيدي الأفريقيين، وفي اللجنة العلمية الدولية التي تم تشكيلها في عام 1971 تحت إشراف اليونسكو اتفق الأعضاء على إصدار ثمانية مجلدات عن تاريخ أفريقية العام، وكان فيها المؤرخون الأفريقيون الذين يشكلون ثلثي أعضاء اللجنة البالغ عددهم 30 عضوا، كما رشحت اللجنة ثمانية من العلماء

والمؤرخين الأفريقيين كمحررين للمجلدات حتى ينظر إلى هذا التاريخ من الداخل.

بمعنى أن هذا التاريخ سيكون إلى حد كبير تعبيرا عن تقدير الباحثين الأفريقيين لحضارتهم، و بذلك يمكن الكشف عن الوجه الحقيقي لأفريقية، كذلك كان تأكيد الشخصية الأفريقية بمجابهة عقدة اللون بالفخر والاعتزاز، لدرجة أن مهرجان الفنون والثقافة الأفريقية الذي عقد بداكار أطلق عليه مهرجان الفنون والثقافة للسود في أفريقية والعالم:

Black and African festival of Arts and Culture

تأكيدا على السواد، وأنه ليس مما يجلب العار. ويمكن أن نضيف إلى هذا في إعادة الشخصية الأفريقية زوال لغة المستعمر والبحث عن لغة أو لغات إفريقية.

لقد كانت القارة تتطلع إلى الخارج اكثر من الداخل في السياسة كما في الاقتصاد وكذلك في الثقافة، وكان الاستعمار يقوم بتوجيهها لحسابه، و يغلقها عن العالم الخارجي، وكان العالم الخارجي بالنسبة لها هو الدولة المستعمرة الأم كما قد يقولون، وان كانت أما غير شرعية !! والواقع أن تطور القارة أخذ في التاريخ خطا عكسيا فمعظم الدول في القارات بدأت علاقتها المكانية أولا فيما بينها، ثم بعد أن ترابطت خرجت إلى مرحلة أوسع، على عكس الوحدات الأفريقية التي أعطت ظهرها بعضها للبعض الآخر، وولت وجهها شطر بريطانيا وفرنسا وأسبانيا و بلجيكا والبرتغال..الخ.

الاستعمار الثقافي:

إن كان هذا صحيحا سياسيا واقتصاديا، فقد كان اكثر صحة ووقعا من الناحية الثقافية بعامة، واللغوية بخاصة، فقد ظهر أن الدولة الاستعمارية حين تضع يدها على إقليم من الأقاليم يكون من أول أهدافها نشر لغتها عن طريق جعلها لغة الإدارة الاستعمارية، وجعل لغته هي لغة الإقليم الجديد ليحصل على بعض الكتبة وصغار الموظفين لمعاونة كبار الموظفين من الأجانب، واعتمد في هذا على البعثات التبشيرية، فالتعليم في أنجولا مثلا الذي كانت تقوم به هذه البعثات وعرف باسم Ensino de adaptacao يقضي بإعطاء برنامج أولي مدته ثلاث سنوات في اللغات البرتغالية، والطريف أن

البرتغاليين في تقسيمهم لسكان المستعمرات كانوا يقسمونهم إلى وطنيين Indigna في طرف والبرتغاليين في طرف آخر، والى فريق ثالث من الوطنيين وسط بينهما أطلقوا عليهم المندمجين Assimilado وهم الوطنيون الذين يمكن أن يصبحوا مواطنيين برتغاليين، وأحد شروط هذه المواطنة معرفة اللغة البرتغالية.

الكمرون نموذج لمستعمرة لغوية:

إذا أخذنا دولة كالكمرون كمثال سنجد أن موقعها الجغرافي عند التقاء غرب أفريقية بوسطها، من ثم كانت ملتقى لشعوب أفريقية متعددة، ففي جنوبها نجد لغات البانتو التي تمتد حتى كيتون أي إلى أقصى طرف جنوبي للقارة، بينما إلى الشمال الغربي نجد امتداد مجموعات اللغات السودانية، ولغة الفولاني في شماليها، والتي تمتد بدورها حتى تبلغ السنغال، هذا فضلا عن لغة الطقات Clicks عند الأقزام، فتجتمع في الرون إذن مجموعة من اللغات فما بالك باللهجات ! وأصبح من المستحيل من خلال لغة أفريقية واحدة إيجاد وحدة الفكر، وأصبح كما يقول بعض الكتاب ليس أمام مثل هؤلاء من خيار في تحقيق. الوحدة إلا عن طريق لغة غير أفريقية، عن طريق لغة أجنبية، و يزيد على هذا أن الكرون خضعت للاستعمار الألماني والاستعمار الإنجليزي والاستعمار الفرنسي، وإذا كان الاستعمار الألماني قد اختفى عقب الحرب العالمية الأولى، و بالتالي اختفت لغته بعدها، فقد أصبحت الكمرون اليوم من الناحية الرسمية ذات لسانين إنجليزي وفرنسي.

وفي الحق أن التأثير اللغوي الأوروبي في الكمرون يعتبر نموذجا طريفا لما كان يحدث عقب استعمار إحدى الدول الأوروبية لجزء من القارة.

كان أول اتصال للكمرون بالعالم الغربي في نهاية القرن الخامس عشر، أو على وجه الخصوص عام 1472 حينما وصل فرناندو جوميز أحد أغنياء التجار البرتغاليين إلى خليج غانا (غرب أفريقية) ودخل بسفنه مصب نهر الكمرون فوجدها مليئة بالروبيان (الجمبري) فأطلق عليه نهر الروبيان Rio dos Camaro، ولكن لم يؤسس البرتغاليون لهم قاعدة في الرون وفضلوا اتخاذ قاعدة لهم في إحدى الجزر القريبة وهي ساوتومي، وبعدها اكتشف العالم الجديد ونشطت تجارة الرقيق، و بدأت سفن المغامرين من الدول



- شكل رقم (20) اللغات الرئيسية في الكمرون عن:

Fanlon, B. The Language Problem in Cameroon, comparative Education, vol 5, no. 1. 1969.

الأوروبية تتوافد على الإقليم كالهولنديين الذين أسسوا مركزا تجاريا عند مصب نهر الكمروز، والسويديين والدانمركيين والفرنسيين والبريطانيين، ومع مضي الوقت حلت كلمة كامارونز Camarones الأسبانية محل كاماروز البرتغالية، و بعد ذلك ثبتت كلمة كامارونز Camaroons الإنجليزية، والتي أصابها تعديل طفيف وأصبحت كامرونز Cameroun الحالية وتطورت المساحة التي أطلق عليها هذا الاسم من النهر، إلى السهل الساحلي بأكمله، ثم امتدت لتشمل الجبل المجاور ثم إلى ما وراءه، واشتقت من هذه التسمية كلمة (Kamerun) الألمانية، و(Cameroun) الفرنسية. وقد قررت الحكومة في دستور 1961 أن يكون اسم الدولة Cameroun بالفرنسية، و Cameroon بالإنجليزية إسقاط حرف أل S من نهاية سطر الكلمة (23 (بدأت الحكومة الألمانية تخطو خطواتها الأولى لاحتلال الكمرون في أوائل عام 1883 ورفع العلم الألماني في يوليه 1884 بعد عقد اتفاقيات مع رؤساء القبائل ثبتوا بها الحكم الألماني.

و باحتلال الألمان للكمرون أصبحت هناك مشكلة التفاهم بين الحكام الجدد والوطنيين، وكانت الإدارة الألمانية مجبرة في المرحلة الأولى على استخدام اللغة الإنجليزية و يبرر هذا أنها مرحلة انتقالية، ولضآلة أعداد من دخلوا المدارس وتعلموا الإنجليزية، فضلا عن خروج القبائل من عزلتها واشتراك آلاف من السكان في النشاطات الاقتصادية الجديدة ولم يجمع بينهم لسان واحد، من ثم كانت الرطانة الإنجليزية هي الحل الوحيد لهذه المشكلة. هكذا كان الموقف حينما ضمت الكمرون كمستعمرة ألمانية، وكان على الحكومة الألمانية اتخاذ موقف ما حيال قضية اللغة، ولكن البعثات التبشيرية كانت أسرع واكثر حسما من الحكومة، فبعد الاحتلال الألماني انسحبت البعثات التبشيرية الإنجليزية، وحلت محلها البعثات التبشيرية الألمانية والسويسرية، وانتشرت في الداخل وأخذت تعلم اللغة الألمانية ولغة دوالا الوطنية، وحتى عندما قررت البعثة التبشيرية الأمريكية البقاء في جنوب الكمرون كان عليها أن تستبدل اللغة الألمانية باللغة الإنجليزية. وهكذا زحفت البعثات التبشيرية في أرجاء الكمرون ناشرة المسيحية واللغة الألمانية.

وبعد أن وطدت ألمانيا نفوذها، دخل عامل آخر ساعد على نشر اللغة الألمانية إلى جانب الكنيسة والمدرسة والتجارة وهو الإدارة، وأخذت اللغة

الألمانية تصبح محور المقررات الدراسية في المدارس التي أنشأت، بل وكثفت هذه الدراسة لتدعيم النفوذ الألماني ولتسهيل الإدارة والتجارة والاتصال. واتجهت السياسة نحو اقتلاع اللغة الإنجليزية واستنبات الألمانية محلها والحد من اللغات العامية المحلية، وذلك بصدور مرسوم حكومي بألا تستعمل البيوت التجارية غير الألمانية لغة للتعامل، فضلا عن استخدام النقد الألماني وأساسه المارك لمدفوعات الحكومة الألمانية. وشجعت الحكومة الألمانية تعلم الألمانية في المدارس باجزال المساعدات لمدارس البعثات التبشيرية، ويختلف الدعم بحسب كفاءة الطلاب في اللغة الألمانية، هذا فضلا عن مكافآت نقدية كانت تمنح للطلاب المتفوقين الذين، يثبتون تفوقا في الألمانية قراءة وكتابة ومحادثة، بل وأتاحت الفرصة للممتازين منهم أن يكملوا تعليمهم للغة الألمانية في ألمانيا ذاتها على نفقتها، وعقد أول مؤتمر رسمي للتعليم عام 1907 في دوالا عاصمة البلاد، وكان الموضوع الرئيسي المطروح للبحث هو دراسة اللغة في lالمدارس، وأوضحت الحكومة سياستها بوضوح، وهو الحد من استعمال اللهجات العامية للغات الأفريقية خارج حدود القبيلة، وزادت شعبية اللغة الألمانية بين الكمرونيين مع زيادة النشاط الإداري، والعسكري، والتجاري، والزراعي، والخدمات الألمانية بل إن التعيين في الوظائف الحكومية والترقية فيها ارتبط بإجادة اللغة الألمانية، و بدأت الألمانية تصبح لغة اجتماعية بين الطبقة المتعلمة من مختلف القبائل الكمرونية في العقد الأول من القرن العشرين وقد عبر عن هذا الأب Hermann Skolaster بقوله: كانت اللغة الألمانية هي المغنطيس الذي جذبهم، فقد رغب الوطنيون في أن يتكلموا و يسمعوا و يفهموا لغة أسياد البلاد[24].

Die deutsche Sprache War der Magnet, der sie anzog, Der neger wollt den Herrn des lands sprechen horen. Verstehen

غير أن انتهاء الحرب العالمية الأولى جاء معه بنهاية السيادة الألمانية على الكمرون واقتسمتها فرنسا و بريطانيا ولكن بقسمة غير متساوية، فحصلت فرنسا على أربعة أخماس البلاد، وحصلت بريطانيا على الخمس الباقي والملاصق لنيجيريا، ومع دخول الحلفاء إلى الكمرون حدث شيء مخالف لما حدث عندما اخضع الألمان الكمرون لحكمهم، فقد اختفت اللغة الألمانية بين يوم وليلة من الإدارات الحكومية والبيوت التجارية والكنائس

والمدارس.

وقام الفرنسيون بحيوية واندفاع بالغين لإحلال اللغة الفرنسية التي يعتبرونها على حد قولهم الباب المفتوح على الثقافة والتقدم.

"La porte ouverte vers la culture. Vers le progres"

فحلت البعثات التبشيرية الفرنسية كاثوليكية أو بروتستانتية محل الألمانية، و بدأت بتعليم الفرنسية للطلاب والمعلمين معا، ولم تدرس الفرنسية كلغة قائمة بذاتها، بل أصبحت تدرس بها المواد الدراسية الأخرى من اليوم الأول للدراسة، وإذا كانت المدارس الثانوية الفرنسية لم تظهر في الكمرون في فترة ما بين الحربين، فإنها انتشرت بكثافة في الفترة ما بين انتهاء الحرب الثانية وحصول الكمرون على استقلالها، وزاد من انتشار اللغة الفرنسية ازدياد الوجود الفرنسي، فقد هاجر عدد كبير من الفرنسيين إلى الكمرون وعاشوا فيها، وزادت اتصالاتهم اليومية بالسكان، هذا فضلا عن إتاحة الفرصة أمام النابغين للدراسة في فرنسا، في ظل برنامج ضخم للمنح الدراسية، وخلقت بذلك طبقة من النخبة.

أما عن القسم الذي حصل عليه البريطانيون فقد تركوا القسم الشمالي منه والذي يغلب عليه المسلمون، إذ لم يكن في الإمكان انتشار البعثات التبشيرية فيه، فلم تكن هناك مدارس حكومية أو تابعة للبعثات التبشيرية، إنما مدارس تابعة للإدارة المحلية معظمها ابتدائية تشجع فيها اللغة المحلية، وتتبع باللغة الإنجليزية في الفصول العليا، ومن أجل زيادة التدريب اللغوي أو الالتحاق بالتعليم الثانوي يتجه الطالب إلى نيجيريا حيث الدراسة باللغة الإنجليزية، ومن الناحية الإدارية كانت تستخدم لغة الهوسا، ولم تستخدم اللغة الإنجليزية إلا في الإدارة الحكومية الفدرالية والدوائر الحكومية، وكانت لغات الفولاني، والعربية وغيرها من اللغات متداولة أيضا حسب الظروف، وإن لم تستخدم مكتوبة. وكانت الإدارة تشجع الموظفين الإنجليز على اجتياز امتحانات في لغة الهوسا والفولاني وغيرها من اللغات الأفريقية المحلية، وكانت ترقيتهم في بعض الحالات تتوقف على نجاحهم في امتحانات في هذه اللغات الأفريقية قراءة وكتابة.

أما القسم الجنوبي فقد الحق بجنوب نيجيريا حيث كانت الإنجليزية، أو رطانتها هي المستخدمة رسميا في التفاهم بين القبائل، وان كانت هناك

لغة أفريقية تستخدمها كل قبيلة أفريقية داخلها، و بدأت المؤسسات التبشيرية في الظهور، وحيث استقرت البعثات التبشيرية يظهر الثالوث المرتبط بها وهو بيت البعثة التبشيرية، والكنيسة، والمدرسة وأخذت هذه البعثات في دراسة اللغات العامية المحلية لاستخدامها في التبشير، ولكن كان هناك أيضا تدريس اللغة الإنجليزية، كما وقع الكمرنيون أيضا تحت تأثير اللغة الإنجليزية نتيجة التدريب عليها كتابة وقراءة في المدارس.

ونظرا لزيادة توافد البعثات التجارية من ألمانية وفرنسية وتعاملها مع المواطنين، فقد استقر الأمر على قيام محكمة لتسوية الخلافات إذا ما نشأت بين هذه المؤسسات التجارية وبين المواطنين، وكانت القضايا التي يصعب إيجاد حل لها تترك لحين حضور القنصل البريطاني الذي كان يزور المدينة بين الحين والحين، وقد زاد هذا من أهمية القنصل البريطاني في تدعيم حكم الرؤساء الوطنيين، حتى أبدي كثير من الرؤساء رغبتهم في الحماية البريطانية، ومن ثم كان هناك عامل ثالث لانتشار اللغة الإنجليزية وهو العامل السياسي. ويمكن أخذ الرسالة التالية المؤرخة في 7 أغسطس سنة 1879 الموجهة من الملك «إكو» ملك دوالا إلى الملكة فكتوريا كنموذج للغة الإنجليزية في الكمرون في ذلك الحين.

Dearest Madam-we your servants have join together and thoughts its better to write you a nice loving letter which will tell. you about all our wishes, We wish to have your laws in our towns We want to have every fashioned altered also we will do. According to your consul's word. Plenty wars here in our country plenty murder and idol worshippers. Perhaps these lines of our. Writing will look to you as an idle tale.

We have spoken to the English consul plenty times about an English government here. We never have answer from you, so we, wish to write you ourselves. When we heard about Calabar River how they have all English laws in their towns, and how they have put away all their superstitions. Oh, we shall be very glad to be like. Calabar now

وهكذا تعددت الألسنة الأجنبية في الكمرون، من ثم فقد نص دستور سنة 1961 الذي ظهر بمقتضاه اتحاد الكمرون إلى الوجود على أن كلا من

الفرنسية والإنجليزية لغة رسمية، (الفرنسية حيث كانت الإدارة الفرنسية، والإنجليزية حيث كانت الإدارة الإنجليزية) وكلاهما يستخدم في الإدارة الفدرالية كالحكومة الفدرالية ووزارات الخدمات الفدرالية، والمجلس النيابي الفدرالي والمحكمة الفدرالية والجامعة الفدرالية. وتتجه سياسة الحكومة إلى أن يدخل اللسانان الإنجليزي والفرنسي حتى في التعليم الابتدائي في مرحلة مقبلة، وهكذا نجد أن دولة الكمرون من الناحية النظرية ذات لسانين ولكنها من الناحية الفعلية ذات ألسنة متعددة محلية وأجنبية.[26]

ونيجيريا مثل آخر:

وتعاني نيجيريا من مشكلة الوحدة القومية، فقبل اتحاد البلاد عام 1914 كانت الإدارة الاستعمارية تحكمها على أساس وحدتين كبيرتين، الولايات الشمالية والولايات الجنوبية، ولم تختف آثار هذا التقسيم حتى الوقت الحاضر، فما زال هناك شعور بأن البلاد تنقسم إلى قسمين كبيرين من الناحية اللغوية والحضارية، لأن الإدارة الاستعمارية أصلت هذه الفروقات. وتعتبر الهوسا والفولاني اكثر اللغات أثرا وانتشارا في الشمال، وتنتميان إلى مجموعة اللغات الافروأسيوية عند علماء اللغات، بينما تعتبر «الايبو» و«اليوربا» اكثر اللغات انتشارا في جنوب نيجيريا و يضعهما علماء اللغات (ضمن مجموعات النيجر/ كنغو).

والشمال اكثر تجانسا من الجنوب، و يتجلى هذا في إحدى صوره في أن لغة الهوسا مستخدمة في شتى الأغراض كلغة تفاهم مشترك بينما في الجنوب تتصارع اللغات، ولا تقبل الأقليات الصغيرة التنازل عن هويتها اللغوية وهي عديدة. وقد اشتهرت نيجيريا بصراعاتها الداخلية التي تقوم على أساس عرقي، (بين الايبو واليوروبا و بين الايبو والهوسا.. الخ) لذلك فقد ظهرت عدة اتجاهات عقب الاستقلال للحفاظ على وحدة البلاد، الأول أن تقسم البلاد إلى وحدات ادارية بحيث تضم كل وحدة عددا غير متجانس من اللغات بحيث تضطر كل مجموعة سلالية إلى الاندماج تحت المواطنة الكبرى (المواطنة النيجيرية) أي لا يمكن لواحدة منها أن تشعر بإمكان قيامها بالانفصال لصغر حجمها، والرأي الآخر لا يوافق على هذه الفكرة لأنها في نظرهم تزيد من حدة الصراع وعدم الاستقرار، و يذهب

إلى ضرورة تجانس السكان (لغويا) قدر الإمكان في كل وحدة إدارية، ولكن يقف في سبيل هذا الرأي تلك الأقليات اللغوية، التي لا يمكن بسبب ضآلتها أن تكون وحدات إدارية ولعل ما ذهبت إليه نيجيريا اليوم هو حل وسط، إذ قسمت البلاد إلى اثنتي عشرة وحدة إدارية.

وكان غالبية سكان نيجيريا قبل عام 1966 قد وصلوا إلى مرحلة قبول ثلاث لغات رئيسية لنيجيريا وهي الهوسا، واليوروبا والايبو. ولم يكن هناك اعتراض من الشمال على تعليم الهوسا لمن لا يعرفونها، وهكذا الحال في الغرب وفي الشرق ولكن حين قسمت البلاد إداريا إلى اثنتي عشرة ولاية ظهرت هناك لغات كانت تعد لغات أقليات في ضوء التقسيم القديم إلى ثلاث ولايات، فأصبحت في ضوء التقسيم الجديد ليست أقليات، و بالتالي لا يمكنها أن تتنازل عن لغاتها للغات منافسة.

وليست هناك فكرة على الإطلاق في محو اللغة الإنجليزية بالكامل، بل ألا تصبح اللغة الرسمية للدولة ولغة التفاهم المشترك، وان تحل محلها لغة وطنية في هذا السبيل، وفي هذا المجال فالخيار هو بين اللغات الثلاث، ولم تحاول حكومة مدنية أو عسكرية أن تتعرض لهذا الموضوع، ورغم أن الإنجليزية هي لغة الإذاعة والصحافة فهناك بعض الصحف التي تطبع باللغات المحلية خاصة الهوسا واليوربا، كذلك تبث الإذاعة إرسالا باللغات المحلية الأساسية، ولكن سياسة الدولة تتضح بصورة اكبر في المؤسسات التعليمية وهنا تصبح الإنجليزية هي لغة التعليم دون منازع، وإن كانت لا تسود في التعليم الابتدائي، بل يبدأ التحول من اللغة المحلية إلى اللغة الإنجليزية عادة في السنة الرابعة الابتدائية. و يرد النقاد على هذا، بان هذا فيه ضياع للوقت، لأن الطلاب الذين ينهون دراساتهم عند المرحلة الابتدائية سرعان ما ينسون الإنجليزية، و يعودون إلى لغتهم الأصلية وفي نفس الوقت هناك مشكلة عدم كفاءة كثير من اللغات المحلية في هذه المرحلة الحالية لان تصبح وسيلة تعليم فعالة.

وتدرس الآن اليوربا والهوسا والايبو كلغات لها درجات جامعية في جامعة ايبادن، كما تقوم معظم الجامعات في نيجيريا فضلا عن معهد اللغات بإجراء أبحاث على اللغات المحلية، وهذا يدل على الاهتمام بها، وان كان هذا لا يشير إلى سياسة معينة للدولة خاصة بهذا الموضوع.

هكذا أصبح للمستعمر من قوة السيطرة ما يجعل من لغته مادة إجبارية، إذ كان طالب الثانوي في المستعمرات الإنجليزية إذا رسب في مادة اللغة الإنجليزية يعتبر راسبا بوجه عام، ولا يحق له الحصول على إجازته العلمية حتى ولو كان مبرزا في بقية المواد وذلك حتى يشتد الاهتمام بها.

ومحصلة ذلك كله أن أصبحت أفريقية وكأنها ميدان خال لنشر اللغات الأوروبية، فوجدنا البرتغال تنشر البرتغالية في مستعمراتها سابقا (موزمبيق، وأنجولا، وغينيا وساوتومي وبرنيب)، ووجدنا أسبانيا تجعل لغة الساقية الحمراء وريوموني وفرناندوبو الأسبانية، ووجدنا فرنسا و بلجيكا تنشران الفرنسية كلغة التعليم والإدارة في روندا وبرروندي والكنغو (زائير) وموريتانيا وساحل العاج وتوجو وداهومي ومالي، والنيجر، والفولتا العليا، والكمرون، والسنغال، وموريشس، وغينيا. و بريطانيا تنشر الإنجليزية في غينيا، وسيراليون، وغانا، ونيجيريا، وأوغندا، وكينيا، وتنزانيا، و زامبيا وروديسيا، ومالاوي، و بتسوانا، وسوازيلاند وليسوتو، بينما إيطاليا تنشر اللغة الإيطالية في الصومال وحاولت نشرها في ليبيا لولا مقاومة اللغة العربية [27].

و يتكرر الصراع في الإقليم الواحد بين لغتين أوروبيتين، لا على أرض أوروبية، ولكن على أرض أفريقية أرض جنوب أفريقية حيث دار الصراع بين لغة البوير (الهولندية القديمة) والتي أطلقوا عليها الافريقيانية Afrikanus و بين اللغة الإنجليزية، وانتهى الصراع بوفاق بينهما، والاعتراف بهما معا كلغتين رسميتين بينما لم يعر للغة من لغات البانتو (لغات الأغلبية) أي اهتمام.

التفتيت الثقافي:

وهكذا وجدنا التفتيت اللغوي لا يصيب القارة في لغاتها الأصلية فحسب، بل حتى في اللغات الدخيلة، وتجد دولة مثل غينيا تنتشر فيها الإنجليزية، ولكنها محاطة بالسنغال من شمال وجنوب، حيث تسود الفرنسية، في سيراليون الإنجليزية لغة، وجوارها غينيا الفرنسية لها لغة، وغانا تجاورها ساحل العاج وهكذا.. الخ. وهكذا جاءت اللغات الأجنبية لتزيد من كرنفالات اللغات، ولتعطي كل دولة ظهرها لجاراتها من الناحية اللغوية، وتعدى أثر هذا إلى المناهج المدرسية والمقررات الجامعية، فهذه الكتب مطبوعة في

لندن، وتلك مطبوعة في باريس، أو بروكسل وغيرها مطبوعة في لشبونة وهكذا.

وأصبح الطالب في نيجيريا يعرف وليم الفاتح والملكة فكتوريا، والطالب في ساحل العاج يعرف عن لويس الخامس عشر والسادس عشر والثورة الفرنسية، ولكنهما في نفس الوقت لا يعرفان مثلا أن أقدم حضارة لا في أفريقية بل في العالم أجمع كانت حضارة أفريقية، وهي الحضارة المصرية القديمة، وكلاهما لا يعرف أن الأبحاث تتجه لتشير إلى أن نشأة الإنسان من المرجح كانت في أفريقية سواء الشرقية أو الشمالية، ولان الأفريقي يستقي معلوماته وثقافته من خلال لغة معينة، أصبحت هذه اللغة هي نافذته الوحيدة على العالم، ولم يكن هو صانع هذه النافذة، وإنما الذي صنعها ووضعها في مكانها هذا لتطل على منظر معين أجنبي عنه، غريب لديه، فهي موضوعة له وليس هو بواضعها، لذلك إذا عرف شيئا فهو محرف ليخدم أهدافا معينة كإلصاق تهمة تجارة الرقيق بالعرب دون خلق الله جميعا، وكأنها لم تكن معروفة أولا لدى الأفريقيين أنفسهم، ولم تكن معروفة لدى اليونان والرومان، وقامت بها كل الدول الأوروبية في التاريخ الحديث من البرتغال وأسبانيا في الجنوب إلى فرنسا وهولندا وبلجيكا وبريطانيا، ثم تعدت هذه التجارة الدول الأوروبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل.

الخطأ التربوي:

ولعل من أهم القضايا المتعلقة بالسياسات اللغوية التي تتبع هي ما يخص التعليم، لأنها ستصبح أداة التعليم في مختلف المراحل التعليمية، فما اللغة التي ستكون إجبارية؟ وما اللغة التي ستكون اختيارية للدراسة؟ وما نسبة المنهج المدرسي الذي سيدرس بلغة أو بلغات ما؟ وما هي المستويات المطلوبة في هذه اللغة أو تلك اللغات، لذلك فمعظم الذين كتبوا عن السياسات اللغوية في أفريقية هم لغويون وتربويون. وليس من شك أن بؤرة اهتمامهم صالح الطالب وصالح العملية التعليمية التي يجب أن توضع في الاعتبار عند مناقشة أي سياسة تعليمية. ولكننا في نفس الوقت يجب أن نعترف بأن السياسة اللغوية لها نتائج أوسع من العملية التعليمية، فالسياسة التعليمية

لها خطورتها في تكوين الأمم والشعوب، لن نناقشها هنا بقدر ما نناقش الخطأ التربوي اللغوي.

فلننظر إلى العبء الذي كان يقع على الطفل في دولة مثل كينيا فإذا كان يتعلم في البيت اللغة الأم سواء كانت لغة الكيكويو أو الكامبا، فعليه أيضا أن يتعلم السواحيلية، لأنها لغة التفاهم المشترك بين القبائل، ثم عليه ثالثا أن يتعلم الإنجليزية، وهذا عبء كبير للغاية في المراحل الأولى للتعليم بلا شك.

وقد أثبتت الأبحاث التربوية في العالم سواء كانت في أوروبا أو في العالم العربي خطأ هذه الطريقة تربويا ونستشهد أخيرا بتقرير الأستاذ بابس فافونا Babs Fatunwa وزميله بليس BIiss في جامعة Ife في نيجيريا والذي صدر عام 1967 عن أثر تعدد اللغات على القدرة على التفكير المجرد لدى الطفل من اليوربا.[28]

فقد ظهر أن الطفل الذي حصل علومه بلغة اليوربا أقدر على الاستعادة بنفس اللغة مت لو كانت الاستعادة باللغة الإنجليزية، وخرجا بنتيجة أخرى وهي أن الطفل الذي ينهي مرحلة التعليم الابتدائي ويتعلم لغتين فيها، ينهي المرحلة دون أن يحقق إجادة معقولة لكل منهما، على عكس الذي يقتصر على لغة واحدة، لأن الطفل يتعلم أفضل بلغته، وإدخال لغات أخرى في هذه المراحل المبكرة ينزع الطفل من بيئته وأسرته وجماعته وتجمعه، إذ تنشأ لدى الطفل (الذي أنهى ست سنوات في التعليم الابتدائي وعرف مبادئ لغة أجنبية وترك المدرسة) أنفة من الإسهام في الأعمال اليدوية، كالزراعة وصيد الأسماك أو النسيج.

وبمعنى آخر فإنك بذلك تعد طفلا ليكون عضوا في مجتمع معين عن طريق لغة غريبة وثقافة أجنبية. وظهر أيضا إن معظم الآباء الذين يجهلون هذه اللغات الأجنبية يفقدون الاهتمام بما يتعلمه الأبناء، حتى ولو كانوا يعلمون الكثير عن موادهم، ولكن اللغة الأجنبية تعد عقبة أمام المشاركة والمعاونة وبالتالي ينعدم تعاون البيت والمدرسة في العملية التربوية.

التبعية الاقتصادية:

وبدراسة الأرقام الخاصة بصادرات دول اتفاقية باوندي مع دول الجماعة

الاقتصادية الأوروبية يتضح ارتباط أقطار الفرانكون بفرنسا من الناحية الاقتصادية، فالاستقلال السياسي لم يحدث تغييرا في موقعها الاقتصادي وفي اتجاه معظم صادراتها ووارداتها.

وفي الحق كان من المنتظر بعد اتفاقية (الستة/الثمانية عشر) أن تضعف العلاقة بين فرنسا وأقطار الفرانكفون لأكثر من اعتبار منها:

1- أن التعامل مع أسواق ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا ولكسمبورج سيكون على نفس أسس التعامل مع فرنسا.

2- سوف لا تكون هناك ميزات لصادرات فرنسا إلى هذه الأقطار تزيد على ميزات الأقطار الأخرى.

3- سيكون للأقطار الخمسة الأخرى نفس حقوق تصدير السلع الإنتاجية إلى أقطار الفرانكفون كفرنسا تماما.

4- سوف تشترك هذه الأقطار في تقديم عطاءات للتنمية في الدول المرتبطة ولن تكون هناك أفضلية لفرنسا.

ولكن من الناحية العملية ظهر أن السيادة الاقتصادية لفرنسا لم تتأثر كثيرا، فما زال معظم الصادر يتجه إلى فرنسا السوق التقليدية لهذه الدول وحتى معظم العقود والمشروعات تقوم بها مؤسسات فرنسية، ويقول توم سوبر Tom Soper ليس من الصعب تفسير هذا، إنه يفسر بقوة اللغة الفرنسية والاعتماد والتعود على الإجراءات الإدارية والقوانين الفرنسية إلى جانب العوامل الأخرى.(29)

الأعلام الأجنبية:

إن الرجوع للشخصية الأفريقية وللتضامن الأفريقي لا يقتضي خلع الثوب اللغوي المصنوع في أوروبا، بل تغيير تلك الأسماء الأجنبية التي تسمى بها الشوارع والمؤسسات مثل جزيرة فكتوريا والكلية الملكية King's Collage قاعة الملكة اليزابيث Queen Elizabeth Hall في جامعة كجامعة ايبادن Ibadan إذ لا يوجد في بريطانيا مثلا قاعة نكروما أو عبد الناصر أو سنجورا أو كينياتا، فلماذا تظل الأسماء الأجنبية في هذه الدول الأفريقية، وكأن الدول الأفريقية عقمت، وليس لها من أبنائها البررة من يستحق أن تطلق أسماؤهم على مؤسساتها ومبانيها؟

ضعف الطاقة الفنية والمادية للدول الأفريقية:

إن الدول الأفريقية لها من مشكلاتها الاقتصادية ما يجعلها غير قادرة على تعليم الأطفال جميعا بلغة الأم، وقد رأينا تعددها وتنوعها، وليس لديها الطاقة الاقتصادية والفنية لتطوير هذا العديد من اللغات ليصبح وسيلة للتعليم في المواد الدراسية المختلفة، فمن المصلحة إذن اختيار لغة أو لغتين أفريقيتين وتطويرهما، لتحلا محل اللغات الأجنبية فرنسية أو إنجليزية أو غيرهما كوسيلة للتعليم في المدارس الأفريقية، ولكن هذا غير عملي، ومن الجائز إن الأفضل والأكثر إمكانية هو تقسيم أفريقية جنوب الصحراء إلى كتل شرق وغرب ووسط، وتختار لغة واحدة في كل منها تعتبر هي لغة التعليم في جميع المستويات.

واللغة الأفريقية التي تخدم القارة كلها أو جزءا كبيرا منها، ستكون فرصتها كبيرة لتصبح لغة عالمية ولكن هذا يحتاج بلا شك إلى خطة طويلة الأجل.

وهذا لا يتعارض في نفس الوقت مع تعلم لغة أجنبية في المعاهد الآجل،فإن أفريقية لن تكون أقل من الصين أو السويد إذا أرادت لبعض من أبنائها أن يكونوا على مستوى رفيع في إحدى اللغات الأجنبية، فعلى الدولة أن تقدم التسهيلات اللازمة لهم. إن تفضيل بعض الأفريقيين أن يكونوا طلقاء اللسان fluent في لغة أجنبية اكثر من لغة أفريقية لدليل واضح على ما فعل الاستعمار بالعقلية الاستعمارية أحيانا.

ماذا تريد الحكومات الأفريقية؟

في الحق الدول الآجل جميعا وهي تعاني من مشكلة تعدد اللغات المحلية تواقة لاختيار لغة قومية تنميها بواسطة نظام تعليمي، وتعطي لها في المناهج الأهمية المعطاة للغات الأوروبية، والوسيلة الفعالة لتشجيع اللغة الآجل الجديدة ونشرها هي جعلها لغة التعليم. ويذهب البعض الأفريقية عدم تدخل الدولة الرسمي لفرض هذه اللغة أو تلك بل يترك الأمر لعملية الانتخاب الطبيعي، فإذا استطاعت لغة ما أن تكسب أرضا واسعة اختيرت لتصبح لغة قومية تستخدم في المدارس والمعاهد. و يذهب اللغويون الأفريقية أن هذه الطريقة الأخيرة لا مناص منها، على اعتبار أن التاريخ يبين لنا أن

اللغة الأكثر تأثيرا تفرض نفسها عبر الحدود. وهذه كانت فكرة كثير من الحكومات الآجل التي تولت الحكم بعد الاستقلال مباشرة بصرف النظر عن الإمكانات العملية لهذه الطريقة وجدواها.

كان هذا واضحا من سياسة حكومة الرئيس السابق نكروما في غانا عام 1961، فقد خاطبت مسز سوزانا الحسن نائبة وزير التعليم البرلمان حينذاك بقولها: «إنه في نية الحكومة تشجيع كل اللغات الرئيسية في غانا، حتى تصبح هناك فرصة متساوية لتثبت وجودها ليمكن اختيار لغة قومية حينما يأتي الوقت الذي يتخذ فيه قرار بهذا الشأن» وقد تردد صدى هذه السياسة مرة أخرى في حكومة الرئيس بوسيا، أي بعد عشر سنوات عندما صرح في البرلمان أيضا بأن ما تفعله وزارة التعليم الآن هو أن تعطي فرصة متساوية لتنمية جميع اللغات الرئيسية في المدارس، على أمل انه في المستقبل القريب يمكن أن تبرز إحداها كلغة سائدة يتقبلها السكان جميعا كلغة قومية لهم.

وهكذا يكون اختيار لغة غانية أكثر فعالية في الاتصال بين الغانيين، وعن طريقها تنتقل الحضارة من جيل الأفريقية جيل، فضلا عن أن هناك جزءا من السكان يتكلمونها من قبل، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فان الحكومة من البداية ستواجه صعوبات جمة لتقرير أي لغات غانا تختار لتكون لغة قومية، إذ سيترتب عليها قيام الصراع والعداوات بين الجماعات. و يضرب مثلا لذلك النقاش والحوار الذي استمر عشرين عاما وذلك للاتفاق فقط على القواعد الإملائية التي توافق عليها كل من قبيلة توى Twi وفانتي Fante في غانا لكتابة لغة الاكان، فكيف تكون حرارة الحوار حول قضية اللغة؟ و يوضح هذه الصراعات أحد أعضاء البرلمان في غانا عام 1971 حين حذر الحكومة بقوله. أن هذا الاتجاه (يقصد اختيار لغة) إذا تبنته الحكومة، وظلت تصر عليه فسيكون مخاطرة كبيرة لها، وسيكون مفيدا أن نعرف من السيد العضو المحترم عن دائرة «بيراكويم» اللغة التي يقترحها كلغة تفاهم مشترك في غانا، ويجب أن أذكره من البداية أنه إذا اختار لغة «جا» كلغة مشتركة لغانا، فان أهالي دائرته سيضربونه، وإذا أمر على أن تستخدم لغته كلغة مشتركة فان بقية المجموعات اللغوية ستتحد ضده وتعارضه. إن أي حكومة تخدع نفسها، وتظن أن الفرصة مواتية

لإدخال لغة تفاهم مشترك في البلاد ستكون جالسة فوق مخزن من البارود، وستكون هذه العملية أشبه بديناميت سياسي تقوم الحكومة بتفجيره.[30]

ومن العينات التي أخذت إحدى ضواحي مدينة أكرا عاصمة غانا حيث تعيش جماعات متعددة اللغات، فضلت غالبيتهم لغة أجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية أو العربية أو الهوسا كلغة تفاهم مشترك.

وفي دراسة مسحية خاصة بهذا الموضوع أيضا أجريت على طلبة جامعة كيب كوست في غانا، فضل 72٪ منهم اللغة الإنجليزية على أي لغة غانية كأداة للتعليم. و يقول أجيمان Agyeman الأستاذ الذي قام بهذا المسح «مازالت روح القبلية متأصلة فيهم، فهم يريدون أن تكون لغة قبيلتهم هي اللغة المختارة.»[31]

أن اختيار لغة غانية لتكون لغة قومية سوف تكون دوما عبئا على العملية التعليمية ذاتها وعلى الأطفال. فلا بد من تدريب المعلمين على تدريس هذه اللغة، ولابد من إعداد وسائل تعليمية جديدة لاستخدامها كوسيلة للتعليم، وفي تلك الأجزاء من البلاد التي لم تكن فيها هذه اللغة هي اللغة الأم، يزداد العبء على الطالب لأن عليه أن يتعلم هذه اللغة الجديدة بجانب اللغة الإنجليزية، وكلاسا لغتان أجنبيتان بالنسبة له ولا نظن أن هناك محاولة تنجح في هذا الميدان دون أن تكون هناك، دوافع تدخل في البرنامج لتشجيع الناس لتعلم واستخدام اللغة الجديدة. وأكثر أنماط هذه الدوافع تأثيرا هي:-

1- استخدام هذه اللغة القومية وحدها في وسائل الاتصال، وفي الأعمال الرسمية، والمؤسسات التعليمية.

2- وجود أعمال أدبية بهذه اللغة يمكن للناس قراءتها. ومن دراسة للمؤلفات التي كتبت بلغة غانية، وجد أنها نيف وألف ومائة كتاب موزعة على عشرين لغة، أي بمتوسط 55 مؤلف لكل لغة، ينخفض هذا الرقم إلى مؤلف واحد في إحداها ويرتفع إلى مائتين وسبعة وستين في أعلاها قدرا، ويزيد على هذا أن نصف هذه المؤلفات، هي كتب مدرسية أو دينية من نتاج البعثات التبشيرية.

ومن ثم تبدو الحلقة مفرغة إذا لم توجد أعمال مكتوبة بلغات محلية، وفي الوقت نفسه ليس هناك الكثير من الكتاب أو الناشرين الذين لديهم

الاستعداد للعمل بلغة محلية نظرا لقلة الطلب، أو بمعنى آخر ضيق السوق أمام مثل هذه الأعمال من ثم فاتخاذ لغة غانية كلغة قومية يتطلب تغيرات ثورية في التأليف، وتغيرات جذرية أيضا تجاه المؤلفات المكتوبة بلغة محلية.

ولا تقل مشكلة تدريب المعلمين على اللغة الجديدة أهمية عما سبق، لأنه من الضروري أن يكونوا على كفاية عالية فيها قبل أن يقوموا بتعليمها.

الأفارقة أنصار اللغات الأوروبية:

قال أحد أعضاء البرلمان أثناء مناقشة لغة عامة لغانا: إني أريد القول بأن الإنجليز قد تركوا لنا أشياء عديدة قد لا تناسبنا اليوم، ولكن لغتهم التي تركوها ربطت كل القبائل بعضها ببعض، وكذلك ربطت الثقافات المتعددة لسكان غانا بحيث جعلت من غانا أمة واحدة، وأظن أنه آن الأوان لأن ننمي الإنجليزية، ونضيف إليها ونجعلها لغتنا لأنها الشيء الوحيد الذي يجمعنا معا كشعب واحد.

وتبرر حكومة الكمرون سياسة الدولة الرسمية في اتخاذ اللغتين الإنجليزية والفرنسية كلغتين رسميتين بعدة عوامل منها:

1- أن هذه اللغات تفي بأغراض لا يمكن أن تفي بها اللغات المحلية، وتتمثل في كونها لغات العلوم والتكنولوجيا الحديثة، وهي من الأمور التي لا غنى عنها للدول النامية في الوقت الحاضر.

2- أنه نتيجة الصدفة التاريخية أصبحت اللغتان الإنجليزية والفرنسية لغتين عاليتين، واصبح من الضروري معرفتهما لأنهما من وسائل الاتصال الرئيسية في العالم.[32]

ويردون على الذين يقولون بان الطفل الأفريقي يحمل عبئا كبيرا بتعلمه أكثر من لغة، بأن السر يكمن في توفير وسائل تعلم هذه اللغات من المدرس الجيد، إلى الكتاب الجيد، والأجهزة الجيدة والطريقة السليمة، لتعلم هذه اللغات.

ويضربون مثلا بالكمرون بقولهم بأن الكمرون تخلو من المشكلات التي تنشأ عن التعدد اللغوي في بعض الدول، كما هو الحال في كندا، أو بلجيكا، بل على العكس فقد كتب عن «السلام اللغوي» في الكمرون في مجلة أببايا الكمرونية ما يلي:

«من ناحية المبدأ فيما يختص بالدول ذات اللسانين من الناحية الرسمية مثل كندا وجمهورية جنوب أفريقية وبلجيكا، هناك عوامل غير مشجعة لا ضد نجاح استخدام المواطنين للغتين، بل ضد تعايشهما معا في سلام، من بين هذه العوامل انه ليست هناك لغة من هاتين اللغتين تعتبر وسيلة اتصال على نطاق واسع قاري أو عالمي، أي لضآلة الناس الذين يتكلمون أيا منهما، هكذا الحال فيما يختص باللغة الهولندية والفلمنكية في بلجيكا والافريكانية في جنوب أفريقية، و يعرف الهولنديون هذا، لذلك نجدهم من اكثر الشعوب الأوروبية تعلما للغات الأخرى، فالهولندي المتعلم يعرف لغتين في المتوسط على الأقل غير لغته الأصلية كما يرجع هذا إلى صغر حجم دولتهم، وتشابك حدودها مع الآخرين مما يحبذ ضرورة الاتصال.

أما في كندا فان الخمسة الملايين كندي الذين يرجعون لأصول فرنسية منفصلين عن وطنهم الأصلي بواسطة آلاف الأميال (المحيط الأطلنطي) يعيشون في محيط واسع من اللغة الإنجليزية في أمريكا الشمالية يزيد على مائتي مليون نسمة، من ثم فالناطق بالإنجليزية في أمريكا الشمالية لا يجد نفسه في حاجة إلى تعلم اللغة الفرنسية إلا إذا كان هناك دافع ذاتي أو للعمل في بلد لغته الفرنسية وليس الحال هكذا في الكمرون.

وهناك شوكة أخرى في جانب التعايش السلمي بين هذه اللغات، وهو أنها ترتبط في الأصل بقومية معينة، من ثم فهي تنم عن هوية معينة، وشخصية خاصة، وتربط الفرد بأصول معينة، فأي تهديد أو احتقار لها يعتبر موجها أساسا لمن يتكلمونها، ويؤدي إلى إثارة الحساسية والعواطف، وهذا هو الحال في بلجيكا في فترة ما وفي إقليم كويبك في كندا، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد يتحول الأمر من الدفاع عن اللغة إلى تحد وعداء للغة المنافسة، فإلى يومنا هذا هناك من الفلمنك في بلجيكا من لا يتكلمون الفرنسية رغم انهم يجيدونها إجادة تامة: وسبب ذلك أن الفرنسيين كانوا قد قهروا إقليم الفلاندرز، وأصبحت الفرنسية هي لغة البورجوازية الفلمنكية ولكن الفلمنك نجحوا في الحصول على اعتراف بلغتهم كلغة رسمية في تشريع عام 1932.

ولكن الأمر يختلف في الدول الأفريقية، فليست اللغة الفرنسية أو الإنجليزية هي لغات أفريقية في الأصل، من ثم فليست هناك عاطفة حادة

نحو أي منهما.

وليس معنى دولة ثنائية اللغة أن تكون ثنائية الأفراد، أو ثنائية القومية فالهدف الذي نقصده في الكمرون ليس هو أن تكون الدول الثنائية، بل أن يكون الأفراد ثنائيي اللغة، فكل فرد يذهب إلى التعليم يجب أن يخرج منه وهو يجيد اللغتين الفرنسية والإنجليزية ولكن قوميته كمرونية».[33]

اللغة أو اللغات الجديدة وشروطها

أضم صوتي إلى صوت كول أوموتوشو Dr Kole Omotosho الكاتب النيجيري وأستاذ الجامعة الذي قال بعد افتتاح الاجتماع الأول لاتحاد الكتاب الأفريقيين Unions of Writers of African People الذي عقد في أكرا بأن الاتحاد يعتقد بحاجة الأفريقيين لان يعبروا عن شخصياتهم خلال لغة واحدة، ونأسف لان المخططين لمهرجان الفنون والثقافة للسود في العالم والأفارقة

World Black and African Festival of Arts and Culture

لم يعنوا إلا بالفنون والفلكلور والرقص وكأن اللغة ليست من الثقافة في شيء، أو ليست هي عماد الثقافة.

إذن لا بد من عمل شيء في هذا المجال، لابد من التوحيد على أي مستوى، فهذا هو مثار المناقشة، هل تختار لغة واحدة أم بضع لغات تعد على أصابع اليد. ومهما كان القرار فيجب لمن يتصدى لإحلال لغة محل لغات أخرى أن يضع نصب عينيه ما يلي:

1- أن اللغة وظيفتها تدعيم الاتصالات.

2- نظرا لان قضية إلغاء بعض اللغات وإحلال لغات محلها لها حساسية خاصة فلا بد وان تكون العملية تدريجية، كما يجب أن يكون توقيتها مناسبا، وأن يكون قد سبق شرح الغرض من عملية الإحلال بوضوح للناس.

3- أن تنفيذ هذا الأمر يقتضي وقتا طويلا، لا بد فيه من استحداث تغييرات أساسية تؤدي إلى تخفيف العزلة وذلك بشق الطرق وتيسير المواصلات والمخالطة وسائر ضروب الاتصال بين المتكلمين بمختلف اللهجات حتى يتيسر تخفيف الفوارق اللغوية بينها وهذا يستغرق بطبيعة الحال اكثر من جيل.

4- أن الدول الأفريقية هي دول نامية لها من مشكلاتها ونفقاتها ما يجعل من اللازم عدم تبديد طاقتها ومواردها فيما لا يقبله الناس لأنهم ينتهزون أول فرصة ويرتدون.

5- أن اللغة التي تختار لتحل محل لغات أخرى يجب أن تتميز بسعة الانتشار، وان تكون قد تعدت حدود القبيلة الواحدة بل والدولة الواحدة.

وإذا كان لي أن اقترح (تصور شخصي) خريطة أخرى للغات في أفريقية تحل محل الخريطة المعقدة الحالية فيمكن القول بما يلي:

1- اللغة العربية في القسم الشمالي وهو مجال انتشارها، وليس هناك مشكلة في هذا الإقليم لأنها لغة واحدة، ويمكن أن تمتد إلى أبعد من حدودها الحالية حيث أن المنطقة التي خلفها تعتبر ظلالها حيث تنتشر الألفاظ العربية في مفردات اللغات المحلية الأخرى.

2- الهوسا في غرب أفريقية حيث لها من سعة الانتشار في أقطار غرب أفريقية الناطقة بالفرنسية والإنجليزية ما يؤهلها لأن تقوم بهذه الوظيفة.

3- السواحيلي / في أفريقية الشرقية، وقد تم هذا بالفعل في كينيا وتنزانيا ويمكن أن تمتد إلى أوغندا وموزمبيق على الأقل.

4- لغة بانتويه / Bantoid Language في كل الهضبة الجنوبية لأن اللغات واللهجات المختلفة في الهضبة الجنوبية تنتمي كلها لعائلة لغة لبانتو.

قد يسأل البعض وماذا عن اللغات الأوروبية الإنجليزية والفرنسية وغيرها هل تلغى بجرة قلم؟ نقول: لا، يحتفظ بها ولكن كلغات ثانية مؤقتا ولا يبدأ تعلمها في مراحل التعليم الابتدائي.

ونظرا لأن الموضوع ليس بالسهولة التي قد يتصورها البعض فلا بد من تكوين هيئة فنية أو أكاديمية لبحث الاقتراحات في أكثر من دولة أفريقية، يكون نواة الهيئة إحدى معاهد البحوث والدراسات الأفريقية كالمعهد التابع لجامعة القاهرة. و يلاحظ أن الهيئات يجب أن تضم المتخصصين في اللغات بعامة وعلم الأصوات Phonetics والتراكيب Structures بخاصة فضلا عن المتخصصين في الدراسات الأفريقية عموما نظرا لأن الموضوع له جوانب أخرى غير بحتة.

وقد انشأ أخيرا قسم للغات الأفريقية في معهد البحوث والدراسات الأفريقية في جامعة القاهرة ونقترح على الدول الأفريقية إنشاء كراسي

للغة العربية وآدابها في الجامعات الأفريقية حيث يتم الاتصال وتبادل المعرفة والتقارب كما ذكرنا من قبل، والغريب في الأمر أن بعض الجامعات الأفريقية تنتدب مستشرقين بريطانيين للغة العربية في معاهد الدراسات الأفريقية التي أنشأتها بعض الجامعات الأفريقية لمعاونة الطلاب في دراسة المصادر الخاصة بالتاريخ الأفريقي.

مشكلات

وفي النهاية فإن بعض المشكلات التي تثار هنا وهناك بشأن قضية التوحيد اللغوي يمكن أن نجملها أو نجمل بعضها فيما يلي:

ا- معارضة استعمال لغة أفريقية محلية بدلا من لغة أوروبية، وهذا امتداد للفكر الاستعماري الذي نلحظ اتجاهه نحو عدم استعمال اللغة المحلية الأكثر شيوعا حتى كلغة ثانية و يوصف هذا العمل بأنه مضيعة للوقت والجهد كما جاء في تقرير اللجنة الملكية لشرق أفريقية بخصوص استعمال اللغة السواحيلية حيث يقول:

"We regard the teaching of Swahili as a second language to children whose early education has been in other vernaculars as a complete Waste of time and effort".

East Africa Royal Comm. Rep., 1955, p.154.

وكانت البعثات التبشيرية تعارض السواحيلي والهوسا مثلا لخوفها من انتشار الإسلام. وليس لهذا الرأي من صلاحية لأنه ليس كل من تكلم العربية مسلما، وليس كل مسلم يتكلم العربية، فهناك المسلم الصيني، والمسلم الباكستاني، ولا يتكلمان العربية، فهنا حدث خلط بين اللغة والدين، مما لا يستند على أي أساس علمي وإذا كانت السواحيلية قد دخلتها ألفاظ عربية، فهذا يدل على أن اللغات الجمة تأخذ وتعطي وتدل على أن أهلها في حركة وليس في ركود وانعزال وقد سبق أن رأينا كيف أن اللغات الأوروبية دخلتها ألفاظ عربية، ومع هذا فالسواحيلية مثلا هي لغة أفريقية وليست الإنجليزية، كذلك أليس من الأكرم أن نستعمل لغة أفريقية بدلا من بعض الاقتراحات المريضة التي تقول باستعمال الإنجليزية الممسوخة. Pidgin English وينضم إلى أنصار اللغة الأجنبية أولئك الأفارقة الذين تزوجوا من نساء أوروبيات،

بل وحتى هؤلاء الذين تزوجوا بأفريقيات، ولكنهم قضوا سنين عديدة في الخارج، و يسود بين هؤلاء تعليم أولادهم اللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

لا ننسى أن الذي كان يقرر فيما مضى هو الإدارة الاستعمارية ولكنها الآن الإدارة الأفريقية.

2- مشكلات الترجمة خاصة للمصطلحات الحديثة ومن الطريف أن نعرض صورة لهجوم الصحافة على إذاعة كينيا، حول ترجمة بعض التعبيرات مثل إجمالي الدخل القومي .Gross n.p التي ترجمتها الإذاعة إلى Pessa Tolizopata بالسواحيلية وتلوث البيئة Takalaka Heuani وغير ذلك ولكن هذا الهجوم أو النقد له أهميته في الأبحاث اللغوية، و يؤدي إلى إثراء اللغة، والوصول إلى الترجمة الدقيقة فهو نقد بناء ويخلق في الإنسان الشعور بالثقة بالنفس وبان الإنسان يستطيع أن يعبر بلغته لا بلغة الأوروبيين.

3- القبلية: وتلعب الحساسية والمنافسة الثقافية والسياسية بين القبائل في أفريقية دورها في تعقيد مهمة مشكلة اختيار إحدى اللغات لتحل محل اللغات الأخرى كلغة قومية فعلى سبيل المثال عندما طالبت قبيلة الكاكوا Kakwa باستخدام لغتها في إذاعة أوغندا كان من أسباب رغبتهم هو شعورهم بجرح كبريائهم عندما يضطرون لسماع البرامج الإذاعية بلغة جيرانهم من اللوجبارا، هذا مع العلم بان الكاكوا يفهمون اللوجبارا و يتعلم أطفالهم اللوجبارا، فهذا العمل بالنسبة لهم فيه إيذاء لشعورهم وبأنهم أقل من جيرانهم قدرا، وجيرانهم أرفع منهم منزلة، وهكذا ظهرت لغة الكاكوا في إذاعة أوغندا.

والواقع أن أهم ما تبتلى به القارة هو المجتمع والشعور القبلي، ومعناه الولاء للقبيلة قبل الدولة وهي درجة من درجات النمو السياسي يجب أن تسرع الشعوب الأفريقية الخطى في تخطيها لتنتقل إلى مرحلة أعلى فمرحلة الاعتزاز(بالعصبية) بالجماعة التي ينتمي إليها الفرد لم تصلح إلا في عهد الفطرة أما إذا بعدنا عن ذلك العهد فنجد انتساب الناس إلى المكان الذي يعيشون فيه، أي إلى الدولة، ولعل ما يدعو إلى التفاؤل بشأن هذه الظاهرة في أفريقية التطور الذي تمر به الشعوب الأفريقية فضلا عن الهجرات والتحركات التي تحدث من المدن واليها فتنقطع صلة الفرد بينه وبين وطنه البعيد الذي تقيم فيه قبيلته ولا يمضي زمن طويل حتى يكون الشخص قد

أخذ ينتسب إلى بلده دون قبيلته.

يجب أن تسرع الشعوب في تخطي هذه المرحلة لأن آثارها رهيبة لا في الثقافة فحسب، بل في السياسة أيضا ولن نذهب إلى أمثلة بعيدة فما يحدث في الدول الأفريقية من صراعات يمكن إذا كشفت عنها الغطاء أن تجد مصدرها، واستغلال الروح القبلية، أي ابحث عن القبيلة وراء كثير من المشكلات الأفريقية، ولا نريد أن نسمع موجندي واشانتي Ashanti وباكنجو وسكوما وإنما نريد أن نسمع أوغندي وغاني وزائيري وتنزاني. وسنعالج هذا بتفصيل في موضوع الوحدة القومية.

ونحمد الله أن الأفارقة أحسوا بوطأة القبيلة، ومن هنا كانت توصيات المثقفين بعدم تشجيع حتى استعمال هذه الكلمة فنجد كانون بيرجس كار Cannon Bergs السكرتير العام لمجلس الكنائس الأفريقي يصرح بأنه صدرت توصيات للكنائس الأفريقية بعدم استعمال هذه الكلمة، أو حتى مجرد تشجيع استعمالها، كما نجد اللجنة التحضيرية المشكلة لإعداد تاريخ أفريقية تحت إشراف اليونسكو تجهد نفسها في مناقشات في البحث عن كلمة بديلة لكلمة القبيلة.

4- وأخيرا من له القول الفصل في تقرير هذا الاختيار؟ ومن له الكلمة الأخيرة في تقرير اعتماد هذه اللغة أو تلك؟ هل هي الحكومات الأفريقية (وعددها خمسون) أو هي منظمة الوحدة الأفريقية، أو الناطقون بهذه اللغات أنفسهم، وكل منهم يعتز بلغته و يؤثرها على غيرها، أم خبراء.اللغات الأفريقية من الأوروبيين والأمريكيين الذين مهما بلغ تعمقهم في دراستها كثيرا ما تفوتهم أسرار بلاغتها وقد يكونون متحيزين للغات الأوروبية؟

لا ننسى أن الصين أو الهند أو الاتحاد السوفيتي أو إندونيسيا حينما قررت استعمال لغة معينة رسمية كانت هناك هيئة تنفيذية وهي الحكومة في كل حالة فهي التي قررت وقامت بالتنفيذ.

فهل يا ترى مثلا ستتفق حكومات غرب أفريقية جميعا على استعمال لغة ما كما فعلت حكومات شرق أفريقية وهكذا؟

هذه كلها نقاط لا شك تستحق المناقشة وإبداء الرأي وتنتظر الحل.

حواشي البحث

(1) محمد عبد الغني سعودي: الجغرافية والمشكلات الدولية، القاهرة 1977 ص 61, 62.

(2) June TeufeI Dreyer. Language Problem for China's Ethnic Mimorities, Pacific Affairs, Vol 51. Fall 78. P. 369.

(3) المرجع السابق ص 370.

(4) Bascom, R., Melville Werskovits "Continuity and Change in. African Culture, Chicago 1959.

(5) David smock, Kwana Bentsi. "The Search for national. Integration in Africa". London 1976, P. 161.

(6) في الدراسات اللغوية الخاصة بأفريقية لابد وان نذكر ما يلي:
أ) أن الأخصائيين المعنيين بهذه اللغات لم يتفقوا على التفرقة بين ما يعد لغة وبين ما يعد لهجة متفرعة عن لغة ما.
ب) ترتب على ذلك تعذر إحصاء هذه اللغات إحصاء دقيقا ويتضح هذا من الفروقات في تقدير عدد اللغات مما يدل على مدى الخلط والاضطراب في دراسة اللغات الأفريقية.

(7) بانتو Bantu معناها الناس، وقد استخدم هذا الاسم في الأصل لوصف عائلة لغوية، ولكنه يشير أيضا إلى مجموعة من الناس تتفق في صفاتها الجسدية، وفي طريقة حياتها التي تعتمد على الزراعة أساسا، وقد أدى هذا الخلط بين السلالة والثقافة إلى تحرك اللغويين لبحث الأمر بطريقة علمية أكثر دقة، فيميز جوزيف جرنبيرج عائلة لغوية أطلق عليها عائلة (النيجر-كنغو) تغطي مساحة واسعة من الأرض، من السنغال في الغرب إلى موزمبيق في الشرق ورأس الرجاء الصالح في الجنوب، هذه العائلة الضخمة تضم أربع عشرة عائلة فرعية وتتفق لغات البانتو مع القسم الأوسط من تلك المساحة واكتشف الباحثون وحدة لغات البانتو منذ مدة طويلة، وكان أول من عرف وحدتها الرحالة البرتغاليون الأوائل الذين لاحظوا أن سكان أنجولا في غربي القارة يمكنهم التفاهم مع سكان موزمبيق في أقصى شرقها وكذلك الحال مع البعثات التبشيرية التي جاست هذه الأجزاء منذ القرن السادس عشر، وقد اقترح بليك W. H. Blick عام 1860 إطلاق لفظ بانتو على كل اللغات التي تستعمل لفظ مانتو للإنسان (المفرد) و بانتو للناس (الجمع) ونشر C. meinhof عام 1899 دراسة مقارنة لأصوات اللغات المتفرعة من عائلة البانتو.

(8) لغات التفاهم المشترك هي التي يعبر عنها بالمصطلح الأوروبي Lingua Franca والتي ترجع إلى عهد الحروب الصليبية حين كان الصليبيون يتعاملون مع بعضهم البعض بلغة تختلف عن لغاتهم ولهجاتهم المحلية، لأنهم جاءوا من أقاليم متعددة من ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا الخ. ولم يكن كل هؤلاء في استطاعتهم التحدث باللاتينية، واستخدمت هذه الجماعات لغة مطورة عن لغة البروفنسال التي كانت حينذاك سائدة على ساحل البحر المتوسط من مرسيليا إلى جنوا وأطلقوا عليها Lingua Franca أي لغة الفرنجة.

(9) Ayo Banjo. "Language Policy in Nigeria" in David Sock. "Kwana Bentsi," The Search for National integration in Africa. op. Cit. P 209.

(10) David R. Smock, "Language Policy in Ghana", Ibid. p . 170.

(11) كلمة Griots مشتقة أما من الكلمة البرتغالية Criado بمعنى الخادم، أو من التحريف الفرنسي للتحريف البرتغالي لكلمة gewel، وينتشر هذا اللفظ في كل السودان الغربي وساحل غرب أفريقية بين قبائل الولوف والسرر والفولاني والماندي والسنغاي، ويطلق على طبقة تحترف الإنشاد أو الكلام، توجد في حاشية رؤساء القبائل أو تعيش في المدن والقرى كمنشدين أو رواة للقصص، أو مداحين، أو هجائين، وهم عادة يعتبرون أقل درجة في السلم الاجتماعي شأنهم شأن الحدادين، ومع ذلك فقد يبلغون مكانة مرموقة في معية الرؤساء، فقد يصبحون مستشارين لهم، وبالتالي يكون تأثيرهم السياسي كبيرا، وقد يكون المنشدون ثروات كبيرة وشهرة من مهنتهم هذه، ومع ذلك فهم غير محبوبين ومن مهمتهم الرئيسية سواء كانوا إناثا أو ذكورا هو الإنشاد في الأفراح والحفلات في المناسبات المختلفة. ففي الحملات الانتخابية مثلا يمدحون الذي يدفع لهم وجون المنافس له.

(12) كانت توجد في أفريقية لغات مكتوبة قبل عهد الاستعمار وأكثرها مدون بأحرف عربية مثل لغة بعض قبائل البربر، والفولاني والهوسا في غرب أفريقية واللغة السواحيلية التي سبق تدوينها بالأحرف العربية وذلك بتدوينها مرة أخرى بالحروف اللاتينية وحذفوا منها بعض الألفاظ العربية التي دخلت على أمل القضاء على مؤثرات الثقافة العربية في أفريقية. وقد عد وسترمان ذلك التدوين بالكتابة العربية دليلا على الذكاء الفطري والطاقة العقلية عند الشعوب السوداء في القارة الأفريقية.

(13) Marina Tolmachera, "The Arabic lnfluence on Swahili، Literature: A Historian View", Journal of African Studies. Summer 1978 Vol. 5, No.2, P 229.

(14) المرجع السابق ص 230.

(15) Ayo Banjo, "Language Policy in Nigeria", Op. Cit. , P. 211.

(16) محمد عبد الغني سعودي: الوطن العربي، القاهرة، 1976 ص 518،

(17) محمود فهمي حجازي: اللغة العربية بين اللغات الدولية المعاصرة مجلة كلية الآداب والتربية جامعة الكويت 1972 ص 32.

(18) Joseph Greenberg "Africa as a Linguistic Area" in W. Bascom. Herskovits op. cit, P 25.

(19) Ezekiel Mphahelele: "The African Image" London. 1972. 19,20

(20) Sir Halford Mackinder "The Geog. Pivot of History" London, 1951,

(21) Nadabninge Sithole, African nationalism, capetown 1959, pp. 65,69.

(22) J. Kimble. "Tropical Africa," Vol. ll, New York.1962, 112.P

(23) Bernard Fonlon, "The Language Problem in. Gameroon" Camparative Education, Vol 5, No. l. 1969, p 30.

(24) المرجع السابق ص 36.

(25) S.J. Epale. "The lmpact of Early English Christian, Missionary Contact on Economic growth in Gameroon 1880-1884" P.58. in Symposium Leo Forbenius. Deustsche Unesco, 1974.

(26) المرجع ما قبل السابق ص 42.

(27) يجب الحذر فيما يختص بانتشار اللغات الأوروبية فليس معنى كون الإنجليزية أو الفرنسية

لغة رسمية في دولة أفريقية، أن سكان تلك
الدولة يتكلمونها كافة وإنما تتكلمها الطبقة المتعلمة وهي نسبة ضئيلة من السكان.

(28) The Effect of Bi-Lingualism on the Abstrasct and Concrete. Thinking Ability of Yoroub Children (1967)

(29) Soper. Tom. “European Trade with Africa. Af. Affairs. Vol. 67. No. 267, 1968, P 146.

وراجع أيضا د. محمد عبد الغني سعودي / أسواق الصادرات الأفريقية، مجلة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع عدد 345 يوليو سنة 1971. ومحمد عبد الغني سعودي: السوق الأوروبية الموسعة وآثارها الاقتصادية والسياسية على أفريقية. مجلة الجمعية الجغرافية المصرية العدد السادس سنة 1973.

(30) David Smock. Language policy in Ghana, Op Cit. P; 18L

(31) المرجع السابق ص 182.

(32) Bernard Fonlon, “The Language Problem in Cameroon” Comparative Education, Feb. 1969, P 43.

(33) المرجع السابق ص 44.

4 قضية الزنوجة

(الزنجية أو الزنوجة)

لن يكون الأبيض زنجيا قط

لأن الجـــمــــال أســــود

والحـــكــــمــــة ســــوداء

لأن الــتــحــمــل أســود

والــشــجــاعــة ســوداء

لأن الـــصـــبـــر أســـود

والحـــديـــد أســـود

لأن الجــاذبــيــة ســوداء

والــــســــحــــر أســـود

واهـــتـــزاز الأرداف أســـود

لأن الـــرقـــص أســـود

والإيـــقــــاع أســــود

لأن الــــفــــن أســـود

والحـــركــــة ســـوداء

لأن الـــضـــحـــك أســود

لأن المــــرح أســـــود

لأن الـــســـلام أســـود

لأن الحـــيـــاة ســـوداء[1]!!

لا شك أنك تتعجب وتضحك في آن واحد، بعد أن قرأت هذه الأبيات الشعرية للشاعر الزنجي

ليون داماس، ولكنك بعد أن تعلم بأنه شاعر زنجي ستأخذ الأمر بشيء من الجدية لتتبين الأمر، وتعرف كنهه. أنى له أن يقرن الجمال والنبل، والحكمة، والفن، والمرح، بل والحياة بالسواد على غير ما اعتدنا وألفنا؟ حين نقول «نهارك أبيض» كناية عن أملنا لك بأن يكون يومك سعيدا، فاقترن البياض لدينا بالسعادة والتفاؤل، والعكس صحيح. والواقع أن الشاعر الزنجي في هذا يعبر عن رد فعل لأفكارنا ومفاهيمنا عن الألوان، وهو لا يقصدنا نحن بالذات، وإنما يقصد الأوروبيين الذين-احتقروا الزنجي، واحتقروا اللون الأسود.

وقد عبر سارتر[2] عن هذا في مقدمته التي كتبها لمختارات جديدة من الشعر الزنجي والملاجاشي (Nouvelle Anthologie de la Poesie Negreet Malagache) التي جمعها سنجور[3] بقوله «يتعلم الزنجي أن يقول أبيض كالثلج حين يشير للبراءة، ويصف النظرة التي لا ترضيه فيقول إنها سوداء، ويصف الروح بأنها سوداء أن كانت شريرة، والفعلة السوداء أن كانت قبيحة، أي أنه يدين نفسه، يتهمها أول ما يفتح فاه» لم يكن عجبا إذن أن يقلب الأفريقي الآية ويتغنى بزنوجته وسواده الحالك، ويهجو البياض والبيض.

الجهل بتاريخ الزنوج وتبرير الاستعمار:

الجهل بتاريخ الزنوج القديم واختلاف العادات والحقد السلالي من قبل الأوروبيين نحو الزنوج الذين تقابلوا معهم أول مرة فضلا عن الرغبة في الاستغلال، كل هذه العوامل هيأت العقل الأوروبي للحط من قدر الزنوج عقليا وحضاريا، وأصبح الزنجي لديهم قرينا للتخلف، والبدائية، والانحطاط والقدرة العقلية المحدودة، ولما كان الإنسان لا بد له من تبرير لتصرفه فقد ذهب الأوروبيون إلى أبعد من هذا، لأنه كان عليهم أن يبرروا استعمارهم لأوطان الزنوج، وأن يبرروا استرقاقهم في تجارة هائلة امتدت نحو أربعة قرون، ومن ثم كثرت كتابتهم التي تستهين بقدراتهم وكفاء اتهم، و بذلك تسممت أفكار أجيال متعددة من الأوروبيين لتبلور في النهاية كحقيقة معترف بها بأن كلمة الزنوج ترادف «البشرية المتخلفة أو المنحطة[4]» ومن ثم يصير تبرير الاستعمار سهلا، فهو لغرض وواجب إنساني وهو مسؤولية أخلاقية لابد من القيام بها، لنقل فضائل ديانتهم وحضارتهم لشعوب المستعمرات

المتخلفة، فواجب الرجل الأبيض أن يرفع من مستوى أخوة له كانوا قليلي الحظ، ومع ذلك فهم رفاق البشرية الذين تعرض المسيح من أجلهم لضروب من الآلام.

وعلى البعثات التبشيرية رفع الإنسان الزنجي إلى مستوى الآخرين، وتمارس الرأسمالية الأوروبية أبشع صور الاستغلال متخفية وراء هذا الستار الأخلاقي. و يعبر عن هذا الاستغلال الشاعر النيجيري دنيس أوسادباي D. Osadebay[5] على لسان الأفريقي بقوله:

أنا لا أملك بندقية ولا أملك قنبلة،
أنا لم أصلح للحرب بعد،
جلبت لي صليبك ثم قذفت بي،
لقد أصبح قلبي مليئا بالمرارة،
أخبرتني أن أغمض عيني وأصلي،
لكنك كنت تسرق أرضي،

وفي تعبيره عن الصراع بين الأوروبي الظالم والأفريقي المطحون قال: «صاحبنا الرجل الأبيض يبتسم بينما أحمل أكياسا من حبوب البن وثمار النخيل والبندق إلى مخازنه لأحصل على الجنيهات، أعطاني بنسات وجعلني غاضبا ومندهشا. ويقول: خذها كلها أو اتركها كلها لا يمكنني أن أدفع اكثر من ذلك»[6]. واعترف الأوروبيون في آخر الأمر للزنجي ببعض المواهب الفنية. وحتى في نظرتهم هذه دليل على أنه مخلوق أقل قدرة، فهذه كانت فكرة ديجوبينو DeGabineau أحد المبشرين بالنازية ومن فلاسفتها في القرن التاسع عشر في كتابه عن «عدم المساواة بين الأجناس» حين يقول بأن الفن في دماء الزنجي ولكنه في نفس الوقت لا يعتبر الفن إلا مظهرا من مظاهر البشرية غير الناضجة [7]. فالعاطفة زنجية والعقل إغريقي L‘emotion، est negre et Laraison Hellene لا شك أن هذا المناخ الغريب كان له أثر على الشخصية الزنجية وخاصة على المثقفين من الزنوج الذين كانت أمامهم الفرصة ليعرفوا كيف ينظر العالم إليهم، وقد حدث في بعض الأحوال أن فقد بعض المثقفين الزنوج ثقتهم بأنفسهم و بشعوبهم، بينما احتفظ البعض الآخر بهذه الثقة ولم يقبلوا نظرة العالم الأوروبي إليهم.

ومن أمثلة هؤلاء الذين قاوموا انعدام الثقة بالنفس دكتور كوجير

آجيري(1875- 1927) Kwegir Aggry وأصله من قبيلة الاكان الشهيرة بغانا تعلم في المراحل الأولى في غانا، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1898 وتخرج في جامعة كارولينا، والتي درس فيها سنين عدة قبل أن يحصل على درجتي الدكتوراه والماجستير من جامعة كلومبيا، وأصبح فيما بعد نائبا لعميد كلية أشيموتا في غانا.

كان أجري فخورا بزنجيته، فخورا بأفريقيته، معتزا بلونه الأسود وأنه ينتمي للجنس الأسود أينما كان. انظر إلى قوله:

إذا صعدت روحي إلى السماء وقال لي ربي: «أجري إني سأرسلك إلى الدنيا مرة أخرى فما رأيك، أتفضل أن ترجع أبيض اللون؟» فسوف أجيبه « :لا، أرسلني أسود رجلا أسود، معتما كامل السواد وإذا سألني ربي لماذا؟؟«فسأجيبه «لأن لدي عملا سأقوم به، ولا يمكنني كرجل أبيض أن أؤديه، من فضلك أرسلني أسود بقدر ما تستطيع من سواد». [7]

ولكن رغم أن أجري كان يفخر بسواده، فإنه كان يعتقد اعتقادا راسخا بضرورة التعاون بين السود والبيض وكان يقول في هذا السبيل بأنك يمكنك أن تخرج نغما بالعزف على أصابع البيانو السوداء وحدها، ولكن لتخرج نغما منسجما لا بد من العزف على الأصابع البيضاء والسوداء كلها.[8]

ولدت في ساحل الذهب بارك الله فيها، وأنتمي إلى المائتي المليون الزنجي أدافع عنهم، وأود أن أرى التعاون بينهم وبين البيض، وأن يعطوا الفرصة الكاملة للنهوض بأفريقية لتقدم خدماتها الكبرى للإنسانية.

و يزداد التعصب للون الأسود لدى شاعر غانا الشهير أرماتو (E.R . Armatto) في قصيدته «في أعماق الرجل الأسود [9]» حين يقول:

ألــــهـــنـــا أســـــود
نادى عليه من الغابات
من التلال إلى الإحراج
دع الإحراج تسترجع الصدى
ألــــهـــنـــا أســـــود

صحوة الزنوج

كانت الأعوام التي انقضت من بداية هذا القرن إلى نشوب الحرب

العالمية الأولى هي آخر فترة يمكن أن يزدهر فيها استعمار، فالمغامرات الاستعمارية من الطراز القديم كانت عند نهاية الحرب العالمية قد أتمت الشوط، ولم يكن غريبا أن الكثير من الرجال الذين انتزعهم الإنجليز والفرنسيون من المستعمرات، للدفاع عن الحرية والديمقراطية كانوا معاول قوية في هدم صرح الاستعمار، وقد كتب استعماري فرنسي يقول: أن المائة والخمسة والسبعين ألفا من الجنود الذين جندوا فيما بين عامي 1914، 1918 قد حفروا قبر أفريقية القديمة في خنادق فرنسا والفلاندرز[10].

ووصف أرنولد توينبي ذلك الموقف فقال: «إنها كانت حركة، تناسق مظهراها الرئيسيان بشكل عجيب: في طورها السلبي كانت نحو إزالة سيطرة الدول الغربية، وفي طورها الإيجابي كانت حافزا لاعتناق أساليب الغرب العسكرية وأنظمته السياسية وتنظيمه السياسي والاقتصادي وثقافته الروحية».

وقد يكون من الطرافة بمكان أن الأفريقيين كانوا ينظرون إلى البيض الغرباء نظرتهم إلى الآلهة، وكانوا يطلقون عليهم الآلهة التي تأكل الذرة، غير أن هذه الفكرة تغيرت تماما، و يقول الزعيم الأفريقي الروديسي سيتهول N. Sithole أن هذا التغيير بلغ حدته عندما وجد الأفريقيون أن للآلهة البيض شهية بشرية لا للذرة الأفريقية فحسب بل للنساء الأفريقيات أيضا، وزاد رد الفعل حينما عاش الأفريقيون الحرب إلى جوار الأوروبيين، فان بنات الشارع في لندن وباريس لم تبق على أسطورة الرجل الأبيض، ورأى الجندي الأفريقي أن تأثير الرصاصة واحد بالنسبة له وبالنسبة للأبيض، فكان لهذا كله أثره على سيكولوجية الأفريقي، واخذ ذلك الحاجز بينهما يرق تدريجيا حتى وصل إلى مرحلة الشفافية، فبعد قضاء أربع سنوات في صيد البيض من جنود الأعداء، لم يظل هؤلاء البيض آلهة بعد، لذلك لم يعرف العالم الحركات القومية في المستعمرات الأفريقية أو لدى الزنوج الأوروبيين قبيل الحرب العالمية الأولى، وكان اثر هذه الحرب واضحا وقويا عليهم.

ورجع الذين كتبت لهم الحياة بعد هذه الحرب إلى مواطنهم الأصلية محملين بأفكار سياسية جديدة والبعض الآخر ظل في فرنسا، ولم يتجمعوا جميعا في باريس، بل منهم من استقر في جنوب فرنسا وخاصة في مينائي

مرسيليا وطولون، ومثلما حدث في فرنسا حدث في إنجلترا، استقر كثير من محاربي المستعمرات في الموانى والمدن البريطانية، وفي نفس الوقت وصلت أعداد من جزر المارتينيك وجواديلوب إلى فرنسا، واتصل المهاجرون بالقرى اليسارية، وكانوا في فرنسا تحت تأثير كبير للشيوعيين، والى جانب هؤلاء أيضا كان المهاجرون من الهند الصينية مثل «هوشي منه« أبرز شخصيات هذه الجماعة، من ثم كانت عملية تسييس هذه الطليعة الأفريقية الكاريبية مرتبطة بالحركات المقاومة للاستعمار[11].

وفيما بين عامي 1920 , 1939 أقامت هذه العناصر تنظيمات، وأنشأت بعض الصحف التي لم تستمر في أول الأمر بسبب مواجهتها لصعاب مالية وصراعات داخلية، هذه الصراعات كانت سياسية بالدرجة الأولى من حيث اتجاهها نحو الشيوعية، فسكان جزر الهند الغربية كان مستواهم التعليمي أعلى وكذلك الحال في مستواهم المعيشي عن الأفريقيين، ويحسبون أنهم اكثر تحضرا، أما الأفريقيون فكانوا ينظرون إليهم على انهم متعجرفون وانهم لا يفهمون مشكلات أفريقية كما يفهمها الأفريقيون، كذلك كان أبناء جزر الهند الغربية معتدلين، على حين كان الأفريقيون اكثر حماسا بوجه عام. واندست الاستخبارات الفرنسية في هذه المنظمات لدرجة أن أحسن المصادر لتاريخ هذه الفترة هي الموجودة بأرشيف وزارة المستعمرات الفرنسية، خاصة أن معظم هذه التقارير مصحوبة بقصاصات ومقتطفات من المنشورات والصحف التي أصدرتها مما يجعل قيمتها مضاعفة، نظرا لأن هذه المنشورات غير متوفرة في المكتبات العامة.

المحاولة الأولى لجمع الأفارقة وأبناء جزر الهند الغربية:

كانت المحاولة الأولى لجمع الأفريقيين وأبناء جزر الهند الغربية في باريس على يد لويس هنكارين Louis Hunkarin وقد ولد هنكارين في بورتونوفو في داهومي عام1887 ولكنه درس في مدرسة المعلمين العليا في سانت لويس بداكار، وعندما عاد إلى وطنه قام خلاف بينه وبين حاكم داهومي،

الروابط بفرنسا فتجده يكتب عام1923 موجها خطابه إلى إخوانه الزنوج بقوله (إلى إخواني الذين يحبون فرنسا) ولكنه كان يعارض بشدة لفظ الرعايا بالنسبة للأفريقيين، و يطلب لهم حق المواطنة، الكاملة وأجبرته السلطات الاستعمارية على العودة إلى موطنه داهومي في عام 1925 وبغياب هوينو ظهر رينيه ماران على المسرح ورغم أنه كان يهاجم الاستعمار بصورة اكثر حدة من هوينو إلا أنه أيضا كان متمسكا بسياسة الاندماج.[13].

هكذا كانت الزنوجة باريسية الصنع، حيث اجتمع فيها شباب من أقطار متعددة من أفريقية ومن العالم الجديد، ثقافاتهم متنوعة، ولكن يجمع بينهم و يؤلف أربعة أمور كانت بمثابة القاسم المشترك الأعظم وهي:-لون الجلد الأسود، اللغة الفرنسية، التراث الاستعماري، المعيشة في باريس، ولعل لون الجلد كان أهمها جميعا لأنه أصبح أساس الزنوجي وعمادها[14]. ولم يكونوا عابري سبيل في ذلك البلد، أو ضيوفا زائرين، فالذي لم يستقر منهم ويستوطنها مكث فيها عشر سنوات أو يزيد، ولكنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع الفرنسي، وليس في قلبه، ولما كانوا يعرفون فرنسا من خلال خبراتهم وتجاربهم في تلك الفترة، فترة الشباب، والتي تمثل اليقظة في أوجها، فقد أرادوا معرفة أوطانهم الأصلية التي هاجروا منها، ذلك من خلال ما كتب في علوم الانثربولوجيا والاجتماع. ولم يكن منهم من يشعر بانتماء إلى قطر معين في فرنسا ما وراء البحار، كما كانت تسمى المستعمرات الفرنسية حينذاك ولكنهم كانوا يشعرون بالانتماء إلى أفريقية، فكان مفكروهم يتكلمون عن أفريقية، لا عن السنغال أو جابون أو ساحل العاج. ولم لا؟ فالأصل والقبيلة كانت اكثر أهمية واكثر صدقا من تلك الحدود المصطنعة التي رسمها المستعمرون، هذا فضلا عن أن الإدارة الفرنسية كانت تركز على الاتحادات اكثر من الأقطار منفردة، فكان هناك أفريقية الغربية الفرنسية وأفريقية الاستوائية الفرنسية. وإذا كان طلب العلم قد فصلهم وأبعدهم عن مواطنيهم الأصليين وجمع بينهم في باريس فلم يكن كل من عاش في باريس في تلك الفترة من مفكري هؤلاء القوم، لديه إحساس قوي بالذات، بل كانوا يمثلون أقلية أو نخبة من المتعلمين، ومن هؤلاء كان دعاة الزنجية والمروجون لها، والذين كان من المتوقع لهم أن يستخدموا مهاراتهم في التحليل وقدراتهم في التفكير لأن يصبحوا ناقدين

اجتماعيين، ولكنهم اكتشفوا ماضيهم، ذلك أن الاكتشافات الفنية ودراسات علم الأجناس في ذلك الوقت قد حتمت العودة إلى تقدير الحضارة الأفريقية، فقد أثبتت أعمال فوريينس، وديلافوس. أن لأفريقية والأفريقيين ماضيا وتاريخا لابد من إعادة دراسته وكتابته، وأصبح التاريخ الأفريقي أحد التخصصات التي يكتب فيها المتخصصون، كما رفع الفنانون الأوروبيون من قدر النحت الأفريقي، واصبح من الموضوعات التي تثار في الصالونات الفنية نقدا ما بين مدح وقدح، وازدهر حقل جديد من حقول المعرفة. وكتب سنجور كثيرا عن الحاجة الأساسية لاحترام الذات والتي تسبق أي عمل سياسي، ومن ثم كانت المهمة والفرصة أمام المفكرين الأفريقيين أن يكونوا بمثابة الأنبياء يهدون قومهم.

وسمحت الثقافة والتقاليد الفرنسية بقيام حوار كبير، والترحيب بمفاهيم جديدة كالزنجية والأفريقية (Africcanite) كما كانت الحركة الفكرية وظروف تلك الفترة مما يشجع على ظهور الجديد، إذ كان الإداريون المستعمرون من الطبقة المثقفة التي تستخدم منطق ديكارت وألفاظ روسو. فإذا وضعنا هذا في الاعتبار فان الزنجية يمكن أن تستخدم سلاحا في الجمعية الوطنية الفرنسية ضد هؤلاء الذين مازالوا يعتقدون بدونية السلالات الأفريقية، أو هي كانت بمثابة الدرع أمام استعلاء الثقافة الفرنسية تقوم بالوظيفتين الدفاع والهجوم في أرض هؤلاء المستعمرين. وقد وجدت الزنجية استهواء لدى النخبة من رجال الإدارة والحكومة والمفكرين الفرنسيين، لأنها من الناحية الإدارية لا تشكل خطرا على الإدارة الاستعمارية الفرنسية بأية حال، لسبب بسيط وهو بعدها عن الجماهير الأفريقية، من ثم كان خطرها مستبعدا بالنسبة للأوساط الرسمية الفرنسية، فأنبياء الزنجية من أفريقية وجزر الهند الغربية لم ينكروا فرنسيتهم فقد وصف سنجور نفسه[15] اكثر من مرة بقوله: أنا فرنسي[16] وكان أول اجتماع خطب فيه وأكد على أهمية الثقافة الأفريقية، لم يكن في الجماهير الأفريقية، ولكنه كان في الغرفة التجارية بداكار، كما تطبع مجلة الوجود الأفريقي (Presence Africaine) في مجلة الوجود الفرنسي (Presence Francaise) وكان على الكتاب الزنوج أن يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنشر في فرنسا، وإلا فأين المعجبون بأعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان سنجور سيخاطبه في

السنغال ؟ ونظرا لعدم وجود خطر من إثارة الجماهير، وضعف الاتصال بين النخبة والجماهير من أهالي المستعمرات، تأكدت الإدارة الفرنسية أنه لا خوف من هذه النخبة الزنجية المتشبعة بالثقافة الفرنسية والمدنية الفرنسية، و بدأت تنمو المصالح بين مؤسسي الزنوجة والمؤسسات الاستعمارية.

فالزنوجة تتحدث عن الغربة، لذلك كان الأفريقي الذي تشرب الثقافة اللاتينية هو الذي سعى حثيثا نحو فكرة الزنوجة، يحاول استعادة ماضيه، ففي شعره يمجد أسلافه وأقنعة هؤلاء الأسلاف ويمجد فن الحفر الأفريقي سواء على الخشب أو البرونز.

اقرأ لسنجور في صلاته للأقنعة[18] (التي يلبسها الأفريقيون).

أنت تنقين هواء الأبدية.
هنا حيث استنشق عبير آبائي.
أقنعة لوجوه غير مقنعة.
خالية من الغمازات والتجاعيد.

ويعبر عن هذه الغربة عن المجتمع ليون داماس في قصيدته «كشف حساب».

أشعر بسخف
وأنا البس أحذيتهم، وسترات العشاء.
في قمصانهم المنشاة وياقتهم المصنوعة من الورق،
بنظارتهم الأحادية (المونوكل) و بقبعاتهم،
أشعر بسخف،
بالعرق من الصباح إلى المساء،
في ملابسهم الملفوفة حولي بشدة تضعف أطرافي،
وتحرم جسمي من جماله.

ولكن هذه النخبة الزنجية أول من عانى أو أحس بوطأة التمييز في العهد الاستعماري، بينما لم تحس بها الجماهير العريضة بنفس الدرجة، وحتى حين ظهر نوع من التحدي والاحتجاج في جهات أخرى، وأدى إلى تبلور القومية، كان أنبياء الزنجية ينادون بنوع من التآلف أو الاتحاد مع المؤسسات الفرنسية، من ثم احتملت الإدارة هذه الدعوة لأنها لم تكن

برنامجنا للتغيير، أو لتحريك الجماهير ضد النظام الاستعماري، أو بعبارة أصح لم تكن دعوة للعمل ضد فرسا.

ولما كانت الزنوجة كما حددها سنجور تتحدث عن الغربة ولا تتحدث عن الاستغلال، تتحدث عن الفرد لا عن الجماهير، تخاطب المتعلمين والمثقفين لا الأميين من ثم وجدت استهواء لدى النخبة المثقفة الفرنسية، وكان سارتر الرفيق الروحي لسنجور ممن تبنوا قضية الزنجية.

وفي نظر دعاة الزنجية أن إنسان المدنية الغربية بلا جذور، خرج من حياة الجماعة إلى الحياة الفردية، وفي ذات يوم بدأت هذه السمات الغربية تغزو سكان المستعمرات فاقتلعت الإنسان الأفريقي من جذوره، ودمرت تقاليده، وأهلكت عددا كبيرا من أهله، ورمت به في عالم الآلة والذرة، فأصبح الزنجي بدوره مشدودا وفريسة لنفس النمط من الحياة المادية الآلية التي يعيشها الأوروبي كيف يحارب و يتخذ موقفا مضادا من هذا العالم الذي اشتدت ماديته وتكنولوجيته وخلا من الحس والعاطفة ؟ الواقع أن هذا الاستغلال الوحشي للزنجي هو الذي جعله يقترب مرة أخرى من أصله، من مجتمعه حيث يوجد معنى معقول للوجود، وحيث لا يفقد الإنسان كلية طبيعته وسجيته.

و يشرح سنجور التضاد بين الأفريقي الأسود والأوروبي الأبيض، فهو يقول، بأن الأوروبيين من أجل فهم شيء ما لابد أن يفتتوه إلى أجزاء، ويحللون هذه الأجزاء، و يدفعهم إلى ذلك الرغبة في السيادة على الطبيعة، اعتاد الأوروبي أن يلوي الطبيعة لخدمة أغراضه المادية، والنتيجة أن الحضارة الأوروبية هي حضارة تحليلية رياضية ميكانيكية مادية، حضارة قوة ولكنها خالية من الروح الجماعية والروحانية[20] وقد عبر بازل ديفسن B. Davidson عنها اصدق تعبير حينما قال إن الزنوجة لديهم هي وسيلة للاحتجاج، سلاح للنضال للحصول على المساواة، وتحد رمى به أمام عالم ظهر أنه يعطي اهتمامه فقط للإنجازات المادية[21].

وفي قصيدته نيويورك يقارن بينها وبين بلاده، و يظهر فيها أن جمالها مصنوع جامد، من ثم لابد من انسياب الدم الأسود فيها حتى يزيل الصدأ من مفاصلها ويكسبها حيوية وحياة ونعومة ويتحقق لها إلى جانب العقل المجرد العاطفة الجياشة.

نيويورك

نيويورك، لأول وهلة فتنني جمالك
حرت في فتياتك الفارعات الشقراوات ذوات السيقان الطويلة
وبهرتني عيونك الزرقاء المعدنية وخجلت،
وبسمتك الجليدية ففهمت
ألم موجع في الأعماق يخترق الشوارع
والعيون تظللها الكفوف تراعي ناطحات
أخفت وراءها الشمس
أيتها الناطحات يا من تتحدين العواصف بعضلات من الصلب
وطلاء من الحجر الأملس،
ضوءك كله فوسفوري، وأبراجك حمراء كالكبد المثار
أسبوعان، لا اكثر على أرصفة جسر مانهاتن العارية
ثم تدهمك الحمى في نهاية الأسبوع الثالث
وتنقض عليك انقضاض فهد شد الجوع أعصابه
أسبوعان بلا أنهار، أو حقول، ولا شجر
نيويورك اسمعي
دعي الدم الأسود ينساب في عروقك
دعيه ينصب انصبابا في دمك في كل جارحة
عساه يزيل الصدأ من مفاصلك الصلبية
دمنا زيت الحياة
عساه يكسب جسورك حنية الأرداف وليونة الزواحف
حينئذ تستعيدون زمانا مضى
وتتحقق الوحدة من جديد
بين أسد الغاب، وأبقار القرى، وأشجار الحقول
و يرتبط الفكر بالعمل، والأذن بالفؤاد، والإشارة بالمعنى
وتعج أنهارك بتماسيح عطر رائحتها
وأفراس نهر عيونها سراب
افتحي عينيك على قوس قزح في أبريل
انظري قوس قزح، انظري ألوانه، أزهاره

أصغي بأذنيك، اجعليها فوق كل الآذان
تسمعين صوت الإله،
خلق الأرض وإبعاد السماء من ضحكة ساكسفون
ستة أيام وراح اليوم السابع يغفو وينام، نومة عظمى، نومة الزنجي

ويعبر ريموند كوينن[22] R. M. Kuenene عن الحضارات التي تمثلها القوى الكبرى بالنسبة له وللأفريقيين فيقول في قصيدته «فكر في 26 حزيران»[23]

هل أنا مخطئ ما أشعلت الأرض
ورقصت فوق النجوم
أشاهد أوروبا تحترق بمدنيتها المضنية
أشاهد أمريكا تتفكك بآلهتها من الصلب
أشاهد جلادي البشرية يتحولون إلى رماد
هل أنا مخطئ؟ هل أنا مخطئ ؟

جذبت هذه النظرية وهذا الاتجاه في التفكير النخبة الفرنسية، خاصة الذين كرهوا قيم الحضارة الرأسمالية.. وهذا الإعجاب انعكس بدوره على الكتاب الزنوج ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن فكرة الزنوجة لم تكن غريبة على الفكر الفرنسي، بل أن مبادئها تتفق إلى حد كبير مع صورة أفريقية والأفريقيين لدى المفكرين في كثير من المؤسسات العلمية الفرنسية.

فأستاذ جليل مثل يوجين جارنييه[24] Eugene Guernier في مؤلفه عن «إضافة أفريقية إلى الفكر الإنساني» L'Apport de L'Afrique a la Pansee Humaineيأتي بنظرية ما هي إلا ترديد لما ينادي به كتاب الزنوجة عندما يقول بأن العاطفة والنغم تسود حياة الأفريقي، ما ظهر منها وما بطن، وسوف يقوم الأفريقي بإضافته في المستقبل، ولكن جارنييه يستخدم نظريته عن سيادة العاطفة عند الزنوج ليدلل بها على الفرق بينه وبين الأوروبي، ومن ثم يؤجل اليوم الذي يمكن أن يتقبل فيه الأفريقي معطيات الحضارة الغربية بما فيها من الاستقلال والحكم الذاتي، وفي الوقت نفسه يثبت علو مكانة فرنسا، وتفتحها، وفي الوقت نفسه يتفضل بالقول بأن الحضارة الأفريقية في المستقبل قد تضيف شيئا يذكر إلى الحضارة الغربية (الفرنسية) هذا الاتجاه من التفكير يفسر لنا السبب في أن بعضا من المفكرين الفرنسيين سواء في المؤسسات الأكاديمية أو الاستعمارية رحبوا

بالزنوجة، غير انه يجب أن نعرف بان الحكومة الفرنسية لم تترك لهم حرية النقد تماما، فهؤلاء الذين حاولوا الذهاب بعيدا في النقد، صادفتهم صعوبات كثيرة، فقد أغلقت مجلة العالم الأسود (Revue du Monde Noire) بعد ستة أعداد فقط من صدورها لأنه كان يكتب فيها من أمثال ريينه مارن R. Maran كلود مكاي C. Mackay ودكتور برايس مارس[25] P. Marce كذلك منعت الحكومة صدور صحيفة صرخة الزنوج Crie de Negre الاشتراكية.

تطور الزنوجة

ولنرى هذه العملية بوضوح اكثر فلا بد من تتبع لتطور الزنوجة في مراحلها المختلفة، رغم أن سنجور يعبر في فلسفته عن الزنوجة بأنها نواة دائمة من القيم والمفاهيم، فقد حدثت لها فعلا بعض تغيرات بمرور الوقت، وقد صاحبت هذه التغيرات تغيرات مماثلة في مواقف وأغراض سنجور، تبعا لتحول السنغال من طلب الاستقلال إلى الاهتمام بالتنمية.

وقد تطورت الزنوجة على مراحل تاريخية ثلاث، بأن الأولى بتجمع بعض الشباب الزنجي في باريس في الثلاثينيات واستمر هذا حتى الحرب العالمية الثانية، وقد انتمى سنجور إلى مجموعة من الطلاب والشباب المثقف الذين كانوا يعملون بالسياسة، والذين كانوا ما زالوا يبحثون عن هويتهم الشخصية. واستمرت المرحلة الثانية من الحرب العالمية الثانية حتى حصول السنغال على استقلالها عام 1960 وفي هذه المرحلة اصبح سنجور زعيما مشهورا وعضوا ممثلا للسنغال في كثير من المؤسسات الفرنسية في باريس[26] وكان الزعماء الأفريقيون في هذه المرحلة مشغولين بالمشكلات الخاصة بإثبات هويتهم القومية ويحاولون تحديد العلاقة بين فرنسا وأقاليم ما وراء البحار. أما المرحلة الثالثة فهي التي أعقبت الاستقلال، وتحولت خلالها الزنجية إلى مذهب للوحدة والتنمية الاقتصادية والثقافية كما سترى.

١ - جذور الزنوجة

يعتبر من أهم ممثليها جين برايس مارس Jean Price Mars من جزيرة هايتي، وإيمي سيزير Aime Cesaire من جزر المارتينيك، وليوبولد سيدار سنجور L. S. Sengor من السنغال، وهي جماعة ثقافية أدبية فلسفية لم

تأخذ الطابع السياسي لمدة طويلة حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. والكتابات الخاصة بأدب الزنوجة وعناصرها متعددة وكثيرة، ويهمنا هنا أن نتتبع الخطوط الخاصة بها.

ورغم أن سيزير وسنجور لم يكونا أعضاء في أي جماعة حزبية، فان حركة الزنوجة توضح مرة أخرى التأثيرات عبر الأطلنطي، وكذلك تداخل الناطقين بالإنجليزية والفرنسية من أبناء المستعمرات، وكان الوسطاء في كل جانب هم هؤلاء الزعماء الذين يجيدون اكثر من لغة، اشتهر من بينهم كلود ماكاي C. Mackay من العناصر الناطقة بالإنجليزية، بينما اشتهرت بوليت ناردال Paulette Nardal من المارتينيك الفرنسية والتي كانت تجيد الإنجليزية، وقد أقامت بوليت ناردال صالونا أدبيا في باريس لاى، حيث كان يجتمع فيه الزنوج الأمريكيون والأفريقيون واصبح هذا الصالون هو المركز الثقافي الذي خرجت منه صحيفة مجلة العالم الأسود La Revue du Monde Noire التي ظهرت في نوفمبر سنة 1931 والتي كانت ترأس تحريرها وكانت لها طبعتان إنجليزية وفرنسية، وكانت تعتبر إنجازا هاما في تلك الفترة، ولم يحل محلها سوى مجلة الوجود الأفريقي La Presence Africaine عام 1962 وكان من أهم كتاب مجلة العالم الأسود رينيه ماران، وبرايس مارس، وديلافوس وليوفود ينيوس وكان من الأعضاء الصغار الذين تجمعوا حول بوليت ناردال ليوبولد سنجور والذي استطاع أن يدخل البيئة الأدبية في الحي اللاتيني. غير أن هذه الحقائق غير كافية للكشف عن الجذور التاريخية للزنوجة إلا إذا رجعنا إلى دائرة أو خلفية أوسع عن أزمة الصحوة في العالم الحديث، والتي حركها قيام الصناعة، فكما ظهرت الرومانسية الأوروبية كرد فعل أو استجابة لتحدي الثورة الفرنسية عام 1789 فان الثورة الصناعية أدت إلى أن بعض المفكرين أصبحوا يدافعون أو يؤيدون الرجوع إلى المثاليات، فقد أشار بعض الفنانين في أواخر القرن التاسع عشر إلى ضرورة الرجوع إلى الطبيعة في ذلك المجتمع الصناعي الذي اصبح يزداد تعقيدا، وعممت أهوال الحرب العالمية الأولى هذا الشعور بين الأوروبيين والأمريكيين، بينما كان هذا الشعور من قبل مقصورا على فئة محدودة. وهذه الأزمة الروحية التقت مع شكل آخر من نفس الأزمة عند عالم الملونين نتيجة الصدام الذي حدث بين المجتمع الحديث والقيم التقليدية أفريقية

كانت أو آسيوية لدى نخبة اشتد لديها الوعي، فظهرت عند الزنوج الأمريكيين حركة الرغبة في العودة إلى أفريقية تزعمها ديبوا Du Bois قبل الحرب العالمية الأولى، ورينيه ماران الذي اصدر رواية عام 1921 بعنوان باتوالا، وظهرت المقالات المتعددة في صحيفة القارات، وكذلك في مجلة العالم الأسود.[27]

عندما بدأت نظريات الزنوجة لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية أول الأمر، ثم اقتربت من كونها مذهبا للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفا مضادا ويمنع الاتصال والتكيف مع الفرنسيين، ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل، وعندما نشبت الحرب أو قبلها تحولت إلى مذهب يصلح للحوار مع الإدارة الاستعمارية، وقد ألقى سنجور محاضرته الشهيرة عن الزنوجة في جامعة اكسفورد عام 1961[28]، ناقش فيها اصل وتطور الزنوجة من النواحي النفسية والتاريخية والاجتماعية. ويقول فيها: إنه إذا أردت أن تفهم الزنوجة، فلا بد للإنسان من العودة إلى الحي اللاتيني خلال فترة ما بين الحربين، فقد نشأت بين طلاب ذلك الحي، بين المفكرين الزنوج الذين كانوا يبحثون عن هويتهم الشخصية. وبدأ سنجور حديثه بسؤال. ألم تكن الزنجية عنصرية جديدة؟ وكان جوابه المباشر غير واضح حين قال: سأعترف لهم أنها كانت في بدايتها عنصرية ضد التمييز العنصري (An Anti-Racist Rcsm) كما حددها سارتر في مقاله «أورفيوس الأسو» الذي قدم به مجموعة من شعر الزنوجة ثم استمر سنجور في تحليل موقف الطلبة الزنوج:

«فلتفترضوا أنفسكم بجلد أسود لمدة خمس دقائق، أنا أعرف أن هذا صعب عليكم، ولكن ليس هناك من طريقة لاكتساب الخبرة عن موقفنا حينئذ سوى هذه الطريقة، ارجعوا بأنفسكم إلى الوراء ثلاثين عاما إلى سنوات ما بين الحربين، كنا طلابا زنوجا نعيش في الحي اللاتيني بفورة الشباب وعاطفته، وأيضا بسذاجته وعفويته»

وقد وجدوا أنفسهم وقد غمرهم الإحباط لأنه ينظر إليهم على انهم سود البشرة، خالين من العبقرية أو القيم، يأتون كالشحاذين إلى مائدة الرجل الأبيض. وكانوا أو الأمر غير عالمين بالتمييز اللوني، يعتبرون أنفسهم من الشباب المثالي، ومع ذلك فكان الأوروبيون ينظرون إليهم على انهم

سود.

«علمونا في المدارس الثانوية أننا ليس لدينا أي حضارة، لم نكن مدعوين على مأدبة العالم، بل أننا عبارة عن شمع طري يمكن تشكيله وأنكم يمكن أن تمنحونا طريق الأمان الوحيد وهو السماح لنا بالاندماج»

وهكذا نجد الظلم في أن يحكم عليك بسبب صفة سطحية، وهي لون جلدك، و يعبر سنجور عن لون الجلد هذا بأنه أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية. ومع ذلك فان سنجور في شعره يؤكد دائما على الجمال الأسود. ولكن هذا العار أو الحري من لون الجلد ضمن أن يكون رد فعل حين يقول:-

وعلى العكس، كان الفرنسيون هم الذين أجبرونا أن نكشف عن أنفسنا أو نستكشف أنفسنا بأنفسنا، ففي الأيام الأولى أحسسنا بأننا سنكون عاجزين عن الاندماج، ولكنا استطعنا فيما بعد أن نتشرب اللغة الفرنسية والرياضيات، ولكننا كنا غير قادرين على أن ننسلخ من جلدنا الأسود وروحنا السوداء، لذلك صبرنا نبحث جاهدين عن روح جماعية (Collective soul) والبحث عن روح جماعية يعد أمر معقولا ومقبولا عندما نتذكر بان كلا من سنجور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة، أتوا من جهات متفرقة من العالم، وتتباين ظروفهم الاجتماعية، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم و يأسهم، وربما الأصول المشتركة البعيدة، ونظرا لأن حالتهم النفسية أو روحهم غير مستريحة، فليس هناك افضل من البحث عن روح جماعية.

وقد ساعدتهم فرنسا بكتابها وعلمائها الأنثروبولوجيين وباحثي ما قبل التاريخ والفنانين الذين صنعوا الثورة الثقافية الفرنسية. و يستمر سنجور في خطابه بقوله:

ماذا تعلمنا من هؤلاء؟ تعلمنا منهم أن دخول الاستعمار أفريقية قد أحرق ظهر أفريقية وبخاصة تجارة الرقيق التي كانت مذبحة للقيم، وعلمونا أن هناك كانت حضارات زنجية مزدهرة، وأنه لا يمكن للتفسيرات المنطقية وحده أن تغير العالم، بل لابد من إضافة التفسير الحدسي الذي يخترق الحقائق والماديات وكل الأشياء السطحية، و يعترف سنجور في كلامه عن أثار هذه الاكتشافات العلمية عن أفريقية بأنهم قاموا وهم سكارى بخمرة هذه الحقائق الجديدة عن قارتهم بالانقضاض على العنصرية، وكدعاة

للزنجية رموا بأنفسهم كالسيوف المسنونة في هجمة على القيم الأوروبية التي لخصوها لنا في الثلاثية المعروفة: التفكير المنطقي، والتكنولوجيا، والاقتصاد النقدي أو التبادلي.

ولا ينكر دعاة الزنجية بدائيتها ولا يخجلون من إعلانهم عن عاطفيتها وحسيتها الفائرة، بل يزهون بها، و يعلنون أنها الدواء الذي يستطيع به الزنجي وحده أن يوصي العالم بإعطائها لمريض بتخمة الآلات والأرباح والحساب، انظر قصيدة المرأة السوداء لسنجور حين يقول:-

أو هو كنفو مسترخية على سريرها
من صنع غاباتها
سيدة أفريقية الأسيرة
دعي الجبال ترفع عاليا راياتها
جبال شكل الذكر
أني هنا أرصدها
واعرف أنها امرأة
عرفتها بوجهي، عرفتها بلساني
اعرف انك امرأة
والآن سأركب مرة أخرى بطون الرابية
أغوص في نعومتها

وهكذا وجدت الزنوجة نفسها واصلها في العاطفة لا في الخلاف السياسي أو في الإضافات العلمية الأكاديمية. وفي بداية هذه الحركة، كانوا كالمتعصبين للدين الجديد، أكد هذا المتعصب وزاد منه الامتعاض والاشمئزاز اللذان ولدهما الحكم الاستعماري، من ثم كانت تحديا ومعارضة تامة للحضارة الغربية.

هكذا كانت فترة ما بين الحربين هي فترة تخمر الفكرة لدى المفكرين الزنوج، كانت مرحلة رد الفعل ضد علمانية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومساءلة العقلانية الأوروبية، مما كان له أثره على تحول الطلاب الأفريقيين عن كل شيء غربي واتجاههم نحو أصول الزنجية أو منابعها. وفي استعادة سنجور للماضي يقول: هذا التحول إلى الأصول، وهذا الاستخفاف بالقيم الأوروبية، تحول بسرعة إلى احتقار لها، ولماذا

نخفيها؟ أنها عنصرية، وكنا نعتقد بأننا نحن السود، ملح الأرض، نحن حملة رسالة غير عادية لا يمكن للآخرين أن يحملوها.. بعد سلبية قيم الرجل الأبيض كان التأكيد على القيم الزنجية. ومع ذلك فان هذه العنصرية للزنوجة في مرحلتها الأولى سرعان ما خمدت، وكما يقول سنجور في خطابه مبينا هذا التحول عن الاستعلاء العنصري في أواخر الثلاثينات «كان تطرف النازية، والكوارث التي بدأت تظهر نتيجة لها من أهم العوامل التي جعلتنا اكثر اتزانا، فهذه الكراهية والعنف وفوق هذا وذاك تلك الدموع وذلك الدم كانت هذه جميعا مما لا نميل إليه، بل هي ضد نزعتنا إلى الحب غير أننا يجب أن نشير إلى أن هذه النزعة العنصرية لم تختف تماما، ولكن سنجور بدا يعدلها، أو بمعنى آخر حدث إبدال وذلك بالتأكيد على الاختلافات الثقافية، فعند نشوب الحرب كان قد وصل إلى أنه رغم وجود الاختلافات العرقية، فإنها لا تتضمن بالضرورة استعلاء عنصري أو إحساس بالدونية. وركز سنجور على الجانب الثقافي للمشكلة، وفي خطابه في اجتماع الغرفة التجارية في داكار في سبتمبر عام 1937 بدأ حديثه بالتأكيد على انه ليس في نيته إقناع المستمعين الأوروبيين بأفكار ما، ولكن بإعطائهم المنظور الصحيح لمشكلة الثقافة في أفريقية الغربية الفرنسية، وعلى حد قوله «اعظم مشكلة في تلك الفترة» وقد حدد سنجور الثقافة في هذه المحاضرة بقوله:-

إنها تفاعل بين الإنسان وبيئته المحيطة به بهدف الوصول إلى نوع من التوازن بينهما، والتربية لا شك أداة من أدوات الثقافة، وتمثل بالنسبة للطفل تلك الخبرة تنقل إليه عبر الأجيال السابقة على هيئة مفاهيم وأفكار ووسائل الخ...

فالثقافة ليست مظهرا أو قشرة خارجية يمكن الحصول عليها في عدة سنوات في المدرسة الفرنسية، إذ يختلف الأفريقيون عن الأوروبيين بسبب اختلاف خبرات الأجيال عبر القرون، فهؤلاء السود الذين اصبحوا من المثقفين والمفكرين الذين يعيشون في فرنسا، كانت نشأتهم في بيئة وارض أفريقية، من ثم فهؤلاء الأفريقيون لا يمكن أن يعاملوا ببساطة على انهم فرنسيون سود. وان على المفكرين السود بدورهم واجبا خاصا، فالقيم الأفريقية قد خمدت، عمل الاستعمار على الحط منها، و بلغ الأفريقيون

الدرجة التي فقدوا فيها طعم الحياة، كما فقدوا شخصيتهم. فإذا كانت الثقافة هي تفاعل، فان رسالة المفكرين السود هي الحفاظ على القيم الأفريقية، وإيقاظ إخوانهم من سباتهم هذا.

غير أن التمييز بين الاختلافات الثقافية والاختلافات الجنسية قد يكون معناه زيادة الفرقة والاختلاف، ولكن سنجور يقول بأن الاختلافات العرقية سوف تظل قائمة، ولكن ليس معنى هذا التباعد بين الأجناس، بل التقريب بينها في ظل تفاهم مشترك وعلى حد قوله: ما أجمل أن نكون متنوعين ولكن متآلفين، وقد خشي الأوروبيون التأكيد على الاختلاف الثقافي والجنسي، والذي قد يتبعه طلب الاستقلال السياسي، ولكن من الواضح أن سنجور عام 9137 لم يكن يهدف إلى ذلك، بل قال «دعنا نجعل من مواطني غرب أفريقية مواطنين فرنسيين» وبحلول عام 1937 خرج سنجور من المرحلة الأولى، وهي مرحلة التعصب العرقي التي صحبته طالبا في أوائل عهده بباريس إلى المرحلة الثانية التي يتكلم فيها عن السلالة ولكنه لا يأتي على ذكر الاستعلاء العنصري.

ولذلك كتب يقول عن الزنوجة: من الملاحظ أن الغضب هنا ليس معناه حقد أو تكشير أو امتعاض، وإنما الشعور هنا هو ضد التمييز العنصري.

وفيما يختص بموضوع الأجناس أو السلالات نجد ثلاثة مداخل:-

1- نظرية التفوق العنصري والتي تقول بان بعض الناس نظرا لعوامل بيولوجية أو غيرها اكثر رفعة عقليا أو ثقافيا أو جسميا.

2- نظرية الخبرة المشتركة، و يقصد بها أن جميع الناس الذين ينتمون إلى جنس واحد أو حضارة واحدة يكونون قد مروا بظروف تاريخية واحدة و بالتالي اشتركوا في مؤثرات واحدة وأصبحت لهم تقاليد وعادات واحدة و بالتالي مواقف واحدة، وان الاختلافات البينة بين البشر ترجع إلى تباين الظروف التاريخية والاجتماعية التي تؤثر فيهم.

3- نظرية تعترف بالاختلاف الوراثي بين البشر سلاليا وثقافيا. ولكن ليس معنى هذا استعلاء جماعة على أخرى، وهذا المدخل الأخير هو الذي رست عليه سفينة سنجور، فالزنوج أو السود هم سلالة عاشت تحت ظروف قهر، وبالتالي نما لديهم شعور وقيم فريدة[29].

2- الزنوجة منذ الحرب العالمية الثانية إلى استقلال المستعمرات.

بدأت أفريقية بعد الحرب العالمية الثانية تدخل مرحلة جديدة من الناحية السياسية، وهي مرحلة المطالبة بالاستقلال من جانب المستعمرات، ولكن هذه الفترة أيضا كشفت عن الاختلاف بين قادة وساسة المستعمرات الناطقة بالفرنسية، وتلك المناطقة بالإنجليزية نتيجة لاختلاف سياسات الدول المستعمرة، إذ كانت الإمبراطوريات الاستعمارية اللاتينية الأصل كفرنسا وأسبانيا والبرتغال تتبع سياسة الدمج وذلك بتشجيع المواطنين الأفريقيين على اقتباس ثقافتهم وترك الثقافة الأفريقية، ومن ثم يحق لهم أن يحصلوا على مكان مناسب اجتماعيا وعقليا وقانونيا في المجتمع الغربي، بينما اختلفت السياسة البريطانية، فقد كانت هناك محاولة لتجربة سياسة الدمج في القرن التاسع عشر في بضع مناطق محدودة من أفريقية كما في غامبيا، سيراليون وغانا، ونيجيريا من خلال البعثات التبشيرية، ولكن تم العدول عن هذه السياسة فيما بعد، وتقرر أن يحيا الأفريقيون في مجتمعاتهم وتحت حكم رؤسائهم التقليديين، وإذا تلقوا بعض التعليم فهو لتسهيل عمل الإدارة الأوروبية في المستعمرات، من ثم فمن الخطأ تشجيع نمو طبقة من المتأوربين Europinize، لذلك لم يكن هناك من الأفريقيين في المستعمرات البريطانية من يبحث عن هويته، فهو يعيشها، بينما الأفريقي الذي تعلم وسلك طريق الحضارة الأوروبية وحاول الاندماج هو ابن المستعمرات الفرنسية أو البرتغالية والأسبانية، الذين خرجوا من سان لويس، وليبرفيل، وساوتومي وفي بعض الأحيان تخلوا تماما عن ثقافتهم الأفريقية، بحيث أصبحوا فرنسيين أو برتغاليين أو أسبانا ولكن سود[30]! فهؤلاء هم الذين واجهوا مجتمع باريس، ولشبونة، وفوجئوا بان لون الجلد ما زال يحاصرهم فحاولوا استعادة حضارتهم يتحدون بها حضارة الغرب وثقافته.

لذلك فالأفارقة اللاتين كما يسمونهم، وجدوا أنه من الضروري الحصول على استقلالهم الحضاري قبل التقدم للحصول على استقلالهم السياسي، بينما ساسة المستعمرات الانجلو ساكسونية كما يطلقون عليها، تقدموا فورا ومباشرة في طلب الاستقلال السياسي، فبينما كان قادة وساسة المستعمرات الإنجليزية من أمثال نكروما وكينياتا يعقدون مؤتمر جميع الأفريقيين في مانشستر في الأربعينيات، وحضره شخصيات لها أهميتها

مثل ديبوا من الولايات المتحدة الأمريكية، واخذ المؤتمر الطابع السياسي، كان سنجور، وايمي سيزير واليون ديوب وغيرهم من أبناء المستعمرات الفرنسية يبحثون عن هويتهم في الزنوجة، والبحث عن الذات بدلا من تحريك الجماهير، وهؤلاء لم يهملوا المشكلات السياسية والتقدم الاقتصادي، فقد كانوا يوافقون على أن تكون هناك مصالح مشتركة بين أفريقية وفرنسا، ولكنهم طالبوا بالمساواة في المعاملة في جميع المجالات المادية والثقافية، والفرص المتساوية لجميع الناس الذين يحملون مؤهلات متساوية.

على العموم فان دعاة الزنوجة في هذه المرحلة استمروا في التأكيد على العناصر التي تربط فرنسا بأفريقية، أو عالم البيض بعالم السود، وتحولت الزنوجة من أداة للصراع إلى نظرية تركيبية ووحدوية، تدعو إلى التضامن والتعاون والاندماج[31] بين الاثنين وهذا واضح في قصيدته «باريس تحت الثلج» والتي نسى فيها كل ما فعلته فرنسا في بلاده ومواطنيه، فقلبه عطوف على أعدائه حيث يقول:-

لقد رضيت بثوبك الأبيض الذي يفوق الملح في لسعه
وها هو فؤادي يذوب الآن كما يذوب الثلج تحت الشمس
وانسى
الأيدي البيضاء التي ملأت البنادق ودمرت بها الممالك
الأيدي التي ألهبت العبيد بالسياط
الأيدي المعفرة بالغبار
الأيدي البيضاء المعفرة بالبارود التي صفعتني
الأيدي البيضاء التي قطعت الغابة العالية
تلك الغابة التي تهيمن على أفريقيا
لقد قطعت الغابة العذراء لتحيلها إلى فلنكات للسكك الحديدية
قطعت غابة أفريقية كي تنقذ الحضارة التي كانت تفتقر إلى الرجال
آه يا الهي لقد ذاب فؤادي
كما يذوب الثلج على أسطح باريس
تحت شمس طيبتك
إنه عطوف على أعدائي

اخوتي ذوي الأيدي البيضاء من غير ثلج

ودخلت اللغة أيضا لتكون العناصر الأساسية للزنوجة والتي تطورت بنفس الطريقة.

فاللغة هي عامل أساسي له نفس الأهمية كالجنس في وسائل الاتصال والثقافة والصراع. وقد كتب شاعر هايتي ليون لالو (Leon Laleau) في مختارات من الشعر الجديد الزنجي الملاجاش عام1948 :

هل تحس بهذه المعاناة

وهذا اليأس الذي لا يعادله شيء

أن يقع في مصيدة كلمات فرنسا

ذلك القلب الذي أتاني من السنغال

وهكذا يحس الفنانون بعدم الارتياح للكتابة بلغة أجنبية، فهم يشعرون انهم وقعوا في مصيدة عندما وجدوا أنفسهم مجبرين على هجر اللغة الأم والتعبير بلغة الأم بالتبني. ومن ناحية أخرى فان المشاركة في اللغة مع فرنسا تتطلب من النخبة الأفريقية الذين يجيدونها أن يحيوا حياة النخبة الفرنسية و يشاركوهم في قيمهم الغربية، و يسعوا إلى مكانة بينهم بدلا من الالتحام بجماهيرهم الوطنية، والمشاركة في اللغة في حالة دولة متقدمة وأخرى متخلفة دولة فقيرة لا تقدر على إقامة مؤسسات للطباعة، أو مؤسسات تعليمية أو جامعية، معناه أن هذه الدولة الفقيرة سوف تقرأ كتب الدولة الغنية وصحفها ومجلاتها، وتتأثر بأفكارها، وحتى بتطورها التكنولوجي، وسوف تبادل الدول الفقيرة بطلبتها الزائرين وفنييها، الفنيين من الدولة المتقدمة. ولقد كان سنجور في الثلاثينات ينادي بأنه لا مدينة دون أدب يعبر عنها، و ينير الطريق أمام قيمها، ومن المستحيل التعبير عن أدب قوم بغير لغتهم، وذهب إلى القول بأن أدبا زنجيا يكتب بلغة فرنسية قد يكون جائزا كما هو الحال في هايتي، ولكن هذا الأدب لا يمكن أن يعبر عن روحنا، فهناك مذاق خاص، ونكهة خاصة وعبير معين، ونبرة خاصة وهذه جميعا لا يمكن أن تكون لغة أوروبية وسيلتها.

وفي بداية هذه الفترة كان سنجور يعبر عن ضيقه باللغة الفرنسية حين قال:

غـــــريـــــب أنـــــت عـــــنـــــي

فـــي لـــبـــاســـي ولـــســـانـــي،
أيـــهـــا الـــقـــلـــب المـــطـــوق،
آذاك الـــثـــقـــل المـــعـــار
مـــــــن أوربـــــــا،
هـذه الأحـرف ثـلـج مـن فـرنـسـا،
تـخـنـق الـقـلـب الخـفـوق الحـي
مـــن ســـنـــغـــال،
كل ما ألقاه في هذا شقاء ووجع
لا أمـــــــل أرجـــــــوه،

ومع هذا تبنى فكرة ازدواجية اللغة، بمعنى أن تكون اللغة الفرنسية لغة الأعمال العلمية، بينما يكتب الأدب من شعر ونثر وقصة باللغة الوطنية، ولكنه في عام 1963 عارض هذه الفكرة، وتخلى عن تأييده لفكرة أن اللغة المحلية هي التي يمكنها أن تعبر عن الذات، واصبح من الداعين إلى ضرورة استخدام اللغة الفرنسية. وقالها بصراحة أن عدم وجود خيارات هو السبب الرئيسي لاستخدام الكتاب الأفريقيين للغة الفرنسية حين قال «أنا أكررها، إننا لم نختر، لقد كان وضعنا كشعوب مستعمرة هو الذي فرض علينا لغة المستعمرين «بل ووصل بعد ذلك إلى مرحلة القول بأنه حتى لو كان هناك اختيار فانهم كانوا سوف يختارون الفرنسية فلقد كانت اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر هي لغة الثقافة العالمية، وإذا كان من يتكلمون اللغة الإنجليزية، والصينية والروسية اكثر عددا اليوم، وان اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لبضع دول، فان هذا لا يهم كثيرا، فالفرنسية هي اللغة الأعظم فهي لغة الأدب، والأمانة، لغة الجمال، والوضوح»

وهكذا وجدنا سنجور في اللغة كما في السلالة يغير موضعه تماما من معارضة وعداء شديدين إلى هدوء وتقبل تام.

3- الزنوجة بعد الاستقلال ومرحلة البناء القومي

دخلت فلسفة الزنوجة بعد الاستقلال دورا جديدا، فقد حاول سنجور أن يكيفها تبعا لمطالب العصر الملحة وهي بناء الأمة والتنمية الاقتصادية. وتميز فكر سنجور في هذه المرحلة بظاهرتين أساسيتين في تطور الزنوجة

كمذهب، فالأولى تأثر فيها بأفكار تيلاردي كاردان (Teilhard de Chardin)، فوضع الزنوجة والثقافة الفرنسية في إطار إضافتهما للثقافة العالمية، ووضح المظهر الثاني بعد عام 1963 بصفة خاصة حين اصبح سنجور اكثر اهتماما بمطالب التنمية، وحاول أن يستخرج من الزنوجة مذهبا عمليا لبناء الأمة وتنميتها[32].

الحضارة العالمية:

يذهب الباحثون الذين ينكرون الاستعلاء العنصري إلى أن طريق التنمية البشرية يتفق إلى حد كبير أو يسير موازيا لخط التقاء الأجناس أو السلالات المتعددة، وقد وجد سنجور في هذه الفكرة مبررا للزنوجة، أي أن الذي يصنع الحضارات العظيمة هو اختلاطها وليس بهضم إحداها وتمثيله، ذلك أن كل حضارة لها مميزات فريدة، من ثم يجب على الزنوج أن يزرعوا قيم الزنوجة، وأن يوقظوا الطاقات الكامنة فيهم.

وقد رحب سنجور بصحوة العالم الثالث لا لتحرير شعوبه، ولكن لما يمكن أن يضيفوه إلى الحضارة العالمية، واشتراك دول جديدة في السياسة العالمية معناه أن اليوم الذي تظهر فيه حضارة عالمية وتصبح حقيقة واقعة قد اقترب، وفي نظره أن الاستعمار قد ساعد في الإسراع نحو الحضارة العالمية فيقول:-

منذ بداية هذا القرن، بدأت تضيق الفجوة بين سكان وشعوب العالم نتيجة لثلاثة عوامل: أولها المد الاستعماري الأوروبي، والثاني كثافة وتعدد وسائل الاتصال، والثالث هو استقلال المستعمرات، فقد اقتربت أجناس العالم من بعضها نتيجة تفاعل العوامل الثلاثة السابقة، وفي هذا المحتوى يجب دراسة الزنوجة «فالحضارة الأوروبية التي قدمت لنا على أنها الحضارة العالمية، غير جديرة بهذا الاسم نظرا لأنها ينقصها الطاقات الكامنة في آسيا وأفريقية، وفي الحقيقة لا يمكن أن نطلق عليها الحضارة الإنسانية نظرا لأنه لم يشترك فيها ثلثا البشر في العالم وهم ناس العالم الثالث!»

الزنوجة والتنمية:

إذا كان الطابع الغالب على سنجور هو الرومانسية والتجريد، فقد

تحول تفكيره في الداخل أي في السنغال إلى متطلبات الحياة اليومية والتنمية الاقتصادية، وخاصة بعد خلعه رئيس وزرائه وزميل كفاحه مامدو ضيا عام 1963، والذي كان متخصصا في الشؤون الاقتصادية.

وتحولت الزنوجة إلى مذهب يهتم بالإنتاج، ويحث الناس على بذل مزيد من الجهد. وقد لاحظ سنجور أن التخطيط يعتمد على العلم والتكنولوجيا، بل على احدث ما وصل إليه العلم واحدث الأساليب التكنولوجية، من ثم أصبحت الحياة لا تعتمد على «الحق» وهو ميدان الفلسفة، بل أيضا على الكفاية وهي الضرورية للدول النامية في المرحلة الحالية، غير أن الاهتمام بالتكنولوجيا والإنتاج ليس معناه نسيان الهدف المطلق، فالإنسان يجب أن يميز بين الأهداف الآنية العاجلة، و بين النهايات المطلقة، فالهدف العالمي الآني هو الوصول إلى مجتمع الكفاية والرخاء، بينما الهدف النهائي والمطلق إذا كنا مخلصين للإنسانية لابد أن يكون مجتمع الثقافة الرفيعة. ويذهب سنجور أيضا ليؤكد انه بوضع المشكلات الثقافية في ذيل برامج التنمية يعرضها للنسيان والإهمال وهو أمر خطير للغاية، فلا يمكن أن يرضينا عالم وفرة مادية فقط، عالم آلي تسود فيه السيارة، والثلاجة، والمكيف، والتلفاز، عالم دون مسرح، وسينما، وموسيقى، ورقص، وكتب، وتسجيلات، عالم ينقصه الخيال، أو بمعنى أخر عالم دون فن، انه لا شك سيكون عالما ميتا لا يستحق أن يعيش فيه الإنسان[33].

على العموم هو يحاول أن يجمع بين الاثنين، ففي خطابه أمام جمع من المزارعين في مسجد بلدة كافرين في السنغال عام 1961 يقول:-

«أن الأمريكيين هم أمريكيون قبل أن يكونوا شعبا رأسماليا، والروس بيض وأوروبيون قبل أن يكونوا شيوعيين، ونفس الحال بالنسبة للصينيين، لذلك لا يمكن أن نبني استقلالنا الوطني دون أن نفخر بالزنوجة، ولا أقصد بالزنوجة هنا لون الجلد، رغم أننا لا نستحي منه، وإنما أقصد بالزنوجة القيمة الدائمة للحضارة الزنجية، والروح الجماعية، واحترام القيم الروحية»

(الخلاصة)

نشأت الزنوجة بين فتية مفكرين من ذوي الأصل الزنجي سواء من جزر

الكاريبي أو أفريقية بغرض الحفاظ على كيان وشخصية منفصلة عن البيئة الفرنسية التي يعيشون فيها، ثم تحول مفهومها إلى مذهب يربط هذه الشخصية بالدولة الأم أو الدولة المستعمرة وكانت سماتها التجريد والرومانسية، ولكن نبضها الأخير كان يدق بالبرجماتية و بالواقعية، والى الآن لا تعتبر الزنوجة في السنغال مذهبا جماهيريا، وجمهورها الذي يصغي إليها أما من الفرنسيين أو من الزنوج المثقفين.

معارضو الزنجية

غير أن الزنجية وان وجدت لها صدى وتأثيرا في أنحاء مختلفة من القارة وفي فرنسا، فقد وجدت أيضا من عارضها، وكان من عارضها بصفة خاصة من الكتاب الأفريقيين الناطقين بالإنجليزية، و يرون فيها دعوة للرجوع إلى الوراء، لا دعوة للبعث.

فيعترض ازقيال مفاليلي[34] (Ezekiel Mphalele) على الرومانسية والتبسيط الذي تضفيه الزنجية على الحياة والتاريخ الأفريقي، فالزنوجة في نظره لا تعطينا أو لا تظهر لنا سوى نصف، بل ونصف مزيف غير حقيقي لقصة أفريقية، ويعبر عن هذا الرأي في كلمته في مؤتمر الأدب الأفريقي الذي عقد بداكار في أبريل 1963 بقوله:-

«من الذي بلغ من الغباء غايته لينكر الحقيقة التاريخية بأن الزنوجة كانت احتجاجا وفي نفس الوقت توكيدا إيجابيا للقيم الأفريقية؟ فكل هذا واضح، ولكن الذي لا أقبله هو ذلك الشعر الذي جعل من أفريقية قطعة رومانسية، كرمز للبراءة والنقاء والبدائية، أني لأشعر بالإهانة عندما يذكر بعض الناس بأن أفريقية أيضا ليست قارة عنف، فأنا شخص عنيف، وأفخر بهذا، لأنها ظاهرة عقلية صحية، وفي يوم من الأيام سأنهب واغتصب، سأقطع رقبة شخص ما، سأقلب حكومة، وسأنظم ثورة، سوف أصطاد أغنياء الزنوج السمان الذين يستغلون الزنوج الضعاف ويدمرونهم، سوف أكون رأسماليا وويل لهؤلاء الذين يعترضون طريقي، سوف أهاجم البورجوازيين السود في نفس الوقت الذي أزرع فيه حديقة وأربي كلابا و ببغاوات، اقرأ واسمع الجاز والموسيقى الكلاسيك، ولا شك أن هذه ليست صورة الأفريقي في ذهن النخبة الأفريقية التي تعلمت في باريس وتصف

نفسها بأنها متحضرة»[35].

ويعترض مفاليلي كفنان على هذا الاهتمام الجديد بأفريقية وينعته بأنه سطحي، ولا يخلق إلا شعرا رديئا في نظره، فالجماهير الأفريقية العريضة لم تتأثر به، وظلت حياتها كما هي، والتغني بالماضي الأفريقي والحياة الأفريقية ليست إلا رد فعل لما حدث لهؤلاء الذين أرادوا الاندماج في المجتمع الفرنسي والذين تشربوا الثقافة الأفريقية، فنجد في أشعارهم تمجيد الأسلاف، وأقنعتهم التي كانوا يلبسونها وتماثيلهم المحفورة في الخشب والبرونز ويحاولون تأصيل أدبهم الروائي، ذلك لأنهم يحسون بأنهم وصلوا إلى نقطة النهاية في الثقافة الأوروبية، ومع ذلك فما زالوا غير مقبولين كأعضاء في المجتمع الفرنسي، من ثم فلقد أصبح هؤلاء تجسيدا لرد الفعل القوي أو للإحباط الذي شعروا به رغم أن منهم من تزوج فرنسية. فدعاة الزنجية في نظره قد تركوا القضايا الأساسية، سياسية واجتماعية (القومية) في فترة ما قبل الاستقلال، لخلق روابط مع فرنسا، أين هؤلاء من حال إخوانهم المسحوقين في أفريقية، كما في روديسيا وجنوب أفريقية، انظر إلى وصفه ذكريات من طفولته وكيف كان يحيا في سيرته الذاتية بعنوان: النزول إلى الشارع الثاني (Down Second Avenue).

«ليلة السبت، الدنيا ظلام، أصوات شخير تصدر عن عمي في الركن، تشبه الخوار الأخرس للبقرة، شقيقي الأصغر لا يتحرك بجواري، ولا عمي الأصغر الذي يرقد بجواره مثلنا تحت الغطاء نفسه.. إني اعرف أن الهواء البارد القادم من الثقب الموجود في ألواح الأرضية سوف يجلدنا حتى يوقظنا من النوم كلما راح يلهو فوق اللحم العاري، وسوف تستقر رجل شخص آخر على عنقي، وعندئذ سأحلم بأن جنيا يمزق حلقي، وسأقفز من الفراش صارخا، وشقيقتي على الأرض أيضا ترفس أرجل المائدة التي تنام تحتها، أما الجدة وأطفال الخالة «دورا» الثلاثة فيرقدون في هدوء على السرير القديم الذي يتسع لشخصين، الباب الوحيد والنافذة الوحيدة مغلقان.. . لنني لا أستطيع النهوض لأتمشى في الفناء، لأن عظامي تؤلمني، فقد كنت أنظف المنزل وأقلب كل شيء فيه رأسا على عقب، واختنق من الغبار الذي كنت أثيره... ثمة صفائح بيرة مغروسة في الأرض وراء كومة الصفائح، والرائحة النفاذة للشعير المتخمر، والبقع الرمادية على الأرض

حول الثقوب، ليس من السهل على أي شرطي أن يهتدي إلى هذا ليلة السبت، أن الرجال الذين يرتدون الزي الموحد قد يكونون الآن في الفناء يتشممون (يقصد الشرطة يتشممون رائحة البيرة لأنه ممنوع عليهم عملها) وعلى البعد ناحية أقصى غرب «مارابستاد» (البلدة) ثمة صفارة شرطي، ونباح الكلاب، من المؤكد أن يكون ثمة شخص يجري فرارا من القانون، وزنزانات الشرطة والمحكمة والسجن، ليلة السبت والساعة العاشرة إلا عشر دقائق، متوجها إلى الإنسان الأسود كي يخلي الشوارع، كي يلزم بيته، ليكون بعيدا عن متناول الشرطي، أن صوت الناقوس يطفو في الهواء عاما بعد عام في العاشرة إلا عشر دقائق، وعندئذ لابد أن يجري الإنسان الأسود إلى بيته، ولا بد أن ينام الإنسان الأسود أو يحصل على إذن ليلي خاص، أن الصفارة قريبة جدا الآن، ولا بد أن يكون الرجل المطارد في الشارع الثاني (الذي يسكنه مفاليلي) لكن الناقوس يستمر في الصلصلة بطريقة شهوانية، وهكذا لابد أن تجرى أيها الإنسان الأسود حيثما كنت، اجر...».

ويعلل مفاليلي كون معظم إنتاج كتاب جنوب أفريقية من القصة القصيرة وليست الرواية الطويلة بقوله:

«إنه ليس من السهل على الأفريقي المطحون في جنوب أفريقية أن يكتب الرواية الطويلة فالقصة القصيرة سريعة المفعول مع اقتصاد في اللغة والوقت، والقصة القصيرة في مثل هذا المجتمع المتعدد الأجناس تمر خلال ثلاث مراحل، الرومانسية والهروب من الواقع، الاحتجاج على هذا الواقع، السخرية من هذا الواقع وهي نقطة التقاء بين الاحتجاج والقبول».

فلتتصور نفسك إفريقيا وتعمل في إحدى مدن جنوب أفريقية، فعليك أن تقوم برحلة خمسة عشر ميلا يوميا في الذهاب إلى مقر عملك والإياب منه لأن السكن عادة على أطراف المدينة، وليس في داخلها مع البيض، وفي طريقك إلى عملك وإيابك منه عليك أن تشارك مئات المئات من العمال مثلك المحشورين في عربة قطار كهربائي، لدرجة أن البعض يجلس على النوافذ، وعلى الأبواب بحيث لا يمكن أن تغلق، أنت بين هذا العدد الغفير، والذي لا يستطيع أحد منهم أن يقف مستقيما، أو قد تقف في طابور الأتوبيس الطويل من الساعة الرابعة والنصف إلى الساعة الثامنة مساء،

كل يوم من أيام حياتك تقضيه بهذا الشكل. فإذا خرجت من القطار عليك أن تبحث عن المخرج الخاص بك لأنك لست أبيض، وإذا خرجت إلى المدينة إلى مقر عملك مع البيض فسيصادفك مرة ومرات ما يذكرك بلون جلدك، فالشرطة ستوقفك لتسألك عن تصريحك (للعمل في المدينة) وذلك أيضا في طابور طويل، وقد تكون سيعد الحظ ولم تنس تصريحك، فإذا بدأ العمل، فلا تدري ماذا سيحدث أثناء اليوم بسبب رئيسك الأبيض. وعندما ترجع إلى مسكنك بنفس الطريقة التي خرجت بها صباحا، فلن يكون وصولك قبل التاسعة مساء، وأنت تحس بإرهاق شديد جسميا ونفسيا فإذا كنت موهوبا وجلست للكتابة، فان جسمك كله ينتفض، وتخرج الكلمات تعبر عن الخبرة الأليمة والمرارة العالقة في حلقك، في وقت قصير وليس الحال كذلك بالنسبة للكاتب الأبيض(36).

هكذا يعتبر مفاليلي دعاة الزنجية يتكلمون عن قضايا أقرب إلى الرفاهية لا يحس بها الأفريقي الحقيقي.

وفي نقد الزنوجة أيضا كتب الشاعر النيجيري رئيس أوزوايبي يقول(37) :-

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها

حتى لا تكون خير أطروفة

تلائم ذوق مؤرخ أبيض

و يعلق الرئيس أولوو (Olwo) إحدى الشخصيات النيجيرية البارزة على المهرجان الدولي الثاني للثقافة السوداء والأفريقية والذي عقد في نيجيريا في يناير عام 1977 بقوله: إنه يدهش من احتفال الشعوب السوداء ببدائيتها، ويقول كاتب آخر من الناطقين بالإنجليزية وهو ولي سوينكي:(Wole Soyinke) لا أظن أن النمر يتجول معلنا نمورته)(38)

I don‘t think a tiger has to go round proclaiming his negritude

هذا التهاون الذي ظهر إبان اشتداد حركة القومية الأفريقية أدى إلى كثير من النقد اللاذع والمرير من كثير من الأفريقيين للزنوجة بعامة ولسنجور بخاصة، وكان معظمها موجها مباشرة إلى الزنوجة ومفهومها في هذه الفترة وعلاقتها بفرنسا. فنجد الفيلسوف الغاني أبرا هام (W. E. Abraham) يصف سنجور الذي يدافع عن فرنسا بأنه أصبح أداة فرنسية لدرجة أنه اصبح لا يكتب شعرا أفريقيا فيقول:-

«أن سنجور في رأيي لا يكتب كشاعر أفريقي، أن ما يكتبه هو شعر فرنسي مطعم بإشارات أفريقية، وأي فرنسي يمكن أن يقوم بهذا العمل، وهو لا ينظر إلى نفسه كشاعر أفريقي يكتب في أفريقية وللأفريقيين مدفوع بالحس الأفريقي والأوضاع الأفريقية، فليس هناك شئ أفريقي في شعره»

ويقول في وضع آخر (عندما يقول سنجور بأن الأفريقي غير عقلاني، وأن العقل إغريقي والحس أفريقي، وأن الأفريقي يعرف الأشياء بأنفه فان هذا هراء ماذا يظن سنجور فيما هو فوق أنفي)

هكذا نجد المعارضين للزنوجة ومعظمهم من الناطقين بالإنجليزية يريدون لأفريقية الجديد في التكنولوجيا، وترك البدائية والتخلف، فاتجاهاتهم برجماتية عقلية لا رومانسية.

الحواشي

(1) Edna, L.S., Negritude and the Noble Savage, jour. Modern African Studies vol ll, March, 1973, No. I. 93- 92

وهذه القصيدة عنوانها البطاقة السوداء نشرت في باريس عام 1956 وليون داماس زنجي من أبناء غيانا الفرنسية، وهو من أوائل الذين اقتحموا الأدب الفرنسي بقصائده العاطفية الساخطة التي نشرتها دار جليمار Gallimar عام 1937 بعنوان الأصباغ Les Pigments ما أدى بشرطه باريس إلى مصادرتها وإحراقها عام 1939 وقد حدد المقصود بالزنجية في خطاب له في نيويورك عام 1965 بقوله: كيفا كان كتاب الزنجية أتوا من جزر الهند الغربية أو أفريقية أو مدغشقر فهدفهم واحد، وهو رد الاعتبار إلى الرجل الأسود والتأكيد على مساواته بعالم البيض وكذلك التأكيد على الشخصية الأفريقية.

(2) جان بول سارتر فيلسوف وأديب وناقد ومسرحي فرنسي ولد عام 1905، وقد اقترن اسمه في أذهان الناس بالفلسفة الوجودية مع انه ليس منشئها، كمارتن هيدجر وكارل يسبرز الألماني، ولكن شهرته فيها أنه استطاع أن يأخذ المعاني الرئيسية الكبرى في الوجودية و يصوغها صياغة رائعة جديدة، فيها ما يدعو إلى اهتمام عامة الناس بها، بل وخاصتهم أيضا، والى جانب هذا الإيضاح لجوانب الوجودية عند هيدجر، فقد زاد عليه في مواطن عديدة، واستخرج لنفسه وجهات نظر جديدة ومن هنا كانت له أصالته وفضله في إكمال بناء المذهب الوجودي. ولا تنس في هذا المجال أنه أديب وناقد مسرحي ذائع الصيت، ومن مسرحياته التي كتبها «الأيدي الملونة« «وموتى بلا قبور« «والعاهرة المهيبة« وشهرة سارتر بالمذهب الوجودي كشهرة رفيقه الروحي ليوبولد سنجور بالزنوجة، فهي وان شاعت وذاعت على يديه فان روادها الأوائل جين برايس مارس والشاعر السياسي ايميه سيزير وسيأتي ذكرهما فيما بعد.

(راجع في الوجودية وسارتر: عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية دار الثقافة، بيروت1973 ص-214- 236).

(3) مجموعة من الاشعار التي كتبها الشعراء الزنوج، معظمهم من زنوج جزر الهند الغربية ولم يكن بينهم من الشعراء الأفريقيين سوى ستة فقط وكان الواضح في شعر زنوج جزر الهند الغربية أن الشعور بالاغتراب كان لديهم أقوى من الشعراء الأفارقة.

(4) Busia, K.A.. "This Dark Skin". In, Gideon-Cyrus. m. Rohio. S, S.W., Readings in African Political Thought. Heinmann. London, 1975. P 288.

(5) Dahlomo H.l.E., "African Poetry in English in African Literature in the Twentieth Century" Heinmann, London. 1975, p. 160

(6) Ibid. P. 160.

(7) Diop. C.A. "in, Gideon-Cyrus. Rohio. S.W., Readings in African Political Thought", p. 256.

8) Quaison-Sackey. A. "The African Personality" in, Gideon curys. Readings in African Political Thought p. 77.

I bid. P

(9) Dhlomo, H.l.E. African Poetry in English, in Dathron. 0.R. African Literature in the Twentieth Century. P. 55.

(10) محمد عبد الغني سعودي، الجغرافية والمشكلات الدولية، القاهرة 1973، ص 465- 478.

(11) Geiss, l., The Pan-African Movement, Methuen, London 1974, p 306.

(12) ولد رينيه ماران في جزر المارتينيك، اشتهر بروايته باتوالا التي نشرها عام 1921 واتبعها برواية ديجوما عام 1927 وبرغم أنه من جزر المارتينيك إلا انه عمل في أفريقية، وحاول عدم الكتابة باللغة الفرنسية عن أفريقية على اعتبار أنها لغة المستعمر. ولا ترجع أهمية رواية باتوالا إلى خصائصها الروائية بقدر ما كانت هجوما صريحا على الاستعمار الفرنسي الذي فكك الحياة القبلية، ولم يقنع الفرنسيون كما جاء على لسان بتوالا بطل الرواية بمحو عادتنا، بل لم يستريحوا حتى فرضوا عادتهم علينا.

(13) Ibid. pp. 313- 310

(14) Markovitz, l, L. Leopold Senghor and the Politics of Negritude, Heinmann, London 1969, p. 49.

(15) ليوبولد سيدار سنجور، رئيس جمهورية السنغال وأحد أبنائها، ولد عام1906 في قبيلة السرر،اكمل تعليمه في فرنسا حيث نال درجة الاجريجاسيون من السوربون، عمل مدرسا في فرنسا، واشتغل بالسياسة وتزوج من فرنسية وكان أحد ممثلي فرنسا فيما وراء البحار في الجمعية الوطنية الفرنسية، ثم أصبح أول رئيس لجمهورية السنغال، سبر غور اللغة الفرشمية حتى عد أحد أساطينها وعين عضوا في لجنة تراجع قواعد اللغة في دستور الجمهورية الفرنسية، نشاطه الأدبي واسع في هذه اللغة، له ستة دواوين ومؤلفات عدة في الأدب والنقد والسياسة. وقد جمعت أشعاره ومختاراته في مجلد واحد باسم الشعر Poemes نشر في باريس عام 1964 ومن أشهر قصائده المرأة السوداء، المرأة العارية، ومن أهم الترجمات الإنجليزية لهذه الأشعار الإنجليزية.

Leopold Senghor, Prose and Poetry Oxf. U.P. 1965.

ومع أن سنجور كان يكتب الشعر قبيل الحرب العالمية الثانية، فان أول قصيدة نشرت له كانت في نهاية تلك الحرب عام 1945 وكان عنوانها «أغاني الظل» Chants d'ombre ورغم انه لم يكن أول داعية للزنوجة فقد تعرف عليها من رفاقه أدباء جزر الهند الغربية أمثال ماران وسيزير، إلا انه أصبح الداعية الأكبر لها، حتى لا تذكر الزنجية إلا مصحوبة بسنجور والعكس صحيح وقد جمعت معظم أشعار سنجور في مجلد واحد.

وأحسن ترجمة بالإنجليزية صدرت عام 1965 هي:

John Reed. Clive Wake Eds, Leopold Sedar Senghor Prose. And Poetry, Oxford U.P

L'etudiant noire

(16) Op. Cit., p . 45.

(17) وإذا كانت الزنوجة في الوقت الحاضر قد ارتبطت باسم الرئيس سنجور، فان هذه التسمية قد ارتبطت بسياسي وشاعر مثله وهو ايمي سيزير الذي يمكن أن يطلق عليه الزعيم السياسي للزنوجة، ويرجع أصله إلى جزر المارتينيك (من جزر الهند الغربية) الذي تقابل مع سنجور في باريس كطالبي علم، وكان عام 1934 قمة في حياة كل من سنجور وسيزير، لأنه العام الذي أصدرا فيه صحيفتهما «الطالب الأسود» والذي عبرا فيه لأول مرة عن مفهوم الزنجية والتأكيد على جميع عناصرها. ويذكر لنا ايمي سيزير كيف وعى هذه الفكرة فيقول: إنه تعلم في السوربون

حيث استوعبته الحياة الفرنسية تماما، وفي يوم من الأيام وجد نفسه يجلس في قطار بجوار بحار عادي أسود، فأصابه غثاء، وحين رجع إلى منزله أدرك أنه تصرف وهو الزنجي تصرف فرنسي وقح، فشعر بتأنيب ضمير وخزي من التنكر لأصله، وكتب سيزر قصيدته عام 1939 بعنوان مذكرات عائد لأرض الوطن. Chaief D'un Retour au Pays natal وفيها يقول:

يا لمن لم يخترعوا شيئا قط
يا لمن لم يقهروا شيئا قط
ولكنهم في غمرة الرهبة
يفنون ذواتهم في جوهر الأشياء
يجهلون الفرص والصدف
النغم والإيقاع في دمهم
يهزهم، يرجيهم اللحن القوي ذو الرخم
ها همهم أن يفتحوا أو يقهروا

ورغم أن قصيدته لم تلق اهتماما عندما نشرت لأول مرة، فأنها لاقت رواجا كبيرا عندما أعيد نشرها عام 1947 ولكن الذي اشتهر بنشر الزنوجة وأصبح داعية لها هو الرئيس ليبولد سيدار سنجر.

(18) MphaleIe, Ezekiel, "The African Image", London 1962, p. 26

(19) Ibid P. 27.

(20) Valliant, J. G. Dilemma for Anti-Western Patriotiste Slavophilism and Negritude, jour. of Modern African Studies, Vol 12. pp. 377- 378.

(21) Davidson, "B. Which Way Africa?" The Search for a new Society, Penguin. 1964, p. 71.

(22) ريموند كوينن من شعراء جنوب أفريقية، وقد كتب شعره بلغة الزولو (قبيلته) ثم ترجمه إلى الإنجليزية، وصدرت له أول مجموعة شعرية عام 1970 بعنوان شعر الزولو Zulu Poems، و يعبر شعره عن الحياة التقليدية القبلية للزولو لذلك تتضمن شعر المديح، وشعر الحرب، وشعر الرثاء، أما شعره الذي يخاطب به أوروبا والأوروبيين، فهو رد فعل لحياة القهر التي تعيشها قبيلته، بل والأفريقيون في جنوب أفريقية، من ثم تميز أسلوبه بأنه قاطع وعدواني وموجز.

(23) Dathorne. 0.R., "African Literature in the Twenieth Century", p. 216.

(24) كان يوجين جيرنييه يشغل منصب أستاذ في معهد العلوم السياسية بجامعة باريس، وعضوا في أكاديمية علوم المستعمرات Academie des Sciences Coloniales وحاز عدة جوائز من الأكاديمية الفرنسية ومن أكاديمية العلوم السياسية.

(25) يعتبر جان برايس مارسي من الرواد الأول للزنجية، اهتم
بالدراسات الأنثروبولوجية عن أفريقية، كما اهتم بالثقافة والتراث الأفريقي.

وعبر الأطلنطي وكذلك عبر حاجز اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية فقد ولد في شمال جزيرة هايتي من عائلة أفريقية الأصل هاجرت من الولايات المتحدة الأمريكية إلى جزيرة هايتي وكانوا يتكلمون الفرنسية الدارجة، وواصل تعليمه الثانوي ثم درس الطب حيث اكمل تعليمه الطبي في باريس سنة 1900، اشتغل بالعمل الدبلوماسي في برلين وواشنطن وانتهى به الأمر إلى باريس سنة 1915 وكان يدرس علم الاجتماع بين عامي 1918- 1930 في هايتي وهناك حدثان أحدهما سياسي والآخر ذو طبيعة ثقافية كان لهما آثارهما عليه خلال تلك الفترة فقد احتلت البحرية الأمريكية

جزيرة هايتي سنة 1915 وبذلك فقدت استقلالها لمدة 20 عاما، والأمر الثاني أنه في سنة 1920 عاد نخبة من الشعراء إلى الجزيرة من باريس حيث اشتركوا في الحركة الجديدة وهي حركة الزنوجة. غير أن تأثير برايس مارسي كان اكبر في العالم الناطق باللغة الفرنسية اكثر منه في هايتي، نظرا لان البؤس الذي عاشته لم يتغير كثيرا بعد جلاء الأمريكيين عنها، عام 1927 ولم يكن مصادفة أن يظهر كتابه:

«ما قاله العم <Ainsi Parla L‘oncle> في باريس وفيه يقول:

«أني أعرف جدار النفور الذي أدق عليه كلما جرؤت على الحديث إليكم عن أفريقية والأمور الأفريقية، أن الموضوع يبدو لكم غير مهذب وغير ذي أهمية، أليس كذلك ؟ لكن إحذروا، يا أصدقائي، فهذه الاتجاهات لا تقوم على جهل مطبق، ذلك لأننا نعيش بأفكار أفسدت نكهتها ورائحتها البلاهة المذهلة التي تعشش في ثقافة غير متكاملة، ولن نرضي غرورنا الطفولي إلا إذا رددنا العبارات المكتوبة للآخرين الذين نمجدهم فيها، وهم أجدادنا، أبناء الغال».

وكان برايس مارسي أحد رواد صالون بوليت ناردال، وأحد كتاب مجلة عالم السود، وبعد الحرب العالمية الثانية كان مستشارا لمجلة الوجود الأفريقي التي ضمت هؤلاء الذين أرسلوا إشارات النبض الأفريقي من باريس وما زالوا.

ولعب برايس مارسي دورا كبيرا في مؤتمري الأدباء الأفريقيين في باريس وروما عامي 1956، 1959 على الترتيب، وكذلك في مهرجان الفنون الأفريقية الذي عقد في داكار عام 1966 تحت رعاية الرئيس سنجور.

(26) اضطر سنجور أيام أن كان عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية إلى الدفاع عن الزنوج إذا ما ذكرهم أحد الأعضاء بصفات دونية أثناء مناقشات الأعضاء.

(27) Geiss, l, The Pan African Movement, op. Cit.pp 313- 314

(28) Senghor, “What is Negritude?” a speech delivered at Oxford University out. 1961, reprinted in Poul E. Sigmund, “The Ideologies of the Developing Renaissance”. New York 1963.

(29) Markovitz, I., L., “Leopold Sedar Senghor and the Politics of Negritude”. Op. cit.pp. 56,57

(30) Nicol Davidson, “Alioune Diop and the African Renaissance” African Affairs, vol 78, no, 3 January 1979, pp. 3-4.

(31) كان المثل الأعلى للدعوة الاستعمارية الفرنسية، إنما هو. إدخال الشعوب التعسة في حظيرة الثقافة الفرنسية، وفرنسة جميع هذه الشعوب، والغرض في نظرهم هو الانتهاء إلى مجتمع متجانس الأجزاء في فرنسا عظمى واحدة تلتف حول باريس، من ثم لم يمنح لشعوبها المحكومة أي نصيب حقيقي في تدبير شؤونها الخاصة إلا منذ عهد قريب بالنسبة لتاريخها الاستعماري، حين وضعت نصا لتمثيل هذه الشعوب في المنظمات المركزية الحاكمة في باريس، ولكن أفسد عدالة التمثيل ترجيح كفة فرنسا نفسها ترجيحا شديدا على كفة الإمبراطورية التي تحكها ومن ثم ترجيح كفة الأوروبيين على الشعوب المحكومة.

وفي سياسة الدمج هذه، كان لابد من فرض الثقافة الفرنسية وتغلغلها تغلغلا عميقا حيثما حكمت فرنسا، ومع ذلك فلم تنجح هذه السياسة لان بعض الشعوب رفضت الاندماج مع فرنسا مثل غينيا ودول المغرب العربي.

و يرتكز دعاة الدمج على أساسين هما :-

١- إيهام الشعوب المحكومة أن السيادة القومية شيء باطل وخطر.

2- تمكين الشعوب المحكومة من إغفال دور القومية عن طريق تأكيد الحرب التي تتاح لأبنائها، وكما قال جي موليه في خطاب له في نيويورك عام 1957: التحرير الفردي لكل رجل وكل امرأة وتحريرها الاقتصادي والاجتماعي بتحريرها من الفقر، وتحريرها السياسي بوضعها في موضع تستطيع فيه التعبير عن آرائها بحرية.

والواقع أن الجنسية الفرنسية كانت وقفا على عدد قليل جدا، واقتصر الدمج الثقافي والاجتماعي على نخبة صغيرة.

وقد ظهر أن الشعوب المحكومة، إلا فيما ندر لا تقنع بقبول حريتها كأفراد فقط، ولكنها تصر على تحرير الأمم التي تنتمي إليها ككيانات جماعية. وقد عبر أحد زعماء حزب التجمع الأفريقي في ساحل العاج عن هذا الاتجاه قبيل الاستقلال بقوله: نحن لا نقبل الزواج بالوطن الأم إلا إذا احتفظنا بالحق في الطلاق.

(32) Markovitz, op. Cit, p . 68.

(33) Ibid. pp. 69- 73.

(34) ازقيال مفاليلي من أبناء جنوب أفريقية، من ثم اختلفت نشأته عن نظرائه من أدباء غرب وشرق أفريقية، ذلك انه عاش في بيئة التمييز العنصري، واضطهاد الأسود في وطنه، كانت أمه تعمل بالخدمة في البيوت، وغسل ملابس البيض، وكان يساعدها في عملها لأن أباه كان رهين سجن ريمتوريا، وتمكنت أمه من إدخاله المدرسة الابتدائية، ولما كان متقدما في دراسته فقد أرسلته إلى مدرسة ثانوية في جوهانسبرج، واستطاع أن يدخل كلية أدامز في ناتال ليتخرج منها مدرسا، ولكن الحكومة أنهت خدمته لأنه لعب دورا قياديا في الهياج الذي حدث ضد قانون تعليم البانتو (الأفريقيين)،ولما كان ممنوعا من التدريس في كل جنوب أفريقية فقد رضي مؤقتا لكسب عيشه بأن يعمل ساعيا في بعض مؤسسات البيض، ثم انتقل إلى محمية باستولاند (حينئذ) ليعمل مدرسا مرة أخرى، وتمكن من الحصول على درجة الماجستير في الآداب من جامعة جنوب أفريقية وغادر جنوب أفريقية للعمل في نيجيريا وباريس لذلك فكتابته فائرة تعبر عن المرارة والأسى الذي يعيشه المواطن الأفريقي في ظل نظام التمييز العنصري في بلاده أي يكتب من واقع التجربة الخاصة التي عاشها.

(35) Markovitz, op. Cit, p. 66.

(36) Mphalele Ezekiel “The African Image op. cit., p 38.

وتهدف سياسة الفصل الاجتماعي أو الآبار تهيد في جنوب أفريقية إلى خلق مسارين متوازيين لا يتقابلان أبدا من الحياة الاجتماعية والثقافية فللبيض مدارسهم وجامعاتهم ودور السينما والمسارح وقاعات الموسيقى، بل وفرقهم الرياضية، وللأفريقيين والهنود والملونين مؤسساتهم الأقل قدرا، ولو كان في إمكان الأقلية البيضاء الحاكمة منع الأفريقيين من الاستماع إلى باخ وموزار وبيتهوفن وشوبان لفعلوا، وكلما وصلت فرق موسيقية شهيرة إلى جنوب أفريقية نجد أن الأفريقيين يدعونها للعزف في صالاتهم فيقبل البعض، ولكن البعض الآخر لا يقبل خشية إغضاب السلطات البيضاء. والأفارقة اكبر جماعة تؤم دور السينما في جنوب أفريقية، وما زالوا إلى الآن لا يقدرون على دخول سوى الدور التي يملكها الهنود واليهود، وغير مسموح لهم بارتياد دور السينما المخصصة للأوروبيين، ثم ظهر قانون جديد يحرم دخولهم دور السينما التي يملكها الهنود، وذلك حتى لا يختلط الأفريقيون في الملونين، وهناك أفلام محرم دخولها على الأفريقيين، ولكنها مباحة للهنود والملونين، ناهيك عن البيض.

وفي ميدان التعليم كانت هناك جامعتان، جامعة كيب تون، وجامعة جوهانسبرج، كانتا تسمحان لسنين عديدة بالتحاق العناصر غير البيضاء بهما على أساس المساواة في العملية التعليمية بينما يظهر الفصل الاجتماعي في أماكن الإقامة والراحة وغيرها، أما جامعة فورث هير فقد خصصت لغير البيض، وهناك غير ذلك ثماني جامعات أخرى تضم نحو 4 آلاف طالب، منهم ألف على الأقل من غير البيض، ولكن هؤلاء يتعلمون بالمراسلة كطلاب منتسبين.

وقد اقر البرلمان قانونا يحرم دخول العناصر غير البيضاء هذه الجامعات وان تكون مسألة التعليم العالي للملونين من مهمة الإدارة الخاصة التي أنشئت للإشراف على معازل الأفريقيين وتعرف باسم إدارة شؤون البانتو.

وتبرز ثلاث مشكلات ناتجة عن سياسة الفصل التي تتبعها حكومة الأقلية البيضاء منها منع المواطنين الأفريقيين سواء كانوا من ساكني الريف أو الحضر من الإحساس بالأمن، وخلق حياة اجتماعية واقتصادية مزدوجة يكرهها الأفريقي مهما كان وعد الرجل الأبيض بالجنة التي سيقيمها للأفريقي للعيش فيها لأنه يريد عزله عن الحضارة العالمية، ومن طريف الأمر أن إحدى شركات الاسطوانات والتي قامت بتسجيل موسيقى وأغاني أفريقية كمشروع تجاري بحت، من أجل تسويق إنتاجها لدى الأفريقيين تعلن بان موزار وبيتهوفن وارمسترونج وغيرهم أجانب وبالتالي يجب على الأفريقي أن يشجع ويلتصق بالفن الأفريقي

. (37) Davidson, B. “Which way Africa?” Op. cit. p 71.

(38) Edna, L. S. “Negritude and the Noble Savage op. cit. p 92.

5 قضية الوحدة القومية

الوحدة القومية(*)

الدولة القومية:

بينما تشير الدولة إلى الوحدة السياسية ذات الأرض التي تحدها حدود سياسية، وتقوم فيها حكومة تمارس أعمال السيادة وتنظم العلاقات بين أفرادها، فان لفظ الأمة يختلف عن هذا، فإذا ما ذكرنا لفظ الأمة فمعناه أن غالبية مواطني هذه الدولة أو تلك يعتبرون أنفسهم كويتيين إن كانوا في الكويت، أو فرنسيين إن كانوا في فرنسا، وإذا انتقلنا إلى أفريقية فسنجد أنهم يعتبرون أنفسهم نيجيريين أو غانيين أو سنغاليين، فولاؤهم الأول هو للدولة، لنيجيريا أو غانا أو السنغال، لا إلى القرية التي خرجوا منها أو للقبيلة التي نشئوا فيها، فهناك كثير من الأفارقة في الدول الأفريقية، مازالوا يعتبرون أنفسهم من اليوروبا أو الولوف أو الأكان (قبائل) في المكان الأول، ثم نيجيريين وغانيين وسنغاليين في المكان الثاني.

بمكن أن نفهم بصورة أفضل الدولة القومية إذا قارناها بالقبيلة، لأن الشعور بالانتماء الجماعي، والتراث المشترك متشابه في كليهما، فأعضاء القبيلة الواحدة لديهم طرق متشابهة لحكم أنفسهم،

وأشكال للعبادة، وطريقة للحياة متماثلة، ومن المحتمل أن هذه العادات وطرق الحياة المتشابهة قد تطورت نتيجة للعيش معا فترة طويلة في محاولة للتغلب على صعوبات البيئة، من ثم فالأسر أو العشائر التي تعيش في إقليم صحراوي تنمو لديها عادات تختلف عن تلك التي تعيش في غابة مطيرة، وقد تتجمع عدة عشائر وتتآلف لتقف أمام عدو مشترك، أو لشن هجوم على مجموعة أخرى من الأسر أو على عشيرة أخرى، وتتكون نتيجة ذلك درجة من التعاون فضلا عن ظهور القيادة أو السلطة، وكلاهما ينتقل من فترة الحرب إلى السلم، ويمثل الرئيس أو مجلس الكبار المنبثق من الأسر أو العشائر طورا من أطوار وحدة القبيلة، كما يمثل سلطة مركزية لها، وتؤدي هذه الخبرة في العيش معا إلى خلق تقاليد مشتركة يرتبط بها الأبناء والأحفاد، ومع مرور الزمن تساعد الأساطير والروايات المختلفة عن تاريخ القبيلة على خلق هوية واحدة بين أفراد تلك القبيلة، ولا يمكن في ظل هذا الطور من الحياة أن تسلخ الفرد عن عشيرته أو قبيلته. ويشبه الشعور الذي يحس به الفرد نحو قبيلته في هذه المرحلة ذلك الشعور الذي يحس به أفراد الأمة الواحدة، والفرق بينهما هو أن الأمة تتكون من مجموعة الوحدات الاجتماعية الصغيرة والقبائل والعشائر والأسر، والتي يجب أن يكون انتماؤها وولاؤها للمجموعة الكبرى من السكان الذين يسكنون أرضا مشتركة ويطلقون على أنفسهم نيجيريين أو سنغاليين أو غانيين.

فقد تجمعت مجموعات مختلفة من السكان بالصدفة الجغرافية أو التاريخية أو بالغزو الحربي أو نتيجة المنافسات السياسية الداخلية والخارجية، واحتمال أن تؤلف هذه المجموعات دولة قومية يحدده مدى تعاونهم في عمل مشترك مثل الدفاع ضد المغيرين، وقبولهم للخضوع لسلطة سياسية واحدة، ونمو الترابط الاقتصادي بينهم زراعة وتجارة، في الحق لقد لعبت الأخطار والضغوط الخارجية دورا كبيرا في تكوين القومية وتماسكها أحيانا، وهذا أمر معروف في تاريخ إنجلترا واسكتلندا وبولندا وفيتنام، فتلك المعارك التي خاضتا هذه الشعوب وانتهت سواء بنصر أو هزيمة، ساعدت على صهر الجميع في بوتقة واحدة. ويمكن أن نضرب مثلا بالأمة السويسرية والوحدة السويسرية، ذكرنا أن هذه الدولة الصغيرة يتكلم أهلها ثلاث لغات رسمية وهي الألمانية والفرنسية والإيطالية مع

الرومانية، والنسبة المئوية هي 3, 69٪، 9, 11٪، 5, 9٪، نحو 1٪. وبعض المتكلمين الإيطالية ترجع أصولهم إلى إيطاليا فعلا، وان كان يسمع في هذا الإقليم ألسنة أخرى من العمال الموسميين والأجانب المقيمين، والذين يكونون نحو 10٪ فقط من المجموع ورغم أن الألمانية هي لغة رسمية إلا أنها الألمانية السويسرية Schwzerdutsch التي تسمع فعلا، هذا بينما يتكلم الفرنسية نحو المليون في غرب سويسرا، ويعرف كثير من السويسريين الألمانية والفرنسية معا، وان كان الاتجاه هو نحو زيادة فرصة الإنجليزية وقد تصبح لغة وطنية خامسة، وكما تنقسم سويسرا بين هذا العدد من اللغات تنقسم مذهبيا بين الكاثوليك (7, 52٪) والبروتستانت (4, 45 ٪)[1] ومع ذلك لا ينكر أحد حقيقة القومية السويسرية والشعور القومي السويسري وقوة واستقرار الاتحاد السويسري. ولكن هذا لا شك يتطلب تفسيرا.

إن جرثومة الدولة السويسرية يمكن إرجاعها إلى القرن الثالث عشر، وان كان الاستقلال السياسي لم يتم رسميا إلا في عام 1648 حينما عقدت معاهدة وستفاليا. من ثم كانت إرهاصات الدولة السويسرية تتمثل في النجاح الحربي الذي أحرزته الكانتونات الثلاثة، Uri schwyz Unter w WaIden ضد حكامهم الإقطاعيين.

واستغل هؤلاء الرعاة الأقوياء موقعهم الجغرافي في الدفاع والأرباح التجارية، والولايات الثلاث الأولى التي ذكرناها أو ولايات الغابة تجاور بحيرة زيورخ وتتحكم في المدخل الشمالي لممر سان جوثار إلى إيطاليا، ونظرا لوقوعها على تخوم الممالك الثلاث فرنسا، وبورجندي، وإيطاليا وفي نطاق الإمبراطورية العامة المقدسة، فقد اتفقت شعوب الولايات الثلاث على خلع حكامها الإقطاعيين وعدم الاعتراف إلا بالإمبراطور كرئيس لهم، وخلال القرون التالية بدأت تنضم إلى هذه العصبة League الأراضي والمدن المجاورة في نوع من الاتحاد الفدرالي[2].

ليس من شك أن فكرة الدولة واضحة ومقبولة لدى السويسريين جميعا وتميزهم عمن حولهم من أمم أكثر قوة محيطة بهم، ولعل أكثر هذه العوامل أهمية هو الشعور والإرادة (رغم الاختلافات اللغوية والدينية) للمحافظة على الأمة التي تضرب بجذورها في التاريخ، يتذكرونها دائما و يدعمونها بالقصص والأساطير والاعتراف بالحكومة الديمقراطية على كل المستويات،

فضلا عن أن السويسريين يؤيدون تماما سياسة الحياد، وان كان حيادا يدعمه تجنيد إجباري.

ولا يذهب البعض في تفسير ظهور الدولة القومية في النهاية إلى انه نتيجة لحركات قومية فقط، فالدول القومية الحديثة في أوروبا قد تطورت نتيجة ظروف تاريخية كانت أوضح ما تكون في إنجلترا لأول مرة في القرن السابع عشر، لكن تأخرت القومية الفرنسية حتى القرن التاسع عشر. ويرجع الباحثون ظهور القومية الإنجليزية مبكرا إلى عزلة الجزر البريطانية عن أرض القارة الأوروبية، وحاجة سكان تلك الجزر إلى أن يكونوا جبهة متحدة ضد أعدائهم على أرض القارة، ولكن الأستاذ جيمس كولمان James CoIeman يعطي تفسيرا آخر لهذا النمو المبكر للقومية الإنجليزية حين يقول:

«الأمة هي مرحلة ما بعد القبلية، ومرحلة ما بعد الإقطاعية ظهرت نتيجة قوى التفكيك الناتجة عن الحضارة الحديثة... أو بعبارة أخرى نتيجة التكنولوجيا الحديثة، وهكذا يعزو قوى التكامل القومي التي أدت إلى ظهور الدولة القومية إلى التصنيع بدرجة كبيرة، فسكان الجزر البريطانية والذين كونوا أول وحدة قومية في أوروبا كانوا أول شعب عرف الانقلاب الصناعي، فقد عمل التصنيع في بريطانيا كما عمل في غيرها من الدول على تحطيم التنظيمات الاجتماعية، وتغيير أنماط الحياة السابقة، فالثروة التي كانت قبل التصنيع مرتبطة بالأرض وزراعة المواد الخام والغلات الغذائية للاستهلاك المحلي، أصبحت ترتبط بالنشاطات الصناعية والتجارية التي أصبحت تتجه إلى أسواق عالمية اكثر اتساعا من أسواق القرية أو المدينة. وازدادت الأسواق اتساعا نتيجة الثورة التي حدثت في النقل وظهور السفن التجارية، فوجدت السلع المصنوعة أسواقا بعيدة، وما تبع ذلك من اتساع نطاق المشروعات الصناعية والتجارية، وترك كثير من أهل الريف قراهم بحثا عن طرق للمعيشة جديدة، وتعلم سكان المدينة الجدد أن يعيشوا ويتعايشوا مع «الغرباء» عنهم الذين أتوا من أقاليم متعددة.

وقد ساعدت المدن الصناعية الجديدة التي برزت إلى الوجود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على انتشار نظام الإنتاج الصناعي الآلي، وبمقتضاه يعمل عدد كبير من العمال في مكان واحد، ويقوم كل بعمل

معين-التخصص-في كل العملية الصناعية أو التعدينية، وأدخل الانقلاب الصناعي تقسيما جديدا للعمل، تعمل فيه الآلة و يشغلها الإنسان، واصبح العمال بعد نمو المدن يعتمدون على أجورهم للحصول على متطلبات الحياة لهم ولأسرهم، لا على ما تنتجه مزارعهم في قراهم من غذاء وألياف للاستهلاك المحلي أو للتصرف فيها في أسواق قريبة.

وباختصار يمكن القول بأن الحياة الاقتصادية الديناميكية الجديدة ظهرت كعامل أزاح الإقطاع السابق جانبا، وحطم الارتباطات المحلية ومهد الأرض للجماعة القومية، وكنتيجة لزوال الإقطاع وهو النظام السياسي الذي كان سائدا في المجتمع الأوروبي قبل الثورة الصناعية، ظهرت أشكال جديدة من الارتباط السياسي، فقد زادت سلطة الملك في بريطانيا، أي قويت شوكة السلطة المركزية على حساب سلطات النبلاء الذين كان يتجه إليهم الولاء أولا[3].

وأصبح التاج رمز السيادة بزيادة سلطة الملك، وأصبح ولاء الناس لا للملك شخصيا فحسب، بل للتاج أيضا، وأصبح الملك جزءا من مؤسسة سياسية تعرف باسم الملكية، وصارت الأرض التي يبسط الملك سلطانه عليها تعرف باسم الدولة، ومن ثم ظهرت الدولة القومية إلى الوجود.

مجتمعات قديمة ودول حديثة في أفريقية: على أن الأمر يختلف بالنسبة للأقطار الأفريقية، فلم تعمل المدينة على دمج عناصر السكان تماما حتى ليطلق على هذه الدول أنها «مجتمعات قديمة ودول حديثة[4]» لأنه يظهر فيها قطاعان أو نظامان أو مستويان من الحياة، النظام الجديد، والدولة العصرية بما تقدمه من خدمات، ولكنها عادة ما تظل بعيدة ولا تؤثر إيجابيا في الحياة اليومية لغالبية الشعب، فالمدارس القليلة التي تنشأ عادة ما تكون في المراكز الحضرية، وكثيرا ما تكون المستشفيات بعيدة عن القرى، ويسمع أهل الريف عن الطبيب مرة أو مرتين في العام، ومن ثم يستمر أهالي القرى حتى الآن في المداواة بالطرق التقليدية، فبينما يتطور الحضر بسرعة يظل الريف حيث الغالبية على حاله ينتظر ثمار الاستقلال.

لا شك أن هناك تغيرات أصابت الريف نتيجة النظام الجديد، فالإنسان في الريف أصبح له حق التصويت لانتخاب أعضاء المجلس البلدي في المدينة، ولكن هذا أيضا معناه زيادة عبء الضرائب عليه لمواجهة نفقات

الإدارة المحلية، ولما كانت الكهرباء، أو المياه النقية لا تصل إلى قريته، فانه يعجب لماذا يشترك في انتخاب أعضاء المجلس البلدي و يدفع المال لدعم هذا النظام الإداري، من ثم يصبح ممثل هذا النظام الجديد أشبه بممثل الإدارة الاستعمارية في العهد السابق، وأصبح النظام الجديد أشبه باللباس الجديد[5] يظهر في المناسبات، ثم يختفي في خزانة الملابس معظم الوقت. أما عن النظام القديم فمازال يتغلغل في الحياة، و يؤثر في معظم الأفارقة[6] قد يبدو للبعض أن في هذا الكثير من التعميم على اعتبار أن كثيرا من المتعلمين الأفريقيين سيقولون أن القبلية في طريقها إلى زوال أو كادت تختفي، ولكن I. Wallerstein[*1] حذر من هذا الادعاء السريع حين كتب عن العرقية والتكامل القومي في غرب أفريقية بقوله: إنه حين يشير الكاتب إلى التفكك القبلي يقصد بذلك تدهورا في سلطة رؤساء القبائل، وليس معناه أن الفرد الذي أصبح لا يدين بالولاء لرئيس قبيلة قد رفض القبيلة كجماعة لها حقوق عليه ويتوقع منها نوعا من الحماية.

وبعد قضاء أسبوع في دراسة ميدانية لبورت نرفو خرج C. Tardits بأنه بدلا من أن يتفكك النظام القبلي فان الأفريقي يزداد إحساسه القبلي، أو يصبح اكثر قبلية Supertribalized في المدن[7].

فما زال النظام القديم يطل برأسه في المدينة كما هو الحال في الريف فلم يخلع الأفريقي حياته القبلية وولاءه القبلي ولم يتركهما وراءه في الريف، نظرا لأن النظام الجديد لم يصل إلى الريف فيغيره، وما زالت الحياة القبلية تنظم معظم حياة الناس لا في الريف فحسب، بل في المدينة أيضا، إذ مازال الولاء القبلي يحل له كثيرا من مشكلاته، فان الأفريقي العادي عندما يزور المدينة، لا يستأجر غرفة، ولا يذهب إلى مطعم لأنه يمكن أن يجد من يستضيفه إقامة كاملة، نوما وغذاء، وعندما يأتي المدينة هربا من بؤس الحياة في الريف ليكسب بعض المال، فان أفراد قبيلته يرعونه ويساعدونه حتى يجد له عملا.

هذا الاعتماد القبلي لا شك نتجت عنه مثالب عديدة غير مرغوبة، مثل الكسل والتطفل في الطبقات الدنيا، والمحسوبية ومحاباة الأقارب في الطبقات العليا من السكان، وإن كان البعض يرى أن هذا نوع من التكامل، وإلا لزادت المشكلات الاجتماعية كثيرا في المدن الأفريقية، لو لم يتوفر

هذا الأمن القبلي، ويكفي أن نضرب مثلا بمشكلة التسهيلات السكنية، فإذا وجدت المساكن فهي مرتفعة الإيجارات ولا تصلح للأفريقي العادي، كذلك الحال في المطاعم، وبالتالي يتعذر على كثير من الطلاب الذين يأتون من الريف أن يعيشوا في المدن، ومن ثم فلن يذهبوا إلى المدارس على الإطلاق، أما عن المحسوبية فترجع إلى أن النظام القديم قد تسرب إلى النظام الجديد، وهذا دليل آخر على حيويته، فرئيس إحدى الدول الأفريقية يحكم البلاد بالعقلية التقليدية وبطريقة سلفية، فقد اختار مناسبة جناز عمته ليفرج عن المسجونين السياسيين الذين قد سبق وصدر عليهم الحكم بالإعدام، وذلك ليعطي معنى جديدا للعفو «الذي هو من طقوس تقاليدنا الجنائزية». كما يقول:

ومن ناحية أخرى فان النظم الجديدة مازالت تستغل الانتماء والتقاليد القبلية لتحقيق الأهداف والمصالح القبلية بل وحتى الشخصية. ولا تقتصر الوظائف الحكومية الرئيسية على الاتباع، بل أيضا على القيادات الحزبية، كمكافأة لهؤلاء على خدماتهم التي قدموها للقادة السياسيين، وهؤلاء يستخدمون متحدثين من القبائل بنفس الطريقة التي كان يستخدمها رجال الإدارة الاستعمارية، وذلك لبسط سلطتهم على السكان، و بدلا من كون زعيم القبيلة جامعا للضرائب في العهد الاستعماري، أصبح جامعا للأصوات في عهد الاستقلال.

كل هذا يبرر القول بأن الدول الأفريقية عبارة عن مجتمعات قديمة ودول حديثة، ومازال الولاء العرقي قويا في داخل الإطار القومي، و يبدو أنه ازداد منذ خروج الاستعمار بحيث يقول البعض: إن هناك عودة للقبلية Retribalization أو إحياء للوعي القبلي في الدول الأفريقية الحديثة.

وإذا كنا قد رأينا أن البعض يعزو تكون الشعور القومي والتخلي عن القبلية إلى النضال ضد القوى الخارجية، والبعض يعزو التخلي عن تلك العرقية والقبلية إلى الصناعة وحياة المدن، فان تكون الشعور القومي في الدول الأفريقية يرجع إلى السبب الأول، أما السبب الثاني فقد رأيناه ليس بذي أثر كبير في المدينة.

فهناك اتفاق عريض بين الباحثين على أن أساس حركة القومية الأفريقية هو رد الفعل والوعي بالذات ضد الاستعمار الأبيض، يشترك في هذا

الكتاب الأجانب والأفريقيون فالزعيم الأفريقي سيتولى Sithole في حديثة عن القومية الأفريقية يقول: إن أفريقية تدين بالروح القومي للاستعمار الأوروبي، فهو الذي عبأ الشعور وخلق الوعي بالذات بين الأفريقيين وجمع شتاتهم القبلي تحت هدف واحد(8). وكقاعدة عامة فان الوعي بالذات و بالجماعة لا يبدأ جديا إلا حين تجد الجماعة نفسها فجأة وجها لوجه أمام جماعة أجنبية مختلفة كل الاختلاف، والمقاومات المبكرة التي يسجلها تاريخ القارة لبعض القبائل أو المجموعات القبلية هي أولى إرهاصات القومية مثل مقاومة قبائل داهومي والمتابيلي في التسعينات، وليس هذا عيبا على أية حال، فكما يقرر الجغرافي البريطاني هالفورد ماكيندر أنه لم ينقل أوروبا الوسيطة من مرحلة القبائل إلى الشعوب ولم يخلق الشعور بالقومية والرعي بالذات إلا الأخطار الخارجية الثلاثة التي أحدقت بشبه جزيرة أوروبا، التتار من الشرق، الفيكنج من الغرب، والعرب من الجنوب، وإذا كان الفضل للقادة السياسيين الأفريقيين في خلق الشعور القومي بين الأفريقيين حين المطالبة بالاستقلال السياسي، فان للحركات القومية أثرها في حصول هذه المستعمرات على الاستقلال، ولكن يا للأسف بدأ هذا الشعور القومي المتحمس يهدأ، بل ويفتر في كثير من الأحيان بعد الحصول على الاستقلال السياسي، وأصبحت مشكلة بل وقضية من القضايا الرئيسية بعد الاستقلال: أن مواطني الدول الأفريقية الجديدة مازالوا بدرجة أو أخرى قبليين في انتمائهم السياسي، وقد استهلكت هذه المشكلة كثيرا من طاقات الحكومات في بعض الدول الأفريقية، وذلك من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية.

ويمكن تلخيص ما سبق بالقول بأن الدولة هي الوحدة السياسية حيث تقوم السلطة أو الحكومة بإجراءات أو قوانين المفروض فيها أن تؤدي إلى رفاهية السكان الذين يكونون مواطنين لهذه الدولة. أما الأمة فمفهومها اكثر اتساعا، تضم هؤلاء الذين يعتقدون أنهم ينتمون إلى بعضهم البعض على أساس وحدة تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم، فإذا امتد الإحساس بالوحدة الوطنية إلى جميع المواطنين في الدولة، عرفت هذه الدولة باسم الدولة القومية أو الدولة الوطنية Nation State، وهذا ما يجذبنا إلى التعرف على القومية.

القومية

القومية ليس لها علاقة كبيرة بالجنس أو السلالة لأنه لا توجد سلالة نقية تماما، والسلالة النقية هي خرافة بسبب الهجرات البشرية التي استمرت عبر العصور التاريخية وما قبل التاريخ، ذلك أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالعقل الذي دبر به أموره بحيث يكيف نفسه مع ظروف البيئات المختلفة.. كما تميز بقدرة سلالاته على التزاوج، مما أدى في النهاية إلى عملية خلط واسعة بين أفراد الجنس البشري، ونجد كثيرا من القوميات والشعوب تضم سلالات ذات أصول مختلفة كما في فرنسا، الكلت والبحر المتوسط والنورد، وفي ألمانيا النورد والالبيون وغيرهم. قد يقال: اللغة هي عامل هام في تكوين الأمة لأنها الوسيلة التي يستطيعون التفاهم بها، والإعراب عن مثلهم وثقافتهم وأدبهم، واختلاف اللغة يمنع السكان من فهم بعضهم بعضا، لذلك تعتبر عنصرا هاما من عناصر تكوين القومية، وان كانت هناك بعض الأمم كالأمة السويسرية التي استطاعت تكوين أمة واحدة رغم أن أهلها يتكلمون بأكثر من لسان كما ذكرنا، كذلك لا يمكن أن نقول بأن جميع الشعوب التي تتكلم الإنجليزية مثلا تدخل تحت نطاق قومية واحدة.

قد يقال الدين، وفد استطاع فعلا أن يكون رابطة قوية في تقوية الشعور القومي لمدة طويلة من تاريخ حياة الإنسان، فقد استندت الحروب الصليبية ظاهريا إلى العامل الديني، وكذلك كان الانشقاق بين الهندوس والمسلمين في الهند شجع عليه وزاد من حدته الاستعمار البريطاني قبل خروجه من الهند، ولكن الدين في الوقت الحاضر قلت أهميته في التكوين القومي بعد ظهور فكرة الإله الواحد بدلا من الآلهة المتعددة و بعد التسامح الديني. و بدأت المصالح الاقتصادية تتغلب على هذا العامل، ولعل أبلغ مثل هو استقلال باكستان الشرقية عن الباكستان الغربية وتكوين دولة بنجلاديش رغم أنهما كانا يكونان دولة واحدة (باكستان) التي انفصلت عن الهند بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أساس الانفصال هو العامل الديني حيث تسود الهندوكية الهند، والإسلام الباكستان.[(9)]

قد يقال: التقاليد المتوارثة والعادات الاجتماعية المشتركة ولكن الأمريكيين الذين لا شك يعتزون بقوميتهم انحدروا من أمم مختلفة، في حين أن

الكنديين أو الأستراليين الذين انحدروا في غالبيتهم من العنصر الإنجليزي يكونون أمما منفصلة عن إنجلترا ولها طابعها الخاص.

ومعنى هذا أن الشعور القومي لا يشترط فيمن يعتنقونه أن يكونوا متحدي الجنس أو اللغة أو الدين أو التقاليد، ولكن هذه جميعا لا يصح أن ننكر أثارها منفردة أو مجتمعة في إذكاء الروح القومية، فكلما توفر عنصر أو توفرت عناصر منها كانت بمثابة العمد التي توحد وتقوي هذا الشعور. وتظهر الروح القومية بأجلى صورها وقت الأزمات، و بخاصة حين المطالبة بالاستقلال أو الحرية.

فالقومية في الحقيقة هي شعور متبادل بين الأفراد، يجعلهم متأثرين في عواطفهم وسلوكهم بفكرة الولاء لوطن ما، لأنهم نبت أرض واحدة، ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة وأمانيهم وآمالهم واحدة، يتأثرون بمؤثرات واحدة (سواء في النكبات أو الأفراح) بصرف النظر عن ميولهم الطائفية أو الدينية أو مصالحهم الفردية.

فالإحساس بالقومية بين أعضاء الجماعة هو إحساس عميق وليس بعقد سياسي بين أفراد هذه الجماعة، هو اتحاد قلوب مادام قد تحقق فلا يمكن أن يزول، فالقومية لا تزول، ولكن الدول يمكن أن تتغير وتتبدل بل وتزول، وهو شعور بالجماعة وقيمة هذه الجماعة وفضائلها.

والشعور القومي أو الوطني يبعث في النفس شعورا بالفخر بذلك الوطن وإنجازاته والإيمان به، وقد يؤدي هذا أحيانا إلى العلو والتطرف في الوطنية Chauvinism والخوف من الأجانب أو الغرباء Xenophobia ويساعد على وحدة الجماعة وانطلاقها في عمل جماعي سواء في الداخل أحيانا ضد القوميات الأخرى، أو خارجيا ضد الشعوب الأخرى[15] لذلك كانت الدولة القومية أو التي تتمتع بتجانس قومي تتميز بتماسك كبير.

(العرقية)

هذا عن القومية، أما العرقية والقبلية فتتضمن كل التعاريف التي وضعت لها فكرة الجماعة التي تحس بأن لها انتماء واحدا والتي يسير انتماؤها موازيا أو متعامدا (متعارضا) مع الولاء للدولة، والعرقية أو القبلية كتركيبة اجتماعية بالمعنى الأفريقي قد تكون في طريقها إلى الاختفاء في الحضر،

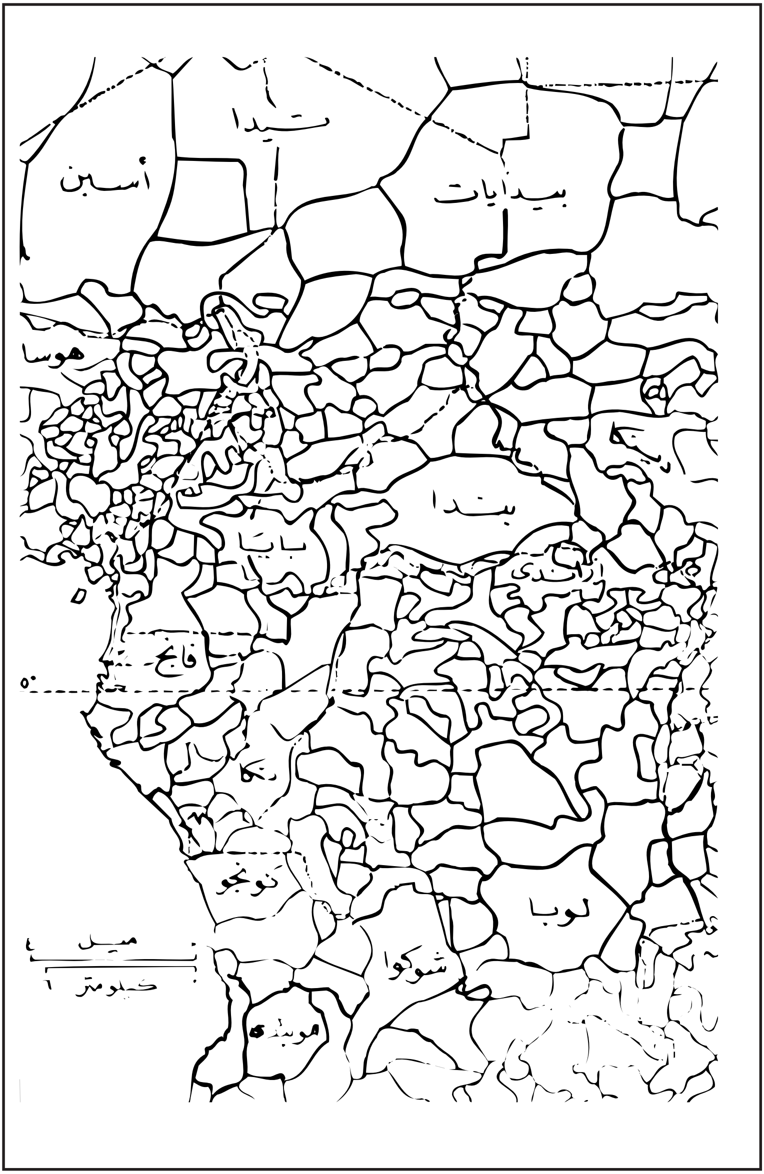
ولكنها بمعنى تمييز الهوية والمشاركة في القيم مازالت لها أهميها في كل مكان، ومهما قال الإنسان في تعريف العرقية فهي ليست ظاهرة أفريقية أو تختص بها أفريقية وحدها، بل معروفة سواء في الدول النامية أو الدول المتقدمة، في الماضي والحاضر، فأهالي ويلز أو شعب ويلز في المملكة المتحدة كمجموعة عرقية مثلهم كمثل شعب الكيكويو في كينيا.[11] وفي نفس الوقت يمكن القول بأن العرقية تتخذ أشكالا متباينة وتعبر عن نفسها في صور مختلفة الحدة، فبينما نجد أن قبيلة اليوربا في غرب نيجيريا لها نظامها السياسي المركزي، فان الايبو في جنوب شرقي نيجيريا لها نظامها اللامركزي القائم على وحدات صغيرة أساسها القرية، ومن ثم يمكن تمييز نمطين من المجتمعات فيما يختص بالمجموعات العرقية أو القبلية، تلك التي لها نظام حكم مركزي، ولها نظامها الإداري والقضائي أو باختصار لها نظام حكومي، وتلك التي ترتبط فيها السلطة والقوة بتوزيع الثروة والمكانة، وهذا النوع الأخير تنقصه الحكومة والإدارة والمؤسسات القضائية، ويمثل النوع الأول البانيانكولي في أوغندا، واليوربا في نيجيريا، والزولو في جنوب أفريقية، والاشانتي في غانا.

ومن أمثلة النوع الثاني النوير في السودان، والايبو في نيجيريا، كذلك هناك اختلافات أساسية بين الجماعات المستقرة والجماعات الرعوية الرحل التي تجوب مساحة واسعة، كما يختلف حجم الجماعة من بضع أسر محدودة العدد إلى جماعات قد يصل حجمها إلى عشرة ملايين نسمة بحيث تصبح أقرب إلى الشعوب منها إلى القبائل.

كذلك قد يكون هناك فارق بين العرقية في المدينة وتلك التي في الريف فالضغوط التي تمارسها العادات على الفرد تختلف من حالة إلى حالة.

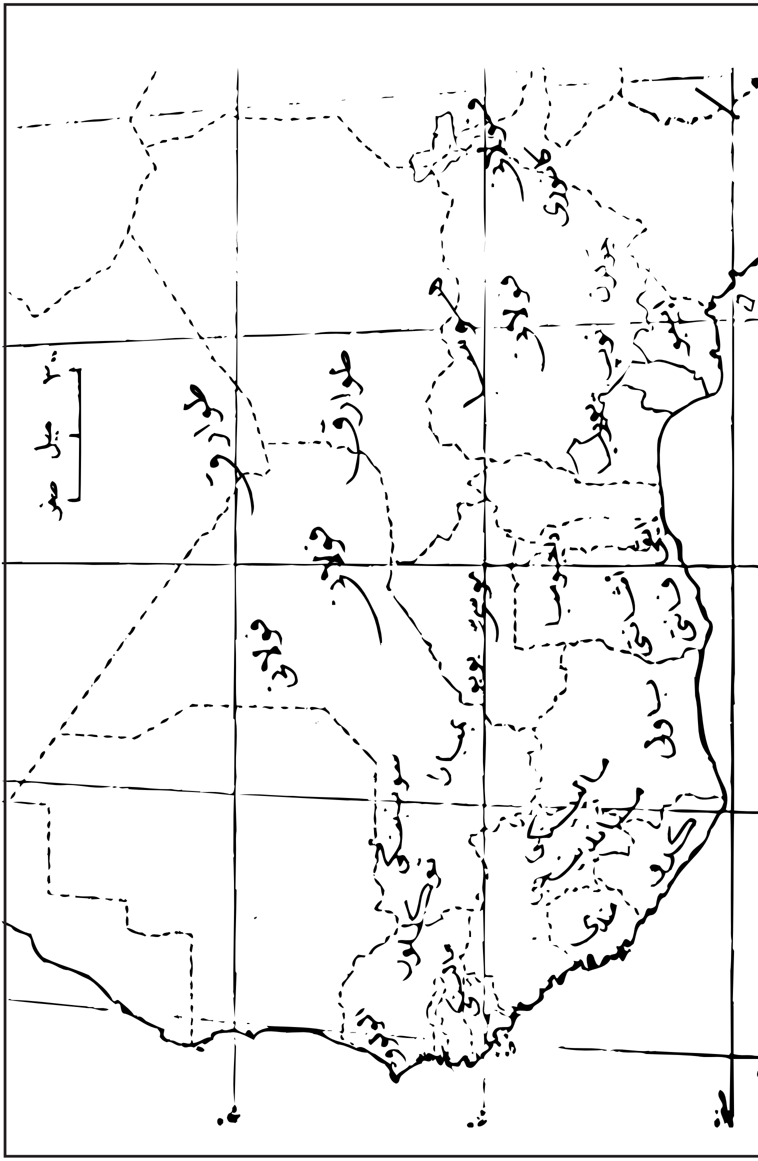
الحساسية العرقية:

على أن الحساسية العرقية لابد أن تكون ناتجة عن تفاعل بين مجموعة عرقية وأخرى، فالعرقية غير المجموعة العرقية لا يمكن أن تبقى أو تحيا في عزلة، وليس من شك أن الفترة الاستعمارية قد غذت هذه الروح، فقد أصر الاستعمار على أن يذكر الفرد بهويته القبلية، فكل بعثة تبشيرية لها مجالها القبلي، ولها إقليم جغرافي معين تمارس فيه نشاطها، وأخذت



-أنماط القبائل في أفريقية الاستوائية

شكل رقم (21) انظر كثافة القبائل، فالخطوط المتصلة هي حدود القبائل.



- القبائل الرئيسية في غرب أفريقية. شكل رقم (22).

الإدارة تشجع الموظفين على معرفة لغات القبائل،[12] مما خلق الشعور(باليوربا وبالباكنجو) كذلك يرجع إحساس الايبو والولوف بأنفسهم كمجموعة متميزة إلى القرن العشرين نتيجة اتصال الأوروبيين بهم، وإذا كان يعزى هذا الإحساس بالعرقية إلى فترة الاستعمار الأوروبي، فإنها لا شك كانت موجودة قبله، وكل ما في الأمر أنه لم تقل حدة العرقية بعد الاستقلال عن ذي قبل، إن لم تكن قد زادت ففي أوغندا على سبيل المثال، لوحظ أن الجيشولم جسموا بأنفسهم كمجموعة عرقية برية مشتركة إلا حينما أحسوا أنهم مهددون من قبل قبيلة الباجندا الأكثر عددا وعدة.

والملاحظة الثانية على العرقية أنها ليست ولا يمكن أن تكون ظاهرة ثابتة قد تزداد حدة وقوة إذا ما صحبها تمييز أو تفاوت طبقي في المجتمع، كما حدث من جانب الكريول في سيراليون والأمريكيين في ليبيريا، والتوتسي في بوروندي.

وإذا أردنا تقييم العرقية في أفريقية المعاصرة، فيمكن القول بأن لها جوانبها السلبية والإيجابية، أما عن إلا ثار السلبية فأمثلتها واضحة وعديدة، ففي زائير المشكلة الرئيسية هي الأعداد الضخمة من المجموعات القبلية وسيادة أربع مجموعات فقط وهي الباكونجو، البالوندا، البامنجو البالوبا، وفي نيجيريا سيادة الهوسا والفولاني في الشمال والايبو واليوربا في الجنوب، وفي كثير من الأحيان نجد أن السياسة الحزبية تتبع المجموعات العرقية، لدرجة أن أي تغيير في الحكومة أو الوزارة أو الحاكم نفسه في كثير من الأحيان قد يستغل فيه العامل العرقي.

وفي الكنغو نجد أن العرقية لعبت دورا كبيرا في فترة ما بعد الاستقلال، الباكونجو القبيلة السائدة تعدادها فهو 5 , 1 مليون نسمة وتنتشر عبر الحدود الدولية من زائير إلى الكنغو الديمقراطي وأنجولا . وفي الكنغو الديمقراطية نجد أن الأحزاب الثلاثة القائمة أساسها مجموعات قبلية هي الباكونجو مبوتشي، والفيلي، كذلك يسود الكيكريو في كينيا، والبباحندا في أوغندا، وقد زال نفوذهم عندما وصل عيدي أمين إلى الحكم، وذلك بملئه كل الوظائف الرئيسية في الحكومة والجيش بمواطنين من قبيلته الكاكوا أومن القبائل الصغيرة الأخرى الموالية له والتي يمكن الاعتماد عليها، ولكنهم استطاعوا سلبه السلطة وذلك باستعداء قبيلتين كبيرتين هما الأتشولي



القبائل في زائير

شكل رقم (23)

- الأشكال 21، 22، 23 عن الخريطة المرفقة بكتاب

G. P. Murdock, “Africa, its peoples and their culture History” Mc Graw Hill, 1959

ولانجا (قبيلة الرئيس السابق أوبوتي الذي يعيش الآن في تنزانيا) كذلك الحال في الحركات الانفصالية في بيافرا.

كذلك قام بتخطيط الانقلاب الذي حدث في غانا1966 وأزاح الرئيس نكروما ضباط من قبيلتي الايفي والاشانتي، بل أن ظهور الأحزاب المعارضة في الدول الأفريقية في كثير من الأحيان ليس معناه أن الذين ألفوها غير راضين عن برنامج الحزب الحاكم، لأن هناك برامج أفضل، بل هي لإزاحة الحاكم اكثر منها لإحلال حكومة اكثر رشدا،[13] وحتى في تلك الحالات التي يحدث فيها ائتلاف بين اكثر من حزب، فان تركيب قيادة الحزب يراعى فيه المحافظة على هذا الائتلاف. ولما كانت الأحزاب تقوم على أساس قبلي فان معاركها دائما تقوم على أساس مصالح قبلية، وتتحول المعارضة إلى خصومة وعداوة، أي مجموعة من الناس ضد الحكومة في كل شيء. وأدى هذا إلى تفسير علماء السياسة غلبة نظام الحزب الواحد في الدول الأفريقية، وكذلك الحكومات العسكرية، إلى سلبيات الروح العرقية، وان كان مثل هذا النظام يؤدي لا محالة إلى نوع أو آخر من الديكتاتورية وأن معارضة مثل هذا النظام لا تأتي إلا باستخدام القوة والعنف، ومن ثم كانت كثرة الانقلابات العسكرية.

بينما يذهب البعض الآخر إلى أن هذا النظام هو أصلحها لأن الأحزاب في أفريقية تتبلور حول خطوط قبلية، ويذهب بعض السياسيين الغانيين إلى القول بأن نظام التعدد الحزبي هو نظام غربي لا يصلح للدول الأفريقية بنظمها الاجتماعية، وهذا ما دعا كثيرا من الحكومات الأفريقية إلى نبذه، فالغرض من إعطاء كواندا الفرصة لقيام حزب واحد حاكم في زمبيا عام 1972 هو تقوية الروح القومية على حد قوله، وقد ظهر أنه قبل عام 1972 حينما تعددت الأحزاب، كان صراعها قبليا بالدرجة الأولى، ونظرا لأن زامبيا دولة حبيسة ومحاطة بأقطار معادية (روديسيا-موزمبيق، وأنجولا البرتغاليين) في ذلك الحين كانت الفرصة مواتية لهؤلاء الأعداء للتآمر على حكومة كواندا.

ومن ناحية أخرى فان العرقية نظام يتغلغل في حياة الأفريقيين بعمق، حضاريا واقتصاديا واجتماعيا، ولذلك ليس من الممكن إزالتها بسهولة.

و يذهب كثير من الكتاب إلى إدانتها، لأنها تكون ممثلة لجذور عدم الاستقرار، ولأنها تستخدم بواسطة السياسيين لتحقيق أغراضهم الخاصة، من ثم كانت موازنة مجموعة قبلية بأخرى من الأمور الضرورية وهذا النوع

من التوازن القبلي قد يكون مفيدا فكل من سنجور في السنغال، ونيريري في تنزانيا وكواندا في زامبيا وكينياتا في كينيا وهو فيه بوانييه في ساحل العاج استطاعوا عمل توازن لطموحات ومخاوف المجموعات القبلية، واستطاع نيريري بوجه خاص الاستفادة من خصائص كل مجموعة لبناء تنزانيا وكانت صيحة كينياتا «هارمبي»[14] Harambee دائما، ومعناها فلنحمل العبء معا، لأنه في النهاية، أليست العرقية والقبلية نوعين للانتماء، ومن الضروري أن يكون هناك انتماء ما بشكل أو بأخر لخلق الدولة الأمة، ويمكن أيضا أن تكون رصيدا Asset في عملية التحديث على اعتبار أنها تزيد من الشعور بالشخصية الجماعية والأمن على مستويات مختلفة، وتحتفظ بالرابطة ما بين الريف والحضر فأي عضو من قبيلة معينة يتجه إلى المدينة، لابد وأن يقوى ارتباطه بجماعته الأصلية، وتهدم هذا النظام العرقي في أفريقية هو الاستثناء وليس القاعدة.

العرقية والإحساس بالعرقية:-

هذا ويجب أن نفرق بين العرقية، والإحساس بالعرقية، ومحاولة التبسيط هنا قد تكون من الخطورة بمكان، فهي قضية معقدة للغاية كما توضحها قضية بوروندي.

فبوروندي قبل استقلالها كانت مستعمرة ألمانية، وبهزيمة ألمانيا وضعتها عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى تحت انتداب بلجيكا التي تولت عليها الوصاية أيضا بعد الحرب العالية الثانية، وتطل بوروندي على الشواطئ الشمالية الشرقية لبحيرة تنجانيقا، وتعتبر من المناطق الكثيفة السكان إذ بمساحتها التي تقدر بنحو 28 ألف كيلومتر مربع يسكن ما يقل قليلا عن 4 ملايين نسمة، وهي من الدول الحبيسة أي التي لا سواحل لها، من ثم اعتمدت على تنزانيا كمخرج لها . و يعيش في بوروندي مجموعتان عرقيتان: التوتسي هيما وهم يمثلون أقلية (16٪ من السكان) ولكنهم يمثلون الطبقة الحاكمة، والهوتو ويمثلون الأغلبية (84٪ من السكان) وحاول الهوتو الذين يكونون الأغلبية الاستيلاء على السلطة من التوتسي ولكنهم فشلوا، وأعقب ذلك قيام التوتسي بمذبحة وحشية للنخبة من الهوتو في المدارس، والإدارة، والجيش، وكل مكان، حتى قضوا على ما يقرب من 5 , 3٪ من مجموع الهوتو

كما جاء في تقرير لجنة حقوق الإنسان، وكانت هذه اكبر عملية إبادة جماعية تم فيها القضاء على النخبة أو صفوة الهوتو وأصبحت بوروندي من البلدان الفريدة التي تحتكر فيها السلطة أقلية عرقية وهي التوتسي، بينما تحول الهوتو إلى مواطنين من الدرجة الثانية، وأبعد الهوتو(رغم انهم الغالبية) عن الوظائف المدنية والجيش والتعليم الجامعي والثانوي[15].

ويختلف الحال في رواندا عما حدث في بوروندي، وهما دولتان متجاورتان وحيث يوجد فيهما أيضا نفس التقسيم العرقي، ولكن الجماعتين العرقيين تعيشان مع بعضهما، ولم يحدث بينما ما حدث في بوروندي مما يدل على أن الإثارة العرقية هي بين النخبة من المجموعتين اكثر منها بين جماهير الجماعتين, وهذه الفكرة تتفق مع مفهوم الإحساس بالعرقية بأنه المنافسة بين النخبة من المجموعات العرقية المختلفة.

وللآن لم يحاول أحد دراسة القبيلة كجماعة اقتصادية، لأنها في حقيقتها تشكل مجموعة من المصالح في النظام الاقتصادي الجديد، ففي الكمرون على سبيل المثال:

إذا أصيب محصول الكاكاو في عام من الأعوام بكارثة فان هذا يؤذي قبيلتي البولو/اوند Bulu-Ewondo بوجه خاص، بينما إذا أصابت الكارثة محصول زيت النخيل، فان هذا يضر قبيلة الباسا Ba، وإذا حدث كساد للتجارة بوجه عام فان هذا لا يكون في صالح الباميلكي Bamileke ويمكن للإنسان أن يلاحظ نفس الظاهرة لدى الاشانتي في غانا (الكاكاو) والولوف في السنغال، والفول السوداني، والكيلويو (الذرة) في كينيا، لذلك ليس من المستغرب أن تختلف مجموعات المصالح، فتصبح مجموعات ضغط محاولين أن ترعى المؤسسات حاجتهم ومصالحهم الخاصة[16].

وقد يصبح التقسيم الاجتماعي موازيا للتقسيم الاقتصادي، حيث نجد الأقليات الأجنبية قد حققت نموا بارزا في بعض القطاعات الاقتصادية مما أدى إلى اتخاذ مواقف معينة من هذه الأقليات، مثل تأميم هذه القطاعات كما حدث للبنانيين في غرب أفريقية بمقتضى القوانين التي أصدرتها نيجيريا وساحل العاج والسنغال عام 1973, فأصدرت نيجيريا قائمة باثنتين وعشرين حرفة لا يقر بها إلا المواطنون، وقد تتخذ الصورة شكلا اكثر عنفا حينما وجد عيدي أمين أن الأسيويين أو بمعنى آخر الهنود والباكستانيين

يسيطرون على ثلاثة أشياء: رأس المال، والمشروعات، والمهارات الإدارية، وهي مفاتيح النشاط الاقتصادي، ويعيشون في عزلة في مجتمع مغلق عليهم محاولين الاستفادة دون الإفادة، ورغم أنهم خليط في الأصل من حيث اللغة والأصل والعقيدة، ولم يكونوا يوما مجموعة متحدة، إلا انهم إذا ما تعرضوا أو تعرض بعض منهم لضغوط اتخذوا موقفا دفاعيا ووضعا متصلبا أمام الحكومة، وحاول عيدي أمين اجتذابهم للمشاركة في حل الأزمة الاقتصادية التي مرت بها البلاد عامي 1970 , 1971، ولكنه فشل، فاضطر إلى طرد ما يقرب من 40 ألفا ممن يحملون جوازات سفر بريطانية[17] وهكذا يشكل مثل هؤلاء بؤر عدم استقرار.

ويمكن فهم الدعوى الإقليمية بسهولة لأن الولاء العرقي كثيرا ما يجد تعبيرا جغرافيا له، فبعض الأقاليم قد تكون أغنى نسبيا من أخرى، وإذا ارتبطت الدعوى العرقية بالغنى النسبي، تقوى دعوى الانفصالية، كالدعوى التي قام بها الأشانتي في غانا، والايبو في نيجيريا، وشابا (كاتنجا) في زائير، فكل دولة أفريقية تقريبا ماعدا الشمال لها (شابا) !!.

كذلك الحال إذا ازدادت حالة إقليم في داخل الدولة تخلفا، وهذا له مؤشراته العديدة مثل انخفاض متوسط دخل الفرد في الإقليم في المتوسط العام بصورة حادة، وعندما تزداد نسبة البطالة بصورة اكبر عن نسبتها في الدولة، و يبدو أيضا في قلة الاستثمارات إلى غير ذلك، كل هذا يزيد من درجة المخاطرة في أن تتكون في هذا الإقليم بؤرة أو نواة عدم رضا، قد تؤدي إلى المطالبة بالانفصال أو الحكم الذاتي، كما حدث في جنوب السودان حين كانت ضمن دعاوى الجنوبيين أن المشروعات والتنمية في الشمال، بينما لم يصب الجنوب منها الكثير، وبصرف النظر عن الأسباب الفعلية لهذا التخلف، فقد كان هذا التخلف يسير إلى جانب العرقية، ضمن أسباب عدم الرضا[18].

ويمكن قياس ولاء المواطنين للدولة بالقيد الذي يشعرون به في معارضتهم لسياسة معينة للحكومة القائمة، فإذا كانوا يعارضون حكومة معينة، ولكنهم يقفون عند حد معين دون مرحلة تدمير الدولة أو إضعافها.

كان معنى هذا أن ولاءهم للدولة، فهذا الولاء والشرعية بالنسبة للدولة، لا لحكومة معينة هو ما يتعلمه الإنسان منذ الصغر، ويبدأ مع الأطفال في

مدارسهم، ولكن الشعوب الأفريقية لم يتح لها الوقت الكافي بعد لتشرب هذه الأفكار، فكثير من الأفريقيين لا يعرفون حدودا للمعارضة، ولا يميزون بين المعارضة والانفصال، من ثم كثيرا ما تسمع القادة الأفريقيين يعلنون بأن المعارضة لديهم ليست بناءة، فهي لا تسعى إلى تحطيم الحكومة القائمة، بل هي مستعدة لتخريب الدولة كوسيلة للخلاص من الحكومة القائمة[19].

وهذا قد يكون صحيحا إلى حد كبير لأن المعارضة تأخذ شكل المطالب الإقليمية، كنظام لا مركزية في ظل حكومة موحدة، أو الفدرالية في ظل حكومة لا مركزية.

العوامل المؤثرة في قوة أو ضعف الوحدة القومية الأفريقية

ويمكن القول بأن العوامل المؤثرة في خلق الوحدة القومية في الدول الأفريقية ليست بسهولة عوامل سياسية، ولكنها جزء من مركب سياسي واقتصادي وتاريخي، بل ونفسي، والعقبات التي تقف أمام الوحدة الوطنية متعددة ومتنوعة بدورها، جغرافية، وتاريخية، واقتصادية، واجتماعية وقد يجتمع اكثر من عامل واحد منها في الدولة الواحدة.

حجم الدولة:

فإذا أخذنا حجم الدولة، وجدنا اختلاف الحجم من الدول العملاقة كالاتحاد السوفيتي بمساحته التي تقدر بنحو 569 ,647 ,8 ميلا مربعا إلى الفاتيكان الذي تبلغ مساحته 1/4 ميل مربع، وكل دولة نمت من نواة صغيرة، ثم نمت هذه النويات وكوت دولا، ثم اتسعت بعد ذلك. ولكن لابد من وجود رابط قوي بين المركز أو النواة والأطراف وهذا يتم عن طريق شرايين المواصلات، وإلا كانت هذه الأطراف عرضة للاختطاف من الدول المجاورة، فألمانيا مثلا لاشتراكها مع دول عديدة في الحدود، ولوجود معظم ثرواتها المعدنية على هذه الأطراف، كانت من أوليات سياستها ربط الأطراف بالقلب أي ببرلين، هذا وتقوم الصين ببرنامج ضخم لربط البلاد بالخطوط الحديدية. هذا و يعتبر مد الخطوط الحديدية أو الطرق من العوامل التي تساعد على الوحدة القومية لأنها تربط سكان الأمة بعضهم ببعض وتساعد على اختلاطهم واندماجهم، وبالتالي تقضي على عزلة الجماعات، وتذيب

الفروقات الثقافية.

ويجب أن نشير إلى انه إذا كانت المساحة الكبيرة مقرونة بعدد كبير من السكان، وعلى درجة من الكفاءة عالية، واستغلت موارد هذه الدولة استغلالا حسنا، كان معنى هذا ظهور هذه الوحدة السياسية كقوة، فنظرا لاتساع المساحة سيتنوع المناخ، وتنوع المناخ معناه تنوع الغلات، كما أن المساحة المتسعة قد تضم تكوينات جيولوجية متعددة وما يتبعها من صخور مختلفة وبالتالي معادن متنوعة.

ما الوضع بالنسبة للدول الأفريقية؟ رغم تعدد الوحدات السياسية والتي بلغت نحو 50 وحدة سياسية، فان متوسط مساحة الوحدة السياسية تبلغ نحو 600 ألف كيلو متر مربع، فهناك 22 وحدة سياسية تزيد في مساحتها عن مساحة فرنسا اكبر الدول الأوربية مساحة بعد الاتحاد السوفيتي مثل الجزائر، والسودان، وزائير، وتشاد، وأنجولا ومالي وموريتانيا، ولكن معظم هذه الدول تقترن فيها المساحة الضخمة بضآلة السكان، فتصبح كثافة السكان واهية فهي نحو 9 نسمات للكيلو متر المربع في زائير، 2 في جمهورية أفريقية الوسطى، 3 في تشاد والنيجر، 4 في مالي، 6 في كل من أنجولا والسودان.

أن الصعوبات التي تصادفها الدول الأفريقية في هذا السبيل تكاد تكون متماثلة، وان كانت كل دولة لها مشكلاتها الخاصة بها. وتأتي مشكلة نيجيريا مثلا من اتساع مساحتها (نحو مليون كم 2) وتنوع سكانها، والذي كان من شأنه تقسيم البلاد إلى ثلاث حكومات إقليمية كبرى تتفق ومجموعة القبائل أو الشعوب الكبيرة فيها: اليوربا في المغرب، والايبو في المشرق، والهوسا في الشمال لذلك كان هناك الإقليم الشمالي والإقليم الغربي، والإقليم الشرقي، ثم أضيف إليها إقليم رابع ما بين الشرق والغرب، وان كان لا تشغله وحدة قبلية كبرى كالأقاليم السابقة، فإن قبيلة الادو Edo كانت مستاءة من سيادة اليوربا عليها.

وقد حاولت أول حكومة عسكرية في غانا عام 1966 تقوية الشعور بالوحدة القومية وذلك بإلغاء الوحدات الإدارية الكبرى ذات الحكم الذاتي، والتحول إلى الحكومة المركزية حتى لا تعطي فرصة للقبلية، ولكن الحكومة العسكرية التي تلتها حاولت القضاء على الولاء القبلي والإقليمي بزيادة

عدد الوحدات الإدارية حتى بلغت اثنتي عشرة وحدة عام 1967

وذلك للتقليل من أهمية كل وحدة من ناحية القوة، ثم قسمت إلى تسعة عشر إقليما إداريا عام 1976[20] والآن بعد أن قسمت الوحدات الإدارية وبحكومة عسكرية غير عرقية، ترقبها الدول الأخرى لتعرف ما إذا كان مثل هذا النظام سيمنع أو يحول دون التيارات العرقية التحتية، والتي تعتبر من أهم خصائص هذه الدول المتنوع سكانها.

وإذا نظرنا إلى أثيوبيا تلك الدولة الكبيرة المساحة والتي تبلغ نحو 25 ,1 مليون كيلو متر مربع وبسكان يبلغون نحو 23 مليونا فسنجد أن ظروفها الطبيعية من هضاب متوسطة الارتفاع، وجبال شاهقة وأودية سحيقة، جعل سطح هذه الدولة بعيدا عن سطح الهضاب الأقرب إلى الاستواء، وأدى هذا بدوره من الناحية البشرية إلى أن يطلق عليها متحف السكان، إذ تضم تنوعا عرقيا كبيرا، ففي أقصى الشمال توجد قبائل بني عامر وهي حامية، والى الشمال الغربي الجماعات العربية في السودان، بينما يحتل قلب الهضبة في الشمال شعب الأمهرا، و يغلب عليه اللسان السامي واستمر فيهم الحكم والسلطة في البلاد، و يكونون نحو ثلث السكان، وفي الجنوب توجد جماعات الجالا الحامية الرعوية، وتحيط هذه بقبائل سيدامو التي تعيش شبه منعزلة في جنوب غربي البلاد وتظهر فيهم الصفات الزنجية، وفي أقصى الشرق يوجد الأفار والصوماليون الحاميون، وهناك أقليات متقوقعة كالفلاشا أو اليهود السود، ثم يأتي التنوع الديني ليضيف إلى التنوع العرقي فوارق. أخرى، فالمسيحية والإسلام يسودان معظم الهضبة، ولكن إلى جانبهما اليهودية فضلا عن الجماعات التي مازالت على وثنيتها، وبذلك يمكن القول بأن أثيوبيا هي مجموعة من الشعوب أو الأمم المنعزلة بعضها عن بعض[20] لأنها من اكثر الدول الأفريقية معاناة من حيث وسائل النقل بصورة رهيبة، فلا يقتصر الأمر على صعوبات النقل بين الساحل وداخل الهضبة مما يشكل عبئا كبيرا على الصادرات والواردات، بل هناك صعوبة في الانتقال بين أجزاء البلاد بعضها والبعض الآخر، بل وهناك أقاليم في أثيوبيا لا يمكن الوصول إليها إلا بالطائرة، بل إن تاريخ أثيوبيا وما صحبه من تعدد حركات التمرد يمكن إرجاعه إلى عدم وجود وسائل النقل الجيد، ومن هنا كانت عزلة الجماعات بعضها عن بعض، وصعوبة

تحرك الجيوش من ناحية أخرى بحيث عملت الطبيعة على تقطيع أوصال البلاد إلى أجزاء يصعب الاتصال بينها، وتقف عقبة حتى أمام التقدم الهندسي الحديث.

فالخط الحديدي الوحيد في أثيوبيا هو الممتد بين أديس أبابا وجيبوتي، ويحمل نحو 100 ألف طن سنويا، وهو من أصعب الخطوط الحديدية وأكثرها تكاليف وعبئا، وأما الخط الآخر فهو عبارة عن خط قصير ما بين اسمرة ومصوع في الشمال وطوله 224 ميلا، وطاقته نحو 140 ألف طن سنويا، ومع ذلك فهو يمر بنحو 30 نفقا، ولكنها لا تتقاطع، من ثم لا يمكن الانتقال مباشرة من محافظة إلى أخرى إلا بصعوبة، ويكفي في هذا المجال القول بأن عدد السيارات المرخصة في أثيوبيا في الوقت الحاضر لا يتعدى 50 ألف سيارة بأنواعها المختلفة من خاصة وشحن وركاب الخ....[(21)] و يضاف إلى ذلك أن البغال والحمير ما زالت وسيلة رئيسية للانتقال، فضلا عن أن جمع البن من مناطق إنتاجه إلى العاصمة للتصدير يتم بواسطة الطائرات[(22)].

إن الخوف من إعطاء ارتريا حريتها لا يرجع فقط إلى حرمان أثيوبيا من واجهة بحرية طويلة، وتحويلها إلى دولة داخلية شبه حبيسة، بل مخافة أن تكون له آثاره الأخرى في تحرك القوميات الأخرى والمطالبة بمثل هذا الوضع أيضا[(23)].

من ثم كان اتجاه بعض الحكومات الأفريقية لتحقيق وحدة قوية في دولها ذات المساحة الكبيرة إلى تقسيم البلاد إلى أقاليم إدارية عديدة مع منحها درجة من الحكم الذاتي أو إلى وحدات إدارية داخلية كما هو الحال في نيجيريا.

وإذا كانت المساحة والعرقية والحركات الانفصالية قد تؤيد الحاجة إلى هذا القرار، فلا يبدو أن مثل هذه التقسيمات تخلق شعورا قويا بالوحدة والترابط القومي، أي تخدم غرضا قوميا، فالأقسام الإدارية المتعددة تشجع على المركزية والبيروقراطية، وعدم الكفاءة، فكثرة تفتيت الدولة في قارة مثل أفريقية، حيث الروح القومية لم تقو في كثير في الأحيان بحيث يمكن للحكومة الاعتماد عليها، لا يمكن أن تؤدي إلى الهدف المنشود، بقدر ما قد تؤدي إلى تحطيم الوحدة القومية، وإذا سمح بمنطق الانفصال، فليس هناك نهاية لما يحدث من فوضى، من ثم كانت من أهم مشكلات الدولة

الأفريقية هي محاولة جمع الأقاليم في الوقت الذي تحاول فيه الأقاليم فصم أو طرح نفسها.

شكل الدولة:

إن تماسك واتصال أجزاء الدولة أو ظهورها ككتلة واحدة يعتبر من مميزاتها، فكلما كانت ملتئمة كلما قصرت أطوال الحدود بالنسبة إلى المساحة.

ومن الناحية النظرية البحتة يعتبر الشكل الدائري مثاليا، وخاصة إذا كانت عاصمتها تمثل مركز هذه الدائرة، ويمكن معرفة الانحراف عن هذا الشكل المثالي عن طريق عمل نسبة بعد الحدود الحقيقية عن محيط هذه الدائرة، فكلما كان الرقم صغيرا كانت الدولة اقرب إلى الشكل المثالي، وكلما كان كبيرا كلما بعدت عن هذا الشكل المثالي.

على سبيل المثال رومانيا، سويسرا، المجر، مصر كلها أشكال أقرب إلى المثالية، بينما تعتبر شيلي مثلا تقليديا للدول ذات الامتداد الطولي الكبير، إذ تمتد من الشمال إلى الجنوب لمسافة 2600 ميل. على حين أن عرضها قد لا يتجاوز مائة الميل، كذلك الحال في النرويج، كما تعتبر غير مثالية الشكل حين تظهر فيها أجزاء منفصلة عن الكتلة الرئيسية، كألمانيا قبل الحرب الثانية حين كان يشطرها الممر البولندي أو الباكستان التي كان يفصل شطريها عن بعضهما مسافة 1000 ميل، وكان هذا من عوامل ضعف الدولة إذ تم انفصال باكستان الشرقية باسم دولة بنجلاديش.

والأمثلة واضحة أيضا في خريطة أفريقية السياسية حيث جمهورية مالي التي تختنق في الوسط وتترك على الجانبين كتلتين شبه منفصلتين يسهل قطعهما نظريا عن بعضهما البعض من الخارج أي من الفولتا العليا وموريتانيا، كذلك الحال في الصومال التي تمتد على هيئة شكل 7 الإفرنجي، مفرطة في الطول[24] مما يضعف من تماسكها الداخلي، كما يمكن لاسفين أو جادين هرر الذي يتعمق في الصومال شطر هذه البلاد إلى شطرين، وتكرر زامبيا صورة مالي، كما تكرر موزمبيق صورة الصومال، أما مالاوي فليست إلا إسفينا من موزمبيق. وفي جمهورية جنوب أفريقية نجد أن الترانسفال تمتد بعيدا إلى الشمال، حتى أنها تقع في دائرة نفوذ

لورنسوماركيز (موزمبيق)، بينما خطط إصبع كابريفى في جنوب أفريقية خصيصا ليصل إلى الزمبيزي غربا مما أدى إلى أن تشرف عليه بتسوا نالاند من الناحية الإدارية سابقا.

وكان من نتائج عدم الانتظام في أشكال الدول الأفريقية، فرط طول حدودها السياسية، فتكاد حدود أفريقية السياسية تبلغ 29 ألف ميل، وهي بذلك تعادل حدود الأمريكتين، أو ضعف حدود أوروبا (15 ألف ميل).

العواصم:

ويمكن أن نشير إلى أن أهمية العاصمة تتعدى كونها مركزا إداريا وتشريعيا للدولة، فالعاصمة هي التي تستقطب الشعور القومي للأمة وهي رباط عناصر الأمة المختلفة، وتمثل رمزا شبه مقدس لديهم وتتضح أهمية العاصمة كرمز للأمة في نقل العواصم أحيانا من المناطق الهامشية إلى الداخل لتكون اكثر تمثيلا للدولة، أنقرة بدلا من استنبول، موسكو بدلا من بطرسبورج، كذلك رغبة البرلمان الألماني في نقل عاصمة ألمانيا الغربية إلى برلين بدلا من بون كما تبدو أهمية العاصمة في انهيار معنويات الشعب إذا سقطت العاصمة في أيدي الأعداء.

ويؤدي تطرف العاصمة إلى صعوبة الضبط السياسي من ناحية، وإضعاف قبضة هذه العاصمة على الأقاليم الهامشية والأطراف من ناحية أخرى، فضلا عن عدم حفظ التوازن بين أقاليم الدولة المختلفة لاسيما في الوحدات الضخمة المساحة خاصة إذا كان النقل متخلفا.

وإذا كانت العاصمة المتطرفة الموقع حديثة العهد، فإنها تميل إلى أن تكتسب طابعا إقليميا اكثر منه قوميا، فبحكم موقعها المتطرف غالبا ما يتألف سكانها من العناصر المحلية أو الإقليمية، وهذا يجعل وضع العاصمة في الدول المتنافرة السكان موضع جدل ومناقشة، كما هو الحال في العواصم الأفريقية، كالخرطوم مثلا التي يذهب البعض إلى القول بأنها متطرفة نحو الشمال، بل إذا نظرنا إلى معظم العواصم الأفريقية سنجد أنها متطرفة (تشاد، مالي، الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا، تنزانيا، أنجولا، زائير، جنوب أفريقية وغيرها) ويرجع هذا إلى اكثر من عامل، منها أن المعمور والمناطق الآهلة بالسكان تجنح في الغالب إلى طرف من الأطراف، وبذلك تصبح

العاصمة في هذا الطرف أو ذاك كما في حالة ليبيا، وفي وقت ما كانت لها عاصمة مزدوجة في طرابلس وبنغازي، وكان هناك تناوب للعاصمة، عامان لكل، ثم وحدت في البيضا، في ولاية برقة قبل الثورة، ومع ذلك فالعواصم الثلاث في المنطقة الساحلية، كذلك الحال في تونس والجزائر وتميل عواصم دول الصحراء الكبرى إلى الجنوب، ويرجع هذا إلى سقوط الأمطار الصيفية على حافة إقليم السفانا (الجنوب)، هكذا الحال في نيامي، وبماكو، كما قد يرجع إلى العامل السياسي لان الاستعمار يختار عواصمه عادة في الجهات الساحلية، لأنها في نظره وسط، وسط بين المستعمرة من ناحية وبين الدولة المستعمرة من ناحية أخرى.

(لاجوس-أكرا، أبيدجان، فريتون، داكار، دار السلام، مقديشو) لذلك يذهب البعض إلى القول بأنه من دواعي تقوية الشعور القومي في الدول الأفريقية هو نقل العاصمة إلى موقع اكثر مركزية في الدولة.

وظهرت آراء كثيرة في هذا الموضوع كنقل عاصمة تنزانيا من دار السلام إلى دودوما، وذلك للتقليل من الفروقات الإقليمية بين العاصمة والأقاليم، والتخفيف من تركيز النشاط الاقتصادي والثروة والازدحام السكاني واختناق النقل من العاصمة الساحلية إلى الداخل.

كذلك الحال في فكرة نقل عاصمة نيجيريا من لاجوس إلى أبوجا في مركز وسط في نيجيريا حتى تكون على كثب أو على مسافات متقاربة من جميع السكان وبذلك يضمن استقرارها سياسيا خاصة وأن أبوجا فضلا عن موقعها الجغرافي الممتاز ذات مناخ معتدل نسبيا وتتوفر فيها موارد الماء، كما أنها لا تنتمي إلى أي مجموعة عرقية، بينما تستمر لاجوس تؤدي وظيفة العاصمة التجارية، وان كان البعض يتساءل كيف ستكون أبوجا أقرب إلى معظم السكان، بينما هي تقع في إقليم مخلخل السكان..[25].

وفي حالات أخرى كان نقل العاصمة أمرا ضروريا، ونقلت فعلا، كما هو الحال في عاصمة موريتانيا التي قرر نقلها في أواخر الخمسينات إلى نواكشوط لتخلف العاصمة القديمة وهي سانت لويس والتي لم تكن قطعة من موريتانيا، بل من السنغال، وأصبح موقع نواكشوط جيدا حيث يمر تيار كناري الذي يلطف هواءها، وحيث تتوسط الإقليم الساحلي، الصحراوي في الشمال والرطب في الجنوب.

توزيع السكان:

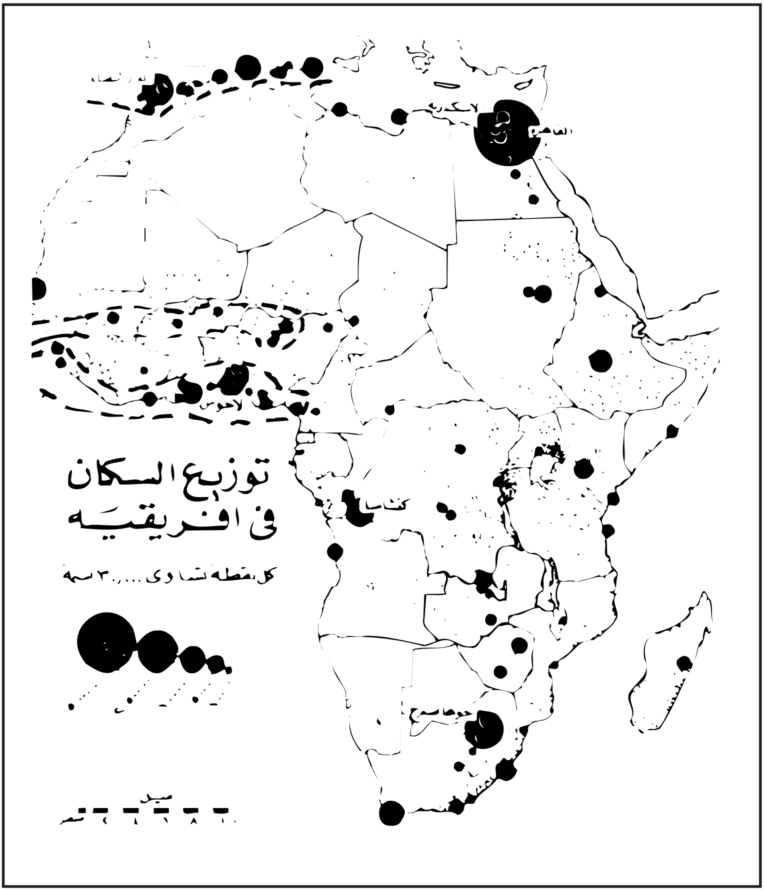
تتميز أفريقية بوجه عام بالكثافة المنخفضة والتي تدور حول 35 نسمة للكيلو متر المربع وكذلك الحال في عدد كبير من دولها، فهناك دول تقل فيها الكثافة العامة عن 10 نسمات للكيلو متر المربع مثل ليبيا والجزائر ومالي وموريتانيا والنيجر وتشاد، وأنجولا وجابون والكنغو الديمقراطية وزائير وجمهورية أفريقية الوسطى وموزمبيق وتنزانيا وزامبيا وبتسوانا والسودان وليبريا والصومال،

وإذا كانت الكثافة المنخفضة تعلل في الشمال بامتداد الصحراء على نطاق واسع كما في ليبيا والجزائر ومالي وتشاد والنيجر، فهي تعلل في وسط أفريقية حيث زائير وأفريقية الوسطى وأنجولا بكثافة الغابات والمناخ وأمراض المناطق الحارة وتجارة الرقيق، و يؤدي هذا إلى أن السكان ينتشرون، بل يتبعثرون في غطاء خفيف، متباعدين عن بعضهم البعض، مما لا يعمل على التجانس البشري، وزيادة التمسك بالقبلية، و يرتبط بتوزيع السكان في أنحاء الدول الأفريقيين معرفة أماكن التجمعات العالية الكثافة أو المعمور، لما له من انعكاسات سياسية خطيرة، ففي معظم الأحوال، يتركز المعمور في بقع محددة يفصلها عن بعضها مساحات من اللامعمور (لا يقصد باللامعمور الخالي تماما من السكان، وإنما المنخفض الكثافة ولتكن أقل من نسمة للكيلو متر المربع) ففي زائير مثلا تأخذ الكثافات الأعلى شكل هلال ترتبط اكثر ما ترتبط بالمرتفعات المحيطة بالحوض، بينما تنخفض الكثافة في الوسط لارتباطه بالسهول الحارة والغابات الكثيفة، وهذا أيضا مما لا يعمل على تجانس السكان بل يعمل على تأصيل القبلية والعرقية وهذا واضح في حوض الكنغو، فرغم أن ثلثي السكان ينتمون إلى زنوج البانتو، فما زال هناك الأقزام في الغابة، والفولاني في الكمرون، فضلا عن الزنوج السودانيين والحاميين في أفريقية الوسطى والكرون، وتلعب القبلية دورا خطيرا في عمليات الانفصال، فمن السبعين القبيلة الرئيسية في زائير نجد أن 49 قبيلة تنتمي إلى البانتو، 16 قبيلة تنتمي إلى الزنوج السودانيين، فضلا عن قبائل حامية على الأطراف، وتبدو هذه الفسيفساء القبلية أشد تعقيدا في الكمرون، ففيه نحو 140 قبيلة، بل حتى جابون الصغيرة فيها نحو 40 قبيلة، وتختلف هذه القبائل فيما بينها من

حيث التطور والاحتكاك بمظاهر الحضارة الحديثة، مما يؤدي إلى زيادة التباين القبلي وعدم التجانس، ففي الكنغو الديمقراطية نجد أن قبيلة الباكونجو لها السيادة وتعارضها بالتالي القبائل الأخرى، وفي جابون تحتل قبيلة الفانج نفس المركز الهام، وتجد معارضة من قبيلة مبونجوى الذين يعيشون في الإقليم الساحلي، وكانت اتصالاتهم قديمة بالأوروبيين. وفي زائير نجد أربع مجموعات قبلية كبرى كان لها أثرها في أحداث ما بعد الاستقلال عام 1960، فالباكونجو يعيشون بين كنشاسا والبحر، وكانوا أول من اتصل بالأوروبيين في هذا الإقليم، وكان لهم وزنهم السياسي بسبب عددهم من ناحية، ولوقوع العاصمة في أراضيهم من ناحية أخرى، و يقع الإقليم الآخر ذو الخطر في كاتنجا في أراضي البالوبا الذين امتد انتشارهم إلى إقليم كاساي، أما أقصى إقليم كاتنجا فيعيش فيه البالوندا، وكانت هجرات البالوبا للعمل في لومومباشي (اليزابيث فيل) مما أدى إلى عدم رضا ونفور البالوندا. ويحتل البامونجو مساحة كبيرة في مديريتي خط الاستواء والشرقية، وإذا كان من الصعب تقدير أهمية العامل القبلي في أحداث عام 1960 فانه يمكن القول بأن فترة الحكم البلجيكي وان كانت قد منعت الحروب القبلية غير أنها لم تمح التقاليد القبلية وعدم الثقة بين القبائل بعضها مع البعض الآخر، قد تكون القبيلة وتقاليدها ظاهرة عامة في معظم أفريقية في شرقها وفي غربها، ولكن المنافسة وعدم الثقة في زائير فاقت غيرها ووصلت إلى مرحلة انفجارية، وقد استغل لومومبا عدم الرضاء عن المهاجرين من البالوبا في كسب تأييد البالوندا[26]. وقيل في مشكلة الكنغو أن الإقليمية كانت اكثر أثرا من القبلية نتيجة الاتساع الكبير، وتنوع البيئات، وعزلة الجماعات، و بعدها عن العاصمة، ومن ثم كان التأييد لمن يعرفون، أو بمعنى آخر كان الولاء قبليا قل أن يكون قوميا.

وأحيانا يتألف المعمور من كتلة واحدة متماسكة كما هو الحال في معمور مصر أي وادي النيل والدلتا، من ثم كان التماسك والترابط القومي في مصر، والنطاق الساحلي في تونس والجزائر، ولكنه في معظم الأحوال يتألف من اكثر من كتلة أو له اكثر من نواة، تفصل بينها مساحات من اللامعمور مما يضعف من التماسك السياسي خاصة إذا صحب هذا الانقطاع في التوزيع الجغرافي انقطاع اثنولوجي والأمثلة على هذا عديدة

في الدول الأفريقية، خذ ليبيا مثلا حيث تألفت من جزيرتين سكانيتين ساحليتين برقة وطرابلس حيث يتجمع 90٪ من السكان، ويفصل بينهما نحو



- انظر التجمع السكاني في غرب أفريقية في الشمال (1) والجنوب (2) وتخلخل النطاق الأوسط
- انظر تطرف المعمور في شمال أفريقية في أقصى الشمال. بتصرف عن:

A. Akimbonde, Population explusion in Africa and its implication for Economic Development, Jour, Geog. Vol 76, no. l, January, 1977, p. 32.

800 كيلو متر من الصحراء، مما أدى إلى توجه كل منهما توجهات مختلفة قبل ظهور البترول، برقة نحو مصر، وطرابلس نحو تونس، وصحب

هذا ثنائية العاصمة، عامان في طرابلس، وعامان في برقة، إلى أن ظهر البترول فكان من أقوى عوامل التماسك والترابط القومي. و يأخذ نمط توزيع السكان في غرب أفريقية وضعا فريدا حيث يتركز السكان في نطاقين واضحين في الجنوب والشمال، بينما يتخلخل السكان فيما بين النطاقين أو في ما يعرف بالنطاق الأوسط، ففي الجهات الساحلية قامت إمارات وممالك قبل ظهور الاستعمار مملكة الاشانتي في غانا واليوربا في نيجيريا وأدى قيام هذه الممالك والاستقرار الزراعي إلى ازدحام هذه الجهات، وما زالت تقاليد الإخلاص للأرض التي عاشوا عليها سائدة إلى يومنا هذا، كذلك قامت في الشمال الإمارات الإسلامية كصنغى ومالي وغيرهما معتمدة على التجارة، وازدهرت الحياة فيها وازدحمت نسبيا بالسكان، أما النطاق ما بين الجنوب والشمال وهو المخلخل فيرجع إلى تجارة الرقيق التي استمرت قرابة ثلاثة قرون في الجهات الساحلية وكان موردها ظهير الساحل أي النطاق الأوسط، فكانت القبائل تلجأ للهضاب الشمالية للحماية من هجمات القبائل الجنوبية التي كانت تسعى للحصول على الأسرى ليباعوا رقيقا،(27).

كان النطاق الأوسط ارض النزال بين الشمال والجنوب. فإذا علمنا أن هذا الانقطاع في التوزيع الجغرافي يتبعه انقطاع اثنولوجي، الجنوب زنجي وثنى مسيحي، والشمال حامي مسلم، أدركنا سر الصراعات التي أعقبت استقلال كل من نيجيريا وغانا، والصراع بين قبائل الاشانتي والفانتى في غانا، والهوسا واليوربا والايبو في نيجيريا.

وكذلك الحال في الكمرون حيث النواة المسلمة من الفولاني قرب بحيرة تشاد، والنواة المسيحية الوثنية في الجنوب.

وكثيرا ما تتجاور الدول الأفريقية في المعمور، بمعنى أن تكون الأقاليم المرتفعة الكثافة على جانبي الحدود، وغالبا ما يكون هناك تجانس سكاني وقبلي، فتصبح الحدود في هذه الحالة، وكأنها سكين يقطع ما بين ذوي القربى كما هو الحال في التجمع السكاني شرق وشمال جنوب بحيرة فكتوريا حيث يتصل المعمور، ولكن تقطعه الحدود السياسية بين كينيا وأوغندا وكينيا وتنزانيا، وكذلك ذلك التجمع الذي تقطعه الحدود السياسية في أقصى الشمال لزائير مع الكنغو الديمقراطية، وجمهورية أفريقية الوسطى، وزائير، والكنغو الديمقراطية في حوض الكنغو الأدنى، ناهيك عن تلك

التجمعات التي تركزت في جنوب تشاد والنيجر والفولتا العليا ومالي (بسبب الطبيعة الصحراوية للأقاليم الشمالية والوسطى) ونظيرتها في شمال نيجيريا وتوجو وداهومي وغانا، مثل هذه الحدود خططت بواسطة القوى الاستعمارية دون أدنى اعتبار للبشر الذين فرضت عليهم.

مسؤولية الاستعمار المباشرة

1 - الحدود السياسية وعلاقتها بضعف التركيب القومي

من المعروف أن غالبيه الحدود الأفريقية هي حدود مفروضة أو موضوعة من الخارج، وضعتها القوى الأوروبية خلال العقدين اللذين تبعا مؤتمر برلين عام 1884، أما قبل الاستعمار الأوروبي للقارة فلم تكن هناك حدود، وكان البناء السياسي الوطني كقيام ممالك معينة من السكان الأصليين، كان يفصلها عن بعضها تخوم، كأن تكون أراض غير مسكونة، أو مناطق مستنقعات، وكان من نتائج وضع هذه الحدود أن أصبحت تمر أحيانا في ارض القبيلة الواحدة، و يرجع هذا إلى عاملين أولهما عدم اتفاق الطرفين الأوروبيين لسبب من الأسباب، وثانيهما لتغلب مصلحة اقتصادية أو استراتيجية.

وأحيانا ما تعكس صورة قرارات شخصية، ومن اشهر الأمثلة على ذلك الحدود الكينية التنزانية، فقد نصت الاتفاقية الألمانية الإنجليزية على أن يسير خط الحدود بين كينيا (إنجليزية) وتنجانجقا (الألمانية) في خط مستقيم من مصب نهر اومبا على المحيط الهندي إلى الشواطئ الشرقية لبحيرة فكتوريا، و بذلك يصبح جبل كليمنجارو داخل النفوذ البريطاني، وقد أحتج قيصر ألمانيا فيما بعد على اعتبار أن هذا يؤدي إلى أن تمتلك بريطانيا اكبر جبلين في أفريقية وهما كينيا وكليمنجارو، وقد وافقت الملكة فيكتوريا على إهداء جبل كليمنجارو إلى قيصر ألمانيا في عيد ميلاده، وأصبح من الصعب بعد أن خططت الحدود الاستعمارية، أن تتغير تلك الحدود، وحالة غمبيا أوضح دليل على بقاء دولة ليس لها ما يبرر وجودها، فهي لا تزيد مساحتها على 4000 ميل مربع، وبسكان يبلغون نحو نصف مليون نسمة، تمتد غامبيا لمسافة 200 ميل على طول نهر غمبيا، ولكنها لا تبلغ حدود حوض هذا النهر الصغير في أي مكان منه، ولا تبلغ منابعه التي

تقع في غينيا المجاورة، وهي في نفس الوقت لا يتعدى عرضها 22 ميلا، و يقطع الحد السياسي ما بين السنغال وغمبيا مظاهر طبيعية واحدة، بل وقبائل واحدة ومستوطنات واحدة، كذلك كان لبروز غمبيا في السنغال بهذا الشكل أن عزلت القسم الجنوبي من السنغال عن بقية البلاد، وكانت القوى الاستعمارية السابقة تعرف تماما الطبيعة الحادة والاصطناعية لهذه الحدود فكان هناك اتفاق بين المسؤولين البريطانيين والفرنسيين على ضرورة ضم غمبيا إلى السنغال وتعويض بريطانيا عنها، ولكن المصالح المحلية وخاصة المصالح التجارية الأوروبية، ومصالح الطبقة المتعلمة الأفريقية، عارضت كل تغيير، وأدى خضوع كل من السنغال وغمبيا إلى إدارة استعمارية مختلفة إلى تباين في النظم الإدارية والأنماط الاقتصادية والتعليمية بين البلدين[28] وقد استمر هذا التباين أيضا بين كل من غمبيا والسنغال المستقلتين.

أنواع الحدود السياسية:

و يغلب على تخطيط الحدود السياسية في أفريقية اتباع الحواجز الجبلية والأنهار، والخطوط الفلكية أي التي تتبع خط طول أو درجة عرض معينة، ولو حاولنا تعليل أسباب كثرة استخدام خطوط تقسيم المياه في عمليات التحديد السياسي، لوجدنا أن هذا يرجع إلى عمليات الكشف الجغرافي لأفريقية، إذ أنها كانت تتضمن إلقاء الأضواء على أنماط التصريف النهري للقارة، ولم يكن يعرف من حوض النهر سوى منطقة المصب، ولذلك كان من الطبيعي أن تتفق القوى استعمارية على أن تكون الحدود بينها في الداخل المجهول هي مناطق تقسم المياه بين الأحواض النهرية، لذلك اعترفت بريطانيا عام 1894 بنفوذ الملك ليوبولد في حوض الكنغو حتى مناطق تقسيم المياه أو حتى الحافات الجبلية التي تحد الأحواض النهرية المجاورة، وخاصة حوض النيل في الشمال، أما مدى مراعاة هذا لصالح السكان الوطنيين فيمكن أن نستشفه من رسالة وصلت إلى السلطان زيمو أحد سلاطين الزاندي (في جنوب غرب السودان) عام 1900 من حاكم الإقليم يقول فيها: انك على بينه من الحدود التي اتفق عليها الإنجليز والفرنسيون والبلجيكيون، أن النفوذ المصري الإنجليزي يبدأ حيث تنبع المجاري المائية التي تتدفق

نحو الشمال أو نحو النيل[29].

أما النوع الآخر الشائع في أفريقية وهو الخطوط الفلكية، فهذا يتفق عليه عادة على موائد المؤتمرات، وعلى بعد مئات الأميال من القارة، من ثم كانت تظهر صعوبات كبيرة أمام هؤلاء الذين يقومون بالتخطيط العملي على الطبيعة، والأمثلة عديدة على ذلك، فعند تخطيط الحدود السياسية بين الكمرون الألماني ونيجيريا البريطانية عام 1903 اختلف الفريقان نظرا لان كل فريق كان يقدر خطوط الطول بطريقة مختلفة عن الآخر، وحيث تسير خطوط الحدود (الفلكية) في مناطق أو عبر طرق هجرات فصلية، تصبح غير مناسبة.

ومنها خط الحدود بين مصر والسودان الذي اتفق على أن يسير مع خط عرض 22 شمالا، مما أدى إلى ضرورة اتخاذ خط آخر للحدود الإدارية بحيث يجمع قبيلة البشاريين بأكملها في السودان، وقبيلة العبابدة في مصر.

ولعل استعمال الأنهار كحدود سياسية كان أقل أنواع التحديد السياسي تعقيدا من الناحية الفنية، إلا في المناطق التي تغير فيها الأنهار مجاريها المائية، أو حين كان المجرى المائي معروفا في جزء منه ومجهولا في جزء آخر، عندما وقع اتفاق الحدود، لذلك نجد أن كارل بيترز الألماني يدعى أن نهرا غير مجراه، وذلك بغية الحصول على ارض جديدة في شرق أفريقية، أو للمساومة على منطقة من جهة ثانية، وفي مناقشة لتخطيط الحد السياسي بين السودان وأثيوبيا نجدهم يقترحون استخدام نهر البيبور. ولكن إذا لم يصل البيبور إلى خط عرض 6 شمالا، فان مجراه حتى خط طول 34 شرقا يصبح هو الحد السياسي. ونظرا لصعوبة توغل المستعمر في المراحل الأولى أيضا في دارفور في السودان ووادي في تشاد، اتخذ نهر كاجا حدا سياسيا في غربي السودان بينما القبائل من الجانبين تتجه نحوه للسقيا، لمدة سبعة شهور في السنة، وبدلا من أن يكون النهر فاصلا، اصبح جاذبا.

وهكذا ساهم المستعمر بالحدود السياسية التي وضعها على خلق عدم الولاء القومي لأنه قطع أو قسم القبيلة الواحدة على اكثر من وحدة سياسية، كما هو الحال في الهوسا والفولانى بين نيجيريا والنيجر والكمرون، والايفى

بين توجو وغانا، والباكونجو بين زائير والكنغو الديمقراطية، والازاندي في السودان وزائير، وجمهورية أفريقية الوسطى، وشعب الصومال الذي يمتد في أثيوبيا وكينيا، ومعظمها يسبب مشكلات داخلية وخارجية لأن هذه الأجزاء من القبائل لا تحس بالولاء لدولها بقدر ما تحس بالانتماء القبلي.

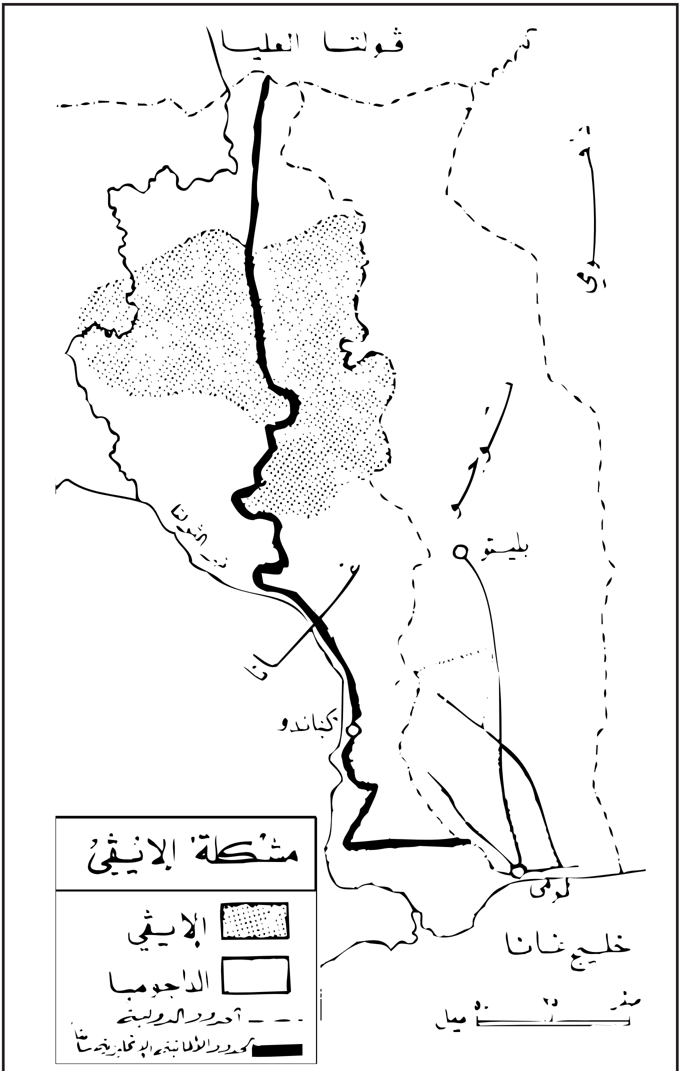
وكانت السلطات الاستعمارية تخفف من حدة فصل أعضاء القبيلة الواحدة بين مستعمرتين، وذلك بالتخفيف من قيود الانتقال على الجانبين، وقد يرجع هذا إلى أن كثيرا من السلطات الإدارية لم تعرف الحدود الفعلية لكل وحدة سياسية، ولذلك كانت عمليات الانتقال والهجرة من الأمور المألوفة. غير أن استقلال هذه المستعمرات السابقة دون تعديل للحدود، ومحاولة كل دولة جديدة ممارسة حقها في السيادة بوضع القيود على الانتقال عبر الحدود، أدى إلى ظهور مشكلات خطيرة على طول تلك الحدود. فعلى سبيل المثال نجد أن حكومة توجو ظلت فترة تضع مراقبة شديدة على طول خط الحدود بين غانا وتوجو خشية تهريب السلاح للأحزاب المعادية للحكومة، بينما نجد الحدود بين نيجيريا والكمرون وقد انتشرت عليها محطات المراقبة لمنع الهاربين من الكمرون واتخاذ نيجيريا ملجأ لهم. كما شددت أثيوبيا الحراسة على حدودها مع الصومال، وألغت اتفاقية مع الصومال كانت قد عقدت تسمح لرعاة الصومال بعبور الحدود الأثيوبية بحثا عن الكلأ والماء لقطعانهم.

هكذا ورغم ما يؤخذ عليها فقد أصبحت الحدود الاستعمارية متفقا عليها كأطر للوحدات السياسية المستقلة، معترف بها على الخرائط، وتمارس الحكومات الأفريقية المستقلة سيادتها في داخلها، فضلا عن أن منظمة الوحدة الأفريقية قد اتخذت قرارا عام 1963 باعترافها بحدود الدول الأفريقية كما هي عند الاستقلال منعا للانشقاق بين الدول الأفريقية، ومن أمثلة مشكلات تعدد الولاء القومي للشعب الواحد أو القبيلة الواحدة يمكن أن نضرب مثلين بشعب الايفى وشعب الصومال.

مشكلة الايفى في غانا وتوجو[30]:

يبلغ عدد أفراد شعب الايفى نحو715 ألف نسمة، يعيشون في غرب أفريقية مقسمين بين دولتي غانا وتوجو، والحد الشمالي للقبيلة يسير

موازيا لخط الساحل على بعد نحو85 ميلا منه. وتتألف مواطنهم في معظمها من سهول متموجة لا يزيد ارتفاعها عن 400 متر، وتغطيها حشائش السفانا



J. R. V., Prescott, The Geography of frontiers and Boundaries, London, 1967, p. 137

المكشوفة، ولا يظهر تغير ملموس في هذه البيئة اللهم إلا بالقرب من الساحل، حيث تمتد البحيرات الساحلية التي تحيط بها أشجار نخيل الزيت وتفصل بينها رمال الساحل. وإذا استثنينا بعض صيادي الأسماك، نجد الأيفى شعبا من الزراع، يقوم بزراعة الذرة واليام. وهناك رغبة من الأيفى بأن يلتئم شملهم سواء كدولة مستقلة أو كجزء من دولة غانا أو جز من دولة توجو.

وكان شعب الايفى قبل التدخل الأوروبي مقسما إلى اثنتي عشرة قبيلة فرعية تعيش بين مملكتي أبومي والاشانتي، وخلال فترات الحروب كانت تعقد الأحلاف الوقتية بين هذه الفروع. وكان أول فصل للايفى عند تحديد خط الحدود بين ساحل الذهب البريطاني وتوجو الألمانية حيث سار الخط بين لومي على الساحل ونهر الفولتا على بعد 30 كيلو مترا، ولم تكن هناك شكاوي من الايفى في ذلك الوقت، غير أن المنطقة قسمت بعد الحرب العالمية الأولى بحيث ضمت فرنسا ثلثي الإقليم بما فيه كل الساحل والخط الحديدي وضم الباقي المجاور لساحل الذهب إلى بريطانيا، وقد تأكد هذا الوضع عام 1920 عندما منحت فرنسا وبريطانيا انتدابات على المنطقة. وخفف أثر هذا التقسيم الثالث أن بريطانيا كانت تحكم الجزء الخاص بها، كقسم من ساحل الذهب، على عكس الفرنسيين الذين احتفظوا بإدارته منفصلة عن داهومي والفولتا العليا، وقد أحس الايفى بهذا الفصل في فترة 1941/ 1943عندما أغلقت حكومة فيشي الحدود، وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى ظهرت رغبات من الايفى بالالتئام والوحدة، وان ظهرت اقتراحات متعددة على كيفية الوحدة.

وقد زارت بعثة من الأمم المتحدة الإقليم عام 1950 وكتبت تقريرا ذكرت فيه «أن المشكلة بلغت من الحدة مبلغا يستدعى حلا سريعا لصالح السلام والاستقرار في المنطقة» ولم يظهر هناك حل مرض لمشكلة الايفى حتى الآن، وقد عمل استفتاء في توجو عام 1956، ظهر من نتيجته رغبة الجزء البريطاني من توجو في الانضمام إلى ساحل الذهب (غانا)، بينما التصويت الذي حدث في توجو الفرنسية كانت نتيجته الرغبة في قيام دولة مستقلة داخل الاتحاد الفرنسي، وان كانت جمهورية توجو خرجت من هذا الاتحاد عام 1960.

انه لمن الصعب تصور حل مرض لهذه المشكلة، فإعادة توجو البريطانية ثانيا وتوحيدها مع جمهورية توجو مثلا لن يحل إشكالا، لأنه لن يضم الأيفى الذين يعيشون في جنوب شرق غانا، بل وسيقسم شعب الداجومبا في شمال شرق غانا، وخلق دولة مستقلة للايفى ليس حلا مرضيا لأنه سيخلق مشكلات في المواصلات والتنمية لبقية أجزاء توجو، ويعتبر الايفى أنهم يدفعون ثمنا غاليا لوحدتهم مع غانا، وكان لعدم حل هذه المشكلة أثره في حدوث التوتر الدائم في الإقليم، واشتدت الحراسة في غانا وتوجو على خط الحدود، وعندما اغتيل الرئيس أولمبيو عام 1963 أغلقت حدود توجو مع غانا فورا. وقد أشارت غانا مرارا إلى قيام اتحاد بينها وبين توجو، وزاد من توتر الإقليم الضغط الغاني من ناحية وخوف حكومة توجو من اقتطاع أجزاء من أراضيها من ناحية أخرى.

مشكلة شعب الصومال[31]:

يحتل الصوماليون القرن الأفريقي الذي يحده البحر الأحمر والمحيط الهندي وخليج عدن، فضلا عن خط غير منتظم يبدأ من مصب نهر تانا في كينيا إلى ميناء جيبوتي وينقسم الشعب الصومالي بين البلدان التالية: في جيبوتي (25000) في جمهورية الصومال (2 ,076 ,000) في أثيوبيا (350 ,000) في كينيا (1119 ,000) من ثم توجد مشكلتان للحدود بين جمهورية الصومال من ناحية، وبين كينيا وأثيوبيا من ناحية أخرى، و يتفق الشعب الصومالي في اللغة والحضارة و يقويهما الاقتصاد القائم على الرعي، وبرغم أنه لم تكن هناك وحدة سياسية قبل ذلك في الإقليم، إلا أنه كانت هناك فترات من الاتحاد لصد قبائل الجالا في كينيا وأقباط أثيوبيا.

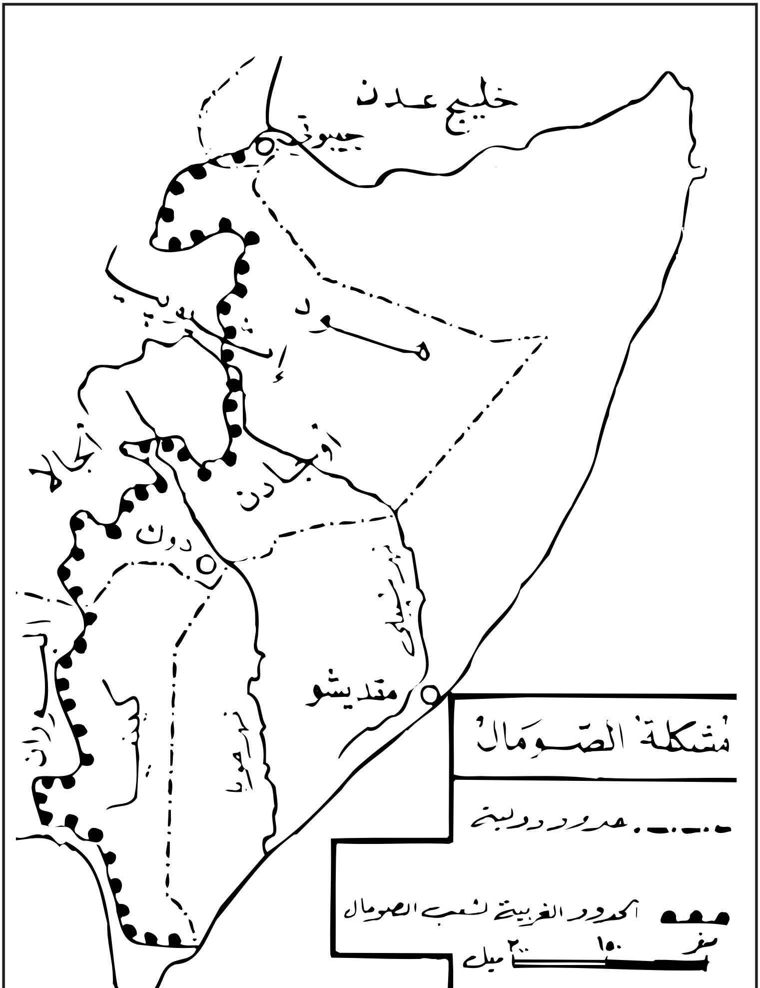
ولا توجد في هذه المناطق حدود معروفة، بينما يعتبر الاحتلال الفعلي للأرض هو الأساس الوحيد للسيطرة على الأرض القريبة من موارد الماء والكلأ، ولذلك نجد أن الحدود في مناطق الرعي تعتبر حدودا ديناميكية متحركة، تبعا لاختلاف قوة القبائل ومدى احتياجاتها، ويتبع قبائل شمال الصومال نمطا من الرعي يتمثل في الهجرة صيفا إلى إقليم هود في أثيوبيا، عندما تكون مرتفعات هود في أحسن حالاتها نباتيا، وفي نفس الوقت تكون مراعي سهول الصومال قد أنهكت، أما الأجزاء الجنوبية من

الصومال، فلا تتميز بظهور حرفة الزراعة فيها فحسب، بل بالهجرة الفصلية للرعاة أيضا، حيث يتجه السكان بحيواناتهم إلى الأراضي النهرية خلال الفصل الجاف، لأن نهري جوبا وشيبلي دائما الجريان ثم يرجعان إلى مراعي الأقاليم الساحلية خلال فصل المطر القصير الذي يمتد من أبريل إلى مايو، ومن أكتوبر إلى نوفمبر، و يصبح اختراق خط الحدود (الصومالية-الأثيوبية) من الأمور الضرورية بالنسبة لبعض القبائل.

فإذا رجعنا الأقلية الحدود التي فرضت على الإقليم بواسطة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا نجدها ترجع الأقلية فترة (1885- 1900) حين حصلت بريطانيا على محمية كينيا والصومال البريطاني، بينما حصلت فرنسا وإيطاليا على مستعمرتيهما، وقد فصلت هذه الحدود الهندسية بين أراضي القبيلة الواحدة، حيث فصلت المراعي الشتوية عن المراعي الصيفية. وقد نصت المادة الرابعة من الاتفاقية الإيطالية الحبشية سام 1908 م على أن خط الحدود يجب أن يمر الأقلية الشمال الغربي من نهر وبي شبيلي بحيث تقع كل أراضي القبائل ل«أوجادن» ضمن أثيوبيا. وقد بدأت لجنة إيطالية أثيوبية تحديد أراضي القبائل. ورغم أن تحديد الخط بين الصومال البريطاني وأثيوبيا صادف نجاحا عام 1935، إلا أن الصوماليين كان لهم حق عبور الحدود الأقلية مراعيهم التقليدية في إقليم هود طبقا للمعاهدة البريطانية الأثيوبية عام 1897.

وبرغم الحدود الاستعمارية فقد أدى ضغط الصوماليين المتواصل على قبائل الجالا في شمال شرقي كينيا الأقلية زحزحتهم الأقلية الغرب من النهر، فقد انخفض عدد الصوماليين في كينيا في عام 1921 نتيجة تنازل بريطانيا عن الإقليم الواقع بين نهر جوبا وحدود الصومال الإيطالي، مكافأة لإيطاليا على اشتراكها في الحرب العالمية الأولى، وقد اتفق على خط حدود يبعد 60 ميلا شرق نهر تانا يعرف بخط الصومال somaIi Iine ومنعت هجرة الصوماليين الأقلية الغرب من هذا الخط، وذلك لحماية قبائل الجالا ولكن هذا الإجراء بدوره لم يصادف نجاحا يذكر، نظرا لأن الجماعات الصومالية في الوقت الحاضر تعيش على مرمى 10 أميال من الضفة الشرقية للنهر.

وقام نزاع على الحدود بين أثيوبيا وإيطاليا عام 1935، وفي نفس العام



J. R. VÆ., Prescott, The Geography of frontiers and Boundaries, London, 1967, p. 141

وهناك عرض مفصل بالخرائط لمشكلة الصومال أيضا في

Drysdale, John, The Somali Dispute, London, 1964.

احتلت إيطاليا الحبشة، وبذلك ربطت بين شعب الصومال في أوجادن والصومال الإيطالي، واحتلت إيطاليا الصومال (الإيطالي) عام 1940غير أن السيادة الإيطالية حلت محلها السيادة البريطانية في العام التالي، ورغم استقلال الحبشة إلا أن بريطانيا استمرت في إدارة إقليم هود، وهذا معناه أن الشعب الصومالي استمر تحت الحكم البريطاني حتى عام 1950 عندما وضع الصومال الإيطالي تحت الوصاية الإيطالية من قبل الأمم المتحدة، حاولت إيطاليا الوصول إلى اتفاق بشأن موضوع الحدود مع أثيوبيا خلال عشر السنوات التالية، ولكن دون جدوى. وبدأت وحدة الشعب الصومالي تتفكك عام 1954 عندما رجع إقليم هود وبعض المناطق الأخرى إلى أثيوبيا، وان كانت قد عقدت معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا لحفظ حق الصوماليين الإيطالي والبريطاني في جمهورية الصومال المستقلة. ورغم أن هذا أدى إلى وحدة بين شعب الصومال فانه زاد من حدة النزاع مع أثيوبيا، وادعت أثيوبيا أنه ليس من حق حكومة الصومال وراثة حقوق أعطيت للحكومة الأثيوبية لضمان ولاء الصوماليين الذين يدخلون ضمن الحدود الأثيوبية، وجذب الجمهورية الجديدة إلى نوع من الاتحاد الفدرالي مع أثيوبيا كما فعلت مع أرتريا ووعدت أثيوبيا الصوماليين بفتح المدارس وبناء المستشفيات وحفر الآبار فضلا عن إقامة مشروعات توليد القوى الكهربائية على نهري جوبا وشبيلي، ولكن الصوماليين عارضوا كل تسوية مع أثيوبيا، مما أدى إلى أن تنفق حكومة الصومال 20٪ من ميزانيتها (1963) على المجهود الحربي.

وبينما يتصف النزاع الصومالي الأثيوبي بالقدم، نجد النزاع الصومالي الكيني، أو طلب صوماليي كينيا الانضمام إلى الصومال لا يرجع إلا لعام 1961 قد اتفق الحزبان اللذان يمثلان صوماليي كينيا في مطالبهم للمستقبل، وتتمثل هذه المطالب في عمل استفتاء في مديرية الحدود الشمالية في كينيا التي يعيش الصوماليون شرقها والبورون في غربها وهؤلاء أقرب إلى الصوماليين منهم إلى أهل كينيا، ويشرف على الاستفتاء أعضاء من منظمة الأمم المتحدة ولكن من غير الأعضاء الأفريقيين، وذلك بعد انسحاب قوات الشرطة والجيش التابعة لكينيا من الإقليم.

هذا ولا يؤيد قضية ضم صوماليي كينيا كونهم يرتبطون حضاريا بأهل جمهورية الصومال فحسب، بل لأن خط الحدود الهندسي يفصل بين المراعي

الصيفية والمراعي الشتوية للقبائل، فضلا عن بعد هذا الإقليم عن بقية كينيا. وبطبيعة الحال لا نجد أيا من الأحزاب المتصارعة في كينيا يوافق على اقتطاع نحو خمس مساحة كينيا وهي التي تكون المديرية الشمالية (N.F.D.) وهكذا تنقسم الأمة الصومالية بين ثلاث دول، الصومال، وأثيوبيا، وكينيا.

التأكيد على ذكر القبيلة في شهادة الميلاد وإحداث فجوات في التنمية بين أجزاء المستعمرة

ويذهب البعض إلى أن مسؤولية الاستعمار تتعدى تخطيطه للحدود السياسية وإيجاد هذه التجمعات القبلية، أو المجتمع المركب وقد رأينا أنه قبل الاستعمار، كانت هناك ممالك أفريقية تضم أحيانا عناصر مختلفة، ولكن اختلف الحال في عهد الاستعمار، أو في المستعمرة، فهي قد تتشابه مع تلك الممالك في كونها نتيجة لتجمع عدد من القبائل أو أناس من أصول مختلفة جمعوا ليعيشوا معا في إطار سياسي واقتصادي واحد، ولكن في حالة المستعمرة، فان المسؤولين عن إدارتها (الإدارة الاستعمارية) ظلوا خارج النظام، فهم خالقون له فقط، أسسوا أجهزة لإدارة هذه الوحدات الجديدة، وتولوا إدارتها، ولكن لم يكن هناك التقاء أو حوار بينهما، أو بمعنى آخر كان الحكام والمحكومين يكون لكل منهما مجتمعا منفصلا عن الآخر، وبمعنى آخر ما دام المستعمر مهتما فقط بإدارة المستعمرة فقد استخدم رؤساء القبائل لبسط نفوذه، ومن ثم كانت سياسة لورد لوجارد في الحكم غير المباشر، وتطبيقه في دولة كنيجيريا أو أوغندا، ولم يقتصر الأمر على المستعمرات الإنجليزية فحسب، بل تعداه الإقليم المستعمرات الفرنسية سابقا، والتي كان يمارس فيها الحكم المباشر وفكرة التشرب الثقافي، ولم تحاول الإدارة الاستعمارية خلق شعور جماعي بين رعايا المستعمرة، ولدعم هذا الرأي يمكن القول بأن الشخص الذي كان يولد في السنغال أو الكمرون، لم يكن يشار إليه في السجلات الرسمية (شهادة الميلاد، التعليم الخ) ألا بأنه من الولوف أو الدوالا أو السرر أو البافيا تبعا لقبيلته، ولم يكن هناك أي إشارة الإقليم الوحدة الإدارية أو السياسية.

فالغرض الأول للمستعمر كان استغلال ثروات هذه البلاد، وفتح أسواق

جديدة، فكل ما يرغب فيه المستعمر هو إدارة تلك البلاد لمصلحة الحكومة وشعب الدولة المستعمرة، وليست هناك حاجة لبذل جهد لخلق ظروف مواتية لتنمية إحساس بقومية معينة والولاء لها، بل لم يكن هناك نية لعمل هذا، لأن ذلك الأمر سيتعارض في النهاية مع مصلحة المستعمر.

والحكومات التي تولت أمور الدولة الأفريقية المستقلة لم تفعل شيئا عمليا لبث الوعي القومي وتثبيته، وعندما يدينون الروح القبلية فيرجع هذا الإقليم خوفهم على نظمهم، وكان من المتوقع أن يكون هؤلاء القادة الذين ناضلوا في سبيل الاستقلال اكثر وعيا فيما يختص بالوحدة القومية، لا بالخطب بل بالعمل، والفعل. كذلك خلق الاستعمار فجوات بين الأقاليم داخل المستعمرات بين الجهات الساحلية مثلا والجهات الداخلية نتيجة السياسة الاستعمارية التي تهدف الإقليم الاستغلال الاقتصادي و يتضح الفارق بين الجهات الساحلية والداخلية في عملية التنمية، ذلك أن إدخال المحاصيل النقدية واستغلال الموارد ارتبط بالفترة الاستعمارية، وفي سبيل هذا بدأت عملية خلق أسس البنيان الاقتصادي Infrastructure التي تمثلت في مد الطرق والخطوط الحديدية والقوى الكهربائية والمواني، بدأ كل هذا في الجهات الساحلية وساعد عليه اكثر من عامل، منها وفرة الرطوبة طول العام، ومنها أن الاستعمار بدأ في الأقاليم الساحلية، وفي غرب أفريقية كانت الإمارات الإسلامية باسطة نفوذها في الداخل، من ثم كان النمو غير المتساوي، وظهور الفجوات في النمو الاقتصادي نتيجة تفاوت اهتمام المستعمر بإقليم دون إقليم، والجدول التالي يبين التفاوت في التعليم الحديث بين الشمال والجنوب أو بين الداخل والساحل في نيجيريا كنموذج لما نقول.

(التعليم الحديث في نجيريا قبل الاستقلال) (32)

السنة	جنوب نيجيريا الطلاب المقيدون تعليم ابتدائي	تعليم ثانوي	شمال نيجيريا الطلاب المقيدون ابتدائي	ثانوي
1906	11,872	20		0
1926	138,249	518	5210	0
1947	538,291	9,657	70,962	251
1957	2,343,317	28,208	185,484	3,643

هكذا أدت هذه العوامل المتشابكة إلى خلق مجتمعات لا مجتمع واحد داخل الدولة الواحدة، خلق دول مركبة بدلا من دول بسيطة التركيب. ولكن لنتساءل هل هذه الظاهرة تقتصر على الدول الأفريقية؟ لا إن هذه الظاهرة توجد أيضا في المجتمعات المتقدمة حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن دعونا نعرف كيف حققت هذه الدول المتقدمة الوحدة القومية؟.

كيف حقق مؤسسو الولايات المتحدة الأمريكية الوحدة القومية في مجتمعهم المركب ؟

إن مشكلة المجتمع المركب لا تقتصر على أفريقية، فهي موجودة في العالم الغربي كما نعرف في سويسرا وبلجيكا وكندا، حيث يتعدد اللسان وحيث يدعي السكان لأنفسهم ثقافات مختلفة، ولكن لا شك أن الولايات المتحدة قد تكون مثالا اكثر وضوحا على هذا التعدد كما في أفريقية، فالاختلاف العرقي واضح في الولايات المتحدة حتى إنها معروفة عالميا بأنها بوتقة صهر أمريكية American Melting Pot فأول ما يسترعي الانتباه للباحث الاجتماعي هو أنه لا يوجد إنسان أمريكي في أمريكا، فيشير الناس إلى أنفسهم بأنهم ألمان، أو إيطاليون أو صينيون أو يهود أو ايرلنديون أو زنوج... الخ. حتى ليصبح من المغري القول بأنه لا توجد أمة أمريكية، ويرجع هذا إلى أن تعدد القوميات واضح للغاية، فضلا عن أميته في الحياة الاجتماعية الأمريكية، و يظهر هذا في المهرجانات والمناسبات، وفي تكوين الاتحادات والأندية الخ.. معظمها على أساس عرقي، و يظهر أيضا في اختلاف طرق المعيشة لدى الأسر الأمريكية، اجتماعيا وخلقيا وعقائديا، فلا يقتصر الأمر على وجود صدامات بين البيض والسود، ولكنك تجد أيضا تمييزا ومحاباة إن لم نقل تمييزا بين القوميات المختلفة كالايرلنديين والإيطاليين والبولنديين الخ... بل وقد يصل الأمر إلى الزواج الداخلي، فما بالك بالجماعة الصينية التي تعيش متقوقعة! وتنتقل آثار هذا المجتمع المركب من الحياة الاجتماعية إلى الحياة السياسية، وهو ما يهمنا في مجالنا هذا، فقد لا يفهم الإنسان السياسة الأمريكية إلا بقدر ضئيل، إذا اقتصرت رؤيته السياسية على الحزبين المعروفين وأجهزتهما، ولم يضع في الاعتبار تأثير الجماعات العرقية، ولعل المقالة التي نشرت عقب انتخابات

العمودية ني غرب ولاية ماساشوسيتس في إحدى الصحف الإقليمية توضح ما نقول حيث يذكر المقال بأن كل مرشح ديمقراطي. يقابله مرشح جمهوري في كل مدينة، ولكن شعار «الدم أكثف من الماء» مازال ساريا، وهو الحكم الحقيقي في لعبة الانتخابات، فيتجمع الايرلنديون في جانب، بينما يتجمع الإيطاليون في الجانب الآخر ومن المتعارف عليه أنه إذا كان حاكم ماساشوسيتس إيطاليا، فلا بد أن يكون عمدة بوسطن ايرلنديا، وإلا حدث عدم توازن للقوى السياسية والاجتماعية هناك. وإذا رجعنا للأستاذ لورنس فوش Lawrence Fucho أستاذ الحضارة السياسية في جامعة برانديز فسنجد في أحد فصول كتابه السياسة العرقية الأمريكية American EthniC politics أن اليهود في الفترة ما بين 1900-1928 كانوا يصوتون لصالح الحزب الجمهوري اكثر من الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة الأمريكية، ولعل أهم الأسباب هو عداؤهم للايرلنديين، وفي فصل آخر يذكر أن لكل مرشح الدعاة السياسيين الذين مهمتهم القيام بالجولات المختلفة لجمع أصوات الجماعة العرقية، وبمجرد نجاح المرشح فلابد أن يبحث للذين انتخبوه عن وظائف مناسبة.[33]

بل قد يتعدى هذا التأثير إلى السياسة الخارجية، كما يذكر دكتور فوش، بل أحيانا تعاني السياسة الخارجية من هذا الولاء اللاقومي أو العرقي، فقد تضطر واشنطن للتصرف مع الأقطار الأفريقية تحت ضغط القادة الزنوج الأمريكيين.

ومن أمثلة تأثير جماعات الضغط العرقية أو الطائفية أنه عندما زار الملك فيصل الولايات المتحدة الأمريكية عام 1966 بدعوة رسمية، وصرح بأن أي دولة تساند إسرائيل تعتبر معادية للعرب، بسبب هذه العبارة ألغى عمدة نيويورك كل الاحتفالات الرسمية والاستعدادات التي كانت ستقام احتفالا بالضيف الكبير وقد حدث هذا بتأثير الجالية اليهودية، وبعد ذلك بأشهر معدودة قاطع السفراء العرب الحفل الذي أقامه عمدة نيويورك بمناسبة افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة كرد فعل لتصرفه السابق[34].

ولعل هذا يوضح تأثير هذا المجتمع المتعدد على الحياة الاجتماعية والإدارة المحلية وعلى المستوى القومي والعلاقات الخارجية ومع ذلك فلا

يمكن للإنسان أن ينكر أن هناك مجتمعا أمريكيا وأمة أمريكية.

فهناك نظام اجتماعي اقتصادي في الولايات المتحدة الأمريكية يعطي الأمريكيين الفرص لتحقيق أحلامهم، ويؤمن مصالحهم، ويحسن من أحوالهم إذا هم رغبوا، وكان لديهم التصميم على ذلك، من ثم فالمجموعات العرقية المختلفة قد تعمل في داخل هذا الإطار القومي لدفع مصالح أفرادها إلى الأمام، لأن الجماعات العرقية لا يمكن أن تفي بمطالب وحاجات أفرادها إذا عملت في داخل أطرها المحدودة، ذلك أن الإطار القومي يقدم فرضا أفضل واكثر ولعل هذا أحد أسباب التصاق الأمريكيين بالإطار القومي وتفضيله، إذن لا يرجع هذا لأسباب عاطفية، لأننا رأينا أن ولاءهم العاطفي غالبا ما يتجه إلى قومياتهم الأصلية، ولكنه يرجع إلى أن النظام القومي يقدم «سلعا» أفضل وأكثر تنوعا.

ومازال النظام السياسي الامريكي رغم ما قد يؤخذ عليه أحيانا يسمح للأمريكيين بالتعبير عن آرائهم فيما يخص بلادهم، وهذا ما يشعر به الأمريكيون على الأقل، فقد يكتبون إلى رئيس الجمهورية أو إلى الكونجرس ويحصلون على ردود، أو يجمعون التوقيعات، كل هذا يجعل الناس يحسون أن هناك متنفسا لهم جميعا، وأنهم يمكنهم أن يسمعوا أصواتهم، فيعتقدون أن مثل هذا النظام يعمل لصالحهم جميعا.

وهناك أيضا لغة قومية يتكلمها الجميع، وان كان البعض مازال يحتفظ أيضا بلغته الأصلية، بل يرسلون أبناءهم على فترات إلى الأوطان الأصلية لإجادة لغة الآباء، والبعض الآخر مازال يتكلم لغته الأصلية في العلاقات العائلية، وهذا الاستخدام للغة جديدة (الإنجليزية) بواسطة المجموعات القومية الأخرى لا يرجع لأسباب عاطفية، ولكن ليشقوا حياتهم في مجتمع ضخم تعتبر الإنجليزية فيه مفتاحا للفرص وللتمتع بمزايا النظام الأمريكي.

وهكذا حقق مؤسسو الولايات المتحدة الأمريكية الوحدة القومية للعناصر العرقية المختلفة من خلال العطاء الذي يقدمه الإطار القومي الواسع للسكان من تحقيق لمطالبهم وفتح فرص أوسع مما يمكن أن يحققه الإطار الضيق، وهذا ما لا يتحقق في الدول الأفريقية فما زال ضروريا معرفة أصل الفرد والى أي قبيلة ينتمي حتى تقضى حاجته لدى الوزير أو يحصل على قرض من البنك... الخ.

لماذا لم يكن الاستقلال مصحوبا ببناء الأمة في الدول الأفريقية؟

اتصفت الدول الأفريقية بعد الاستقلال بعدم الاستقرار، لأن فترة جمح المطالب الفردية والطائفية وإخضاعها للمصلحة العامة قد انتهت بخروج الاستعمار، وتحول التوتر والشد الذي مارسته الجموع الأفريقية مع المستعمر إلى ما يشبه الصراع الداخلي أحيانا، صراع على السلطة بين الفرق المختلفة، حتى يتغلب فريق على فريق، ولكن هذا المغلوب يظل متربصا ينتظر الفرصة للانقضاض، وكان هناك اعتقاد ضمنا بأن التوتر الناتج عن القهر والعداء للاستعمار سوف يزول بزواله، وأن هناك لمسة من المدينة الفاضلة ستحظى بها الدول الأفريقية، بل واعتقد الكثيرون بأن الحرية السياسية معناها نهاية الضبط الاجتماعي، واعادة توزيع الثروة، هكذا كان اعتقاد معظم أهل الريف، بل ومعظم سكان الحضر حتى ولو كان هذا الاعتقاد الكاذب وقتيا، وعدم تحقيق هذه الأمنيات يخلق شعورا بالإحباط وعدم الرضا، وبالتالي فقدان الثقة في القيادات، و يذكي نار عدم الرضا بين القبائل غير الموالية للنظام الحاكم، مهما ردد القادة الأفريقيون بعد ذلك بان الاستقلال ليس سحرا، بل عمل شاق واعتماد على النفس، ولنضرب المثل بأنجولا بعد الاستقلال:

لم تستقر تماما بعد تصفية الصراعات بين حركات التحرير المختلفة، وتولى الطبيب الشاعر أو جسيتينو نيتو زعيم الحركة الشعبية مقاليد الأمور، وبرغم المساعدات المالية الضخمة التي وصلتها، ودخلها السنوي من البترول الذي تستغله شركة جلف أويل، ويبلغ نهو 400 مليون دولار سنويا، فما زالت في موضع حرج من الناحيتين السياسية والاقتصادية، فمن مشكلاتها قلة الكوادر الفنية، من سائق السيارة إلى المهندس المتخصص، ولا يقل عن هذا ما تركته حرب التحرير من أثار على وجه البلاد، يكفي مثلا أنه عند الاستقلال كان قد خرب مائة وعشرون جسرا منها تسعة جسور ضخمة يمر عليها الخط الحديدي الرئيسي الذي ينقل منتجات البلاد، كذلك تدمير أربعة أخماس السيارات الشاحنة التي كانت تعمل قبل الاستقلال، ومنها هجر كثير من السكان لأراضيهم، وعدم عودتهم إليها مرة أخرى. أما من الناحية السياسية فكانت مشكلة قلة الوعي، فالاستقلال كان معناه لديهم أن ما كان في أيدي البرتغاليين سيوزع عليهم وعلى أقربائهم، وليس

لديهم فكرة عن المصلحة العامة، فلما لم يحدث أثاروا شغبا وإضرابا، ودمروا أحد المصانع في العاصمة، وطالبوا بزيادة في الأجور، رغم أن حالة الإنتاج لا تسمح بذلك، ونتج هذا عن قلة الوعي السياسي وانتشار روح القبلية وعدم الثقة من جانب قبيلتي الباكونجو والأوقيمبندو المواليتين لحركات التحرير الأخرى التي منيت بالهزيمة ولم تصل للحكم.

لا يمكن تنمية دولة ما عن طريق زيادة عدد الذين يوظفون في الخدمات إلى الضعف أو ثلاثة الأضعاف، أو توزيع الوظائف على الأصحاب والأقارب، ولكن على أساس تحريك السكان للعمل المنتج، ولكن الصناعة الرئيسية في الدول الأفريقية أصبحت العمل الإداري، وهي صناعة مكلفة وخاسرة بالنسبة للدولة ككل، فالعمل الإداري بعد الاستقلال انتفخ بدلا من أن ينكمش حيث يمتص 60٪ من الدخل القومي في بلد مثل بنين (داهومي سابقا)[35] ولعل بلقنة أفريقية كانت أحد هذه الأسباب، إذ تتعدد المجالس النيابية والحكومات والجيوش والتمثيل الخارجي... الخ فجابون وحدها بسكان يبلغون نحو نصف مليون يمثلهم خمسة وستون نائبا في البرلمان، أي نائب لكل 7 آلاف نسمة بينما في فرنسا النسبة واحد لكل مائة ألف، وكل نائب له سيارة رسمية بسائقها، وغالبا لا تكون من الأنواع المتواضعة، ولا يمكن لرئيس وزراء بنين مثلا أن يخرج دون موكبه الرسمي. كما يحلم كثير من رؤساء دول الفرانكفون بقصر يشبه الاليزيه، وقد كلف قصر رئيس إحدى الدول الأفريقية نحو 4 بلايين فرنك فرنسي، واضطر إلى إزالة كثير من المباني الجديدة حتى تمتد الحدائق لمسافات واسعة كما في فرساي.[36]

وانتقلت هذه الروح إلى موظفي الدولة، فأي زيارة لأحد المسؤولين حتى ولو كان في أحد المراكز الحضرية البعيدة عن العاصمة، لابد أن تتضمن مشروبا روحيا مستوردا، وفاكهة مستوردة رغم أن الفاكهة المحلية من مانجو وموز قد تكون متوفرة، وإذا نظرنا إلى المساكن في داكار عاصمة السنغال فسنجد الدارات الحديثة التي تبنى بعيدا عن بعضها تحيط بها الحدائق، فأين هذا من مساكن غالبية المواطنين المزدحمة المكدسة؟

وإذا تركنا جانبا تكاليف البناء المرتفعة، فسنجد تكاليف أخرى في الخدمات والطرق، وتوصيلات المياه والغاز والكهرباء، والهاتف، بينما المساكن المرتفعة ذات عشرة الأدوار فما فوق قد تكون أقل تكلفة.

وتسمع بأن رئيس إحدى الدول الأفريقية يشتري قصرا ضخما تحيط به الحدائق بالقرب من جامعة كاليفورنيا بقيمة 2,2 مليون دولار، حتى تتمكن ابنته من الذهاب إلى جامعة كاليفورنيا دون عناء كبير، وفي نفس الوقت يعلن هذا الرئيس برنامجا للتقشف المالي في بلاده عام 1979. وفي الحق لم يكن الاستقلال السياسي مصحوبا ببناء الأمة مما يفسر إلى حد كبير عودة أو إحياء التعصب العرقي.

ولا شك أن القادة الأفريقيين ومستشاريهم يعون هذه الحقيقة، ويفكرون في أسلوب العمل للوحدة الوطنية، وإحدى هذه الوسائل والتي ينادي بها معظم القادة الأفريقيين هي محاربة القبلية دون هوادة في كل مظاهرها، تجد هذا في خطب الرؤساء الحاليين والسابقين أمثال نكروما، سيكوتوري، وأوبوتي وسنجور، وان كان الأخير يشير إليها بروح العشيرة Clanisme, i Esprit de clan وهي تعبر عن نفس الحقيقة، من ثم يعارض القادة الأفريقيون بالإجماع هذه الروح القبلية.

يقول سيكرتوري في إحدى خطبه «عندما يذكر الانسان الحزب الديمقراطي الغيني (P. D. G.) فهو يذكر الحكومة، والدولة، وأيضا المجتمع» وكذلك المعادلة التي قال بها نكروما أيام حكمه لغانا: غانا هي حزب الميثاق الشعبي، وحزب الميثاق الشعبي هو نكروما. ولكن رغبة الحكام بالوحدة بين أبناء الأمة معناها بالنسبة لهم هو حكم هؤلاء الناس في نفس الوقت الذي لم تشبع فيه حاجات هؤلاء الناس ومصالحهم، ومثل هذا الوضع قد ينتج عنه خضوع يطول أمده، ولكنه لن يخلق ولاء حقيقيا، فالقبيلة لا تحارب بالخطب والعواطف، أو بإصدار القوانين التي تحرمها، بل عمليا بجعل النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الجديد اكثر جاذبية من النظام الاستعماري القديم، حتى يحس الناس بأن الظروف الاجتماعية الجديدة تجعلهم جميعا آمنين، وهذا يقتضي عدالة اجتماعية وتوزيع الموارد القومية طبقا لحاجات الناس أو إنتاجهم. لا طبقا لانتمائهم القبلي ويتضمن كذلك فتح الفرص المتساوية أمام المواطنين جميعا لتحسين أحوالهم، وأن يقوم النظام السياسي على أساس أن تعبر كل الفئات عن آرائها، وأن يحس المواطنون في قادتهم قدوة ومثلا أعلى، وأن تكون مصالحهم موضع اعتبار أصحاب القرار. هذا هو ما ينقص كثيرا من الدول الأفريقية، فهناك النقص

في «الآباء المؤسسين» الذين تحركهم أيديولوجيات حقيقية لبناء أممهم فقد أدى هذا النقص إلى فقدان ثقة الجماهير العريضة بهم، و بالنظام السياسي القائم، وشكهم أنه في إمكانه حل مشكلاتهم، مما أدى إلى كثرة الخلافات السياسية، وأحيانا إلى الانسحاب من الحياة العامة، ولا يرجع هذا إلى عدم كفاءة الجماهير للتغلب على الوعي القبلي، فقد أثبتت في نضال التحرير هذه القدرة، وخلال ذلك الجهاد كانت الجماهير تثق في قادتها، وتمنحهم الدعم، والتأييد الشامل، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا حقيقة أن النظام السياسي والاجتماعي الجديد الذي ورث الاستعمار هو لحماية مزايا اقتصادية واجتماعية لفئة معينة، وأن القادة الحاليين يريدون الإبقاء على هذه المزايا لأنها في صالحهم، من ثم سرعان ما سحبت الجماهير ثقتها من الحكام، بل من كل النظام الاجتماعي والسياسي السائد، وكانت إحدى وسائل التعبير هي الانسحاب من الاشتراك في الحياة العامة، ومن نشاطات الأحزاب والتي لا ينشط فيها إلا المستفيدون، ويظهر عدم الرضاء أيضا بمظاهر الفرح والابتهاج التي تصاحب قيام انقلاب، والتي تدل على الفرح بذهاب نظام سابق، اكثر من كونها تأييدا لنظام جديد، من ثم فعلى النظام الجديد الذي أتى بعد الاستقلال أن يزيل أزمة عدم الثقة الجماهيرية في المكان الأول، والمقاومة السلبية التي يجدها، لا بواسطة التهديد والسلاح، ولكن باهتمامه بالجماهير عمليا، فهذا هو الذي يقنع الجماهير بأن رفاهيهتم وسعادتهم يمكن أن تتم من خلال القنوات القومية لا القبلية، فالعقبتان الرئيسيتان في اعتقادي هما:

1- نقص القيادات التي تهب نفسا للبناء القومي.

2- عدم ثقة الجماهير بقياداتها وعدم اهتمامها بالشؤون القومية بعد أن خدعتها قياداتها.

ثم يأتي في المكان الثالث عدم وجود الحد الأدنى من الثقافة القومية لدى الشعوب الأفريقية.

الحواشي

(1), East G., Prescott, T.R. "Our Fragmented World, An introduction to political geography, mac millan. London 1975, p. 32.

(2) Ibid., P.33.

(3). Coleman, J. "Nationalism in Tropical Africa", in Mcwan. P. J., Sutchff eds. "The Study of Africa", London, 1965. pp. 160- 162.

(4) Mfoulu: "Ethnic Pluralism and National unity in Africa" in "symosium Leo rofbenius, Deutsche UNESCO-1974, p. 113.

(5) Ibid., p. 113/

(6) و يقول الجغرافي البريطاني ددلي ستامب أنه في إحدى زياراته لصيدلية في لاجوس عاصمة نيجيريا، فوجئ بوجود أحدث العقاقير المستوردة من أوروبا وأمريكا، جنبا إلى جنب مع وصفات الأطباء التقليديين وهم السحرة، فتوجد بعض بذور وجذور نباتية، وعظام، وقطع جلود، وهي التي تلقى عليها التعاويذ، وفي الريف يمكن أن تجد في الكوخ المصنوع من الطين راديو ترانزستور أو جرامفون، برغم أن الكوخ قد يكون خاويا من الأثاث راجع

Stamp, D. "Africa a Study in Tropical Development" London, 1964, pp. 191-192

(7) Op. Cit., p.114.

(8) Wallerstein, l., "independence and after", in Roger E Kaperson and Minghi Julian, The Structure Political Geography, London 1970 p. 273.

(9) محمد عبد الغني سعودي: الجغرافية والمشكلات الدولية

(10) East, G. Prescott, J. R. out Fragmented World

(11) Hodder, W.,"Africa Today" London 1977. P. 44.

(12) من الأمثلة الواضحة على استغلال الاستعمار لموضوع اللغة منع الإنجليز انتشار اللغة العربية من شمالي السودان إلى جنوبه، فضلا عن الدين الإسلامي، وفي نفس الوقت أفسح المجال للبعثات التبشيرية لتعليم الجنوبيين اللغة الإنجليزية. وقد جاء في مذكرة السكرتير المدني حول السياسة الجنوبية فيما يختص باللغة في الجنوب ضرورة تنفيذ سياسة تهيئة موظفين لا يتكلمون العربية، وان تكون الإنجليزية هي لغة المكاتب (الإدارة). وعقد مؤتمر للغات المحلية في بلدة الرجاف في جنوب السودان وأوصى هذا المؤتمر باستخدام اللغات المحلية، وعين دكتور Tucker الخبير اللغوي لتقديم المشورة في إنتاج الكتيبات الملائمة وتعترف المذكرة باستعمال اللغة الإنجليزية في الاتصال بالأهالي حين يتعذر استخدام اللغات المحلية. راجع مدثر عبد الرحيم: الإمبريالية والقومية في السودان، دراسة للتطور الدستوري والسياسي 1899/1959 بيروت 71 ص 260- 262

(13) Mensah, Ebow, "Tribalism and Africa consciousness Insight and opinion, vol. 5. No l. 1970, p. 81.

(14) Hodder, B. W. Harris, D. R. Africa in Transition, London, 1967. P. 213

(15) Hodder W.B., Africa Today. P. 52

(16) Mfoulu, jean. Ethnic pluralism and National unity in Africa. pp.115- 116.

(17) محمد عبد الغني سعودي، لماذا طرد عيدي أمين الأسيويين من أوغندا، القاهرة، الأهرام 10/13/ 1972.

(18) ويضرب wallerstein المثل بإقليم كازامنس في السنغال، وشمالي داهومي، وتوجو، وساحل العاج، وإقليم الغابة في غينيا، فمثل هذه الأقاليم في أقطار الفرانكفون الأفريقية متخلفة تقليديا وآنيا، والمقصود بالتخلف على المستوى التقليدي أن أبناءها ينظر إليهم نظرة احتقار من جانب غالبية السكان، أما عن تخلفها الآن فمظهره انخفاض متوسط دخل الفرد عن المتوسط العام في الدولة، وزيادة نسبة البطالة بصورة اكبر عن نظيرتها في البلاد، وقلة الاستثمارات فيها، وقلة كوادرها المتعلمة نسبيا، وعدم إسهام الإقليم في النشاط الاقتصادي التبادلي إلى غير ذلك، ومما هو جدير بالذكر أيضا أن المنافسات العرقية قد تكون حادة أيضا بين الجماعات العرقية المتقدمة (بين الفون والجون في داهومي، والأجني والباولي في ساحل العاج، والدجراما والهوسا في النيجر والمالنكي والبيل ني غينيا الخ. والجدير بالذكر أن لدى كل قبيلة النخبة التقليدية التي يتفاوت نفوذها، إلى جانب النخبة الحديثة المتعلمة والتي تعتبر ممثلة للقبيلة سواء داخل الحزب أو على مستوى الدولة، وكل هذا يضعف من الولاء القومي، بقدر ما يقوي من الولاء العرقي انظر
Wallerstein, I, "Elites in French Speaking West Africa" jour.
Modern Africa. Studies, Vol 3, no l, 1965, p.19

(19) Wallerstein. I. "Independence and after", op, Cit, p. 274,.

(20) Rogge R, John, "The Balkanization of Nigeria Federal system, A Case Study in the Political Geography of Africa" Jour. of geography, Vol 76, no 4. 1977, P . 14.

(21) محمد عبد الغني سعودي: افريقية، دراسة في شخصية الأقاليم، القاهرة 1976، ص 270، 172.

(22) FAO, World Coffee Survey, 1969, P. 14.

(23) Morgan, Edward, "A Geographic Evaluation of the Ethiopia-Eriteria Conflict", Jour, Modern Africa Studies, vol 15. No 4. 1977, pp. 667- 674.

(24) Barbour, K.M. "The Nile Basin, Social and Economic Revolution, in "Prothero, R., ed A Geography ot Africa". London 1973, pp. 88-100.

(25) Hodder, W. B., Africa Today, op. cit., p. 113.

(26) محمد عبد الغني سعودي: افريقية دراسة في شخصية الاقاليم ص 338 , 339.

(27). Morgan W. B. Pugh, J. C., "West Africa London", 1969. pp. 9-13.

(28) Dikshit, D.R. "The River state of Gambia", QuarterIy, vol IV, no 4. 1965, p. 235

(29) محمد محمود الصياد، محمد عبد الغني سعودي، السودان، دراسة في الوضع الطبيعي، والكيان البشري والبناء الاقتصادي، القاهرة 1966، ص 4.

(30) هناك عرض مفصل لهذه المشكلة في دراسة
Coleman, James, S., "Togoland", International Conciliation, New York, 1965, pp. 1-33

(31) عرض مفصل لمشكلة الصومال بخرائطها في كتاب
Drysdale, John, The Somali Dispute, London, 1964.

(32) Carol Hans, "The making of Nigeria's Political Regions", .Jour of Asian and African Studies,

London, 1964, vol 3., p. 273

(33) Mfoulu, Jean “Ethnic Pluralism and national unity in Africa, pp. 119. 120.

(34) Ibid., p .121.

(35) Rene Dumont, “False Start in Africa”, London 1968, p. 66.

(36) Ibid., P. 69.

خاتمه

وبعد، فهذا عرض لبعض المشكلات والقضايا التي تثور في أفريقية، وهناك العديد من المشكلات التي تعاني منها القارة وتتحدى دولها المستقلة، كقضية التنمية الاقتصادية وهي أم المشكلات، وقضية التنمية البشرية والاجتماعية، التي تبحث عن التعليم المناسب، والصحة الأفضل، وقضايا حقوق الإنسان المهضومة في روديسيا وجنوب أفريقية، وقضايا الحدود السياسية وغيرها مما لا تستوعبه صحائف كتاب واحد، وانه لا يكفي لأن يكون للدولة وللشعب الذي يسكنها ماض فقط، بل لا بد له من حاضر ولكي يعيش الحاضر يجب أن يواجه التحديات، تحديات العالم المعاصر المحيط به.

ولكن العالم من حول أفريقية لا يجوز أن يكتفي بأن يدرس أفريقية، و يقف متفرجا، فقد قدمت أفريقية إلى المجتمع الدولي الكثير، من ثم كان على المجتمع الدولي أن يقوم بدوره كاملا في الأخذ بيد دولها، والإسهام في حل قضاياها، برفع يده عن التدخل في شؤونها الداخلية بإرسال قوات أجنبية هنا وهناك، أو بتدبير الانقلابات، لأن هذه الأمور تعمل دوما على عدم الاستقرار، وتزيد حدة العرقية وتوقف التنمية، وعلى الدول الأفريقية ألا تترك ميادينها ساحة للصراع بين الشرق والغرب.

يمكن للعالم أن يتعاطف مع الأفارقة لإنهاء مشكلة الأقلية البيضاء في أروقة الأمم المتحدة

وخارجها، وإلا فكيف نفسر عدم جدوى قرار مجلس الأمن بمنع وصول السلع الاستراتيجية كالبترول إلى جنوب أفريقية؟

هل الدول التي تتبعها شركات البترول العالمية لا تعرف ما تقوم به شركاتها بعد أربعة عشر عاما من صدور قرارات المقاطعة؟

ومن المؤكد أنه يمكن الوصول إلى تسوية للمشكلات العنصرية في جنوب القارة، خاصة وأن الأفريقي اكرم من الأوروبي، فلم يطلب لتسويتها خروج الدخيل.

ودورنا نحن العرب أن نساند الحق الأفريقي، فالأفارقة ذوو قربى، ونحن جزء منهم، وهم جزء منا، ولكن هذه المساندة يجب أن تكون عن معرفة ودراية بأصول كل مشكلة وجذورها، فقد انقضى عهد التعميم، وسمة العصر التخصيص.

المؤلف في سطور:

د. محمد عبد الغني سعودي

* ولد في القاهرة عام 1931.
* تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1952.
* حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة عام 1962.
* عمل أستاذا ورئيسا لقسم الجغرافية بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية-جامعة القاهرة ومعار الآن لجامعة الكويت.
* له العديد من المؤلفات والأبحاث والترجمات منها:

الوطن العربي، السودان، الاقتصاد الأفريقي والتجارة الدولية، التكامل الاقتصادي الأفريقي، موريتانيا جسر العروبة والإسلام إلى غرب إفريقي.

الكتاب القادم

تحولات الفكر والسياسة
في الشرق العربي

تأليف:

د. محمد جابر الانصاري